إبداعات التفرغ

فرس النبي

رواية

نبيل عبد الحميد

المجلس الأعلى للثقافة

المجلس الأعلى للثقافة

ابداعات القرع

سكرتير التحرير الفني
هشام نوار

فرس النبى

رواية

نبيل عبد الحميد

الطبعة الأولي
٢٠٠٥

المجلس الأعلي للثقافة
١ شارع الجبلاية، دار الأوبرا،
القاهرة

الرقم البريدي: ١١٢١١
تليفون: ٧٣٥٢٣٩٦
فاكس: ٧٣٥٨٠٨٤
بريد إلكتروني:
egypt council @ yahoo. com

رقم الإيداع: ٢٠٠٤/٣٠٢
التصميم والإخراج للفنان
عـدلي رزق اللــه

Amiria
المطابع الأميرية



إبداعات التفرغ

[٢٠]

رواية

فرس النبي

نبيل عبد الحميد

المجلس الأعلى للثقافة

اسم الكتاب : فرس النبى

اسم المؤلف : نبيل عبد الحميد

الطبعة : الأولى - القاهرة ٢٠٠٤م .

شارع الجبلاية بالأوبرا - الجزيرة - القاهرة ت ٧٣٥٢٣٩٦ فاكس ٧٣٥٨٠٨٤

El Gabalaya St., Opera House, El Gezira, Cairo

Tel. : 7352396 **Fax :** 7358084 E.MAIL : asfour @ onebox. com

إهـــــداء

إلى الأعزاء الأقرباء إلى النفس والقلب

أخي .. زكريا عبد الحميد

زوجته .. نادية الهادى

أولاده .. إسلام .. كريم .. وليد

الجـــزء الأول

فـــرس الـنبى

(١)

تحرك الموكب الفخم ، خارجا من ساحة المطار إلى الطريق الرئيسى . فى المقدمة يزمجر موتوسيكلان كبيران ، ويطلقان أصوات « السارينة » المميزة والإشارات الضوئية . من خلفهما تزحف المرسيدس الحمراء ، وعلى جانبيها سيارتان سوداوان تلمعان فى وقار ، وفى الخلف « مينى باص » مملوء بأصوات تزعق فى حماس . انفرجت ملامح الحاج قطب الممتلئة وسرت فيها حيوية الانبساط والرضى . أعجبه شكل الموكب ومظاهر الأبهة ، فخرج من عباءته المقصبة ، وتمطى على راحته فى مقعد المرسيدس الخلفى .

ألقى بالمسبحة إلى جواره ، وراح يثنى على ما فعله عباس لإعداد الموكب بهذه الصورة المشرفة ، والتفت إليه عباس داعيا ومهنئًا بسلامة الوصول . تذكر الحاج قطب شيئًا هامًا ، فرفع سماعة التليفون وتكلم فى تشوق . أخيرًا وصل الموكب إلى مدينة نصر .

وتوقف عند السرادق الكبير ، أمام عمارة القطب .

وعندما فتح باب المرسيدس ، ووضع الحاج رجله على الأرض ، ضرب الجزار سكينه فى رقبة الثور الضخم ، فتطايرت نافورة الدماء ، وتدفقت الزغاريد الجرسية تملأ المكان ، وتنافس الراقصون والمجاملون فى احتلال بؤرة الاحتفال .

أنزل بعض الرجال حقائب الهدايا من العربات ، ووضعوها على منصة كبيرة ، فى مدخل السرادق ، عليها مفرش أنيق .. بينما اندفع البعض يطلقون الأعيرة النارية والصواريخ الملونة إلى وجه السماء .

وبعد أن شارك القطب بنفسه فى توزيع الهدايا واللحوم على كل الحاضرين أخذ عباس جانبا وسأله عن المأمور ياسر الشاهد ، فأخبره أنه فى مأمورية ، وسيأتى غدًا ، وأنه سأل عنه مرتين .

انفض الاحتفال ، وخف الزحام من السرادق .. فتأهب القطب للقيام .

ورأى عباس أن الفرصة قد حانت لكى يسترضى الحاج ، ولكى ينال مزيدا من ثقته ، فاستمهله فى رجاء ، وراح يستعرض أمامه مجموعة الأخبار والصور التى نشرها فى الجرائد ، عن عودته من رحلة الحج المباركة . وانسجم القطب من المبادرة الذكية التى قام بها عباس ، فامتدح وفاءه وحسن تصرفه ، وفى نفس الوقت كان يلوم نفسه على نسيان هذه الخطوة المؤثرة ، وعدم الانتباه لما تستحقه من اهتمام بالغ .. فى الطريق إلى باب العمارة ، كان عباس يفكر فى فايزة ، يتمنى أن يأخذ القطب معه إلى أعلى ، فلعله يراها ، يلمحها ولو من بعيد ، فيبترد صدره ويرتاح . انتبه إلى أن القطب يسأله عن أخبار برج التوحيد والنور ، فطمأنه عباس إلى أن العمل لم يتوقف لحظة ، وأن « التشطيبات » النهائية قد تمت كلها حسب أوامره ، وأصبح البرج جاهزا للتسليم .

وسكت عباس .. آثر أن لا يخبر القطب بإعلان المحكمة ، والذى استلمه فى غيابه ، حتى لا يعكر صفو ليلة العودة ، ورأى من الحكمة أن يرجئ هذا الخبر للوقت المناسب .

بعد أن دخل القطب ، ظل عباس يتمشى فى حديقة المبنى .

كان يضايقه منذ أن تسلم برقية القطب ، أن الفرصة قد أفلتت من يده ، ضاعت قبل أن يفعل شيئًا ، أو أن يقول شيئا . !

وكان يحس بالندم على تردده الجبان فى اتخاذ خطوة إيجابية ، تلفت نظر البنت إليه ، تشعرها بوجوده ، قبل أن يعود القطب . !

وتطلع إلى أعلى ، حيث همت الأضواء والحركة ، فشعر بانكسار القلب . !

كانت عودة القطب تعني انتهاء مهمته ، تعني حرمانه من التردد على جنة الحبيبة ، بحجة عباس خارجا من الحديقة .

آه لو أنها أعطته بادرة أمل مشجع ، أو حتى سمحت لعينيها أن تلتقيا بعينيه . !

(٢)

رفض المأمور ياسر الشاهد أن يقبل الهدية .

اعتذر فى إصرار ، وشكر الحاج قطب على مجاملته وكرم أخلاقه .

طاوعه الحاج وركن الهدية جانبًا .. ثم أخرج مسبحة أنيقة وقدمها إليه

– أظنك لا ترفض هذه .

أخذها ياسر الشاهد ممتثلا ، وناوله كوب الليمون .

عاد القطب يتكلم فى موضوع قطعة الأرض .. وأنه فكر جيدا فى الأمر ، واستقر به الرأى ، على أن يتنازل عنها لصالحه .

ابتسم ياسر الشاهد متعجبًا .

– لصالحى أنا .. ؟

سكت القطب لحظات ، بدا وكأنه لم يسمع السؤال .. ثم تكلم فى وقار ، بينما تتطاول هامته على ظهر الكرسى .

قال إن وزارة الداخلية ساومته كثيرًا ، لكى تحصل على هذه القطعة ، ولكنه كان يرفض ، ويصر على الرفض . !

فهو لا يتاجر فى الأراضى ، ولا يبيع أرضا اشتراها ، مهما أغراه الثمن ، أو ضغط عليه أصحاب السلطة . !

فهو مواطن صالح ، يحب بلده ، ويشارك على قدر إمكانياته فى حل مشاكلها . ولذلك فهو يشترى الأرض لكى يبنى عليها ، لكى يساعد فى حل أزمة الإسكان .

تقبل ياسر الشاهد كلام القطب على علاته ، ولكنه ظل متوجسا مما يرمى إليه .

– بارك الله فى أمثالك يا حاج

طلب القطب فنجان قهوة ، ثم عاد إلى الموضوع .

قال إنه من أجل خاطر مأمور القسم ، خاطره وحده ، سيعتبر هذه القطعة هبة منه ، ولن يأخذ مليما واحدًا من ثمنها .

إتسعت ابتسامة ياسر الشاهد وهو يقول مستدركا .

– تقصد من أجل خاطر القسم ياحاج .

تطلع إليه القطب مستخفا بضيق أفقه ، متبرما بسذاجة مناورته .. وقرر أن يلاحقه من أقصر الطرق .

قال بصوت متثاقل وهو يميل ناحية المأمور .. إنه يفعل ذلك من أجله هو ، من أجل الصداقة التى بدأت بينهما ، وليس من أجل توسيع القسم ولا غيره .. فإن المسئولين عندما يعرفون أن المأمور ياسر الشاهد قد نجح بالفعل فيما عجزت عنه الوزارة كلها . بل إنه استحوذ على قطعة الأرض مجانا ، ولم يكلف الميزانية شيئًا ، فلا بد أنه ستكون هناك احتفاءات وترقيات وخلافه لجناب المأمور الهمام .

ضحك المأمور وهو يستوعب جيدًا كلام القطب ، وراح يربت على يده الكبيرة فى حماس .

– ليس إلى هذه الدرجة يا حاج .. عموما هدية مقبولة

ثم تدارك الكلام ، بينما يناول القطب فنجان القهوة

أقصد للحكومة طبعًا .

لم يعجب القطب الكلام ، بدا يضيق بهذا التعفن السمج ، ويستنكر عجز المأمور على مجاراته فى لعبة تبادل المصالح ، لعبة خذ وهات . ارتشف فنجانه على مرتين ، وقال فى جدية حاسمة وهو يتأهب للقيام

– عموما أنا قصدت أن أخدمك أنت ، ولا أحدا سواك . فإن قبلت الهدية ، كان بها ، أوراق الهبة جاهزة فى جيبى .. وإلا .. فأنا أولى بأرضى .

فوجىء المأمور بحرج الموقف ، وبأن الفرصة ستفلت منه ، بعد أن قدمها له الرجل على صينية من ذهب .. فبادر يتعلق بالقطب ويحاول أن يسترضيه .

– انتظر يا حاج .. معقول أرفض هديتك .. خلاص يا سيدى ، هدية مقبولة ، بارك الله فيك .

ابتسم الحاج وهو يتلذذ بانتصاره .. وعاد يتراخى فى كرسيه .. ثم سحب الهدية المركونة جانبًا ، وحطها أمام المأمور ، بينما يضاحكه فى خبث .

– تقصد هديتين مقبولتين يا باشا

ولم ينطق الباشا .. وظل يضحك مرتبكا .. !

(٣)

مشيا فى الطرقة إلى الباب الخارجى ، وهما يتوددان ويضحكان ، فوجئا بشخص طويل ينزرع بينهما ، عيناه تلمعان وفمه مملوء بالأسنان العريضة ، ضحك فى خشونة وهو يلتقط كف أحدهما بكفه الكبيرة

– الأستاذ بركات عبد الهادى ، صح . ؟

قال بركات .. صح

ثم شد على كف الآخر وهو يسلم عليه بقوة

– وأنت الأستاذ همام الشريف . صح ؟

هز همام رأسه موافقا

– صح

ثم راح يعتذر فى بساطة لأنه قطع انسجام الرجلين ، وقدم نفسه وهو يتطلع إليهما فى مكر ملحوظ .

– اللواء منصور عبد الجابر ، المباحث العامة

رحب به بركات وهو يرتاب فى طريقة نظراته ، وبدا على وجه همام بوادر القلق .. قال منصور وهو يوحى إليهما أنه يترفق بهما ، ويتباسط معهما

– عموما سأدخل فى الموضوع من أوسع أبوابه .

تسرب الخوف إلى صدر بركات ، ولم يستطع أن يخمن شيئًا بعينه على سبب وقوع هذه البلوى عليهم . تساءل بركات ليحرك صمت الرجل .

– خير يا سيادة اللواء .

انطلق منصور يقهقه ويخبط على كتف بركات بكل يده .

– يا رجل ، ألا تعرفنى ، ألا تعرفنى بجد . ؟

ثم قطع ضحكته فجأة ونظر إلى همام بطريقة أربكته

– يظهر أنى عطلتك ، كنت ماشيًا ، صح . ؟

احتار همام ماذا يقول ، وماذا يفعل .. فهو من جهة لا يريد أن يترك صديق عمره بركات ، قبل أن يعرف حكاية هذا البنى آدم معه ، ومن جهة أخرى فالبنى آدم لا يريد أن يتكلم فى وجوده . !

اضطر أخيرًا أن يسلم ويمشى ، بعد أن وعد بركات بالاتصال به ليكملا الموضوع .. بدا وجه منصور مسيطرا على الموقف ، والانفراد ببركات من أقصر الطرق . وعاد يتساءل فى ليونه إن كان فعلا بركات لا يعرفه ، عاد بركات يؤكد له . !

قال منصور مندهشا .

– أنا جارك يا رجل ، معقول لا تعرف جارك ، اشتريت الفيلا التى وراءكم من شهرين .

رحب به بركات ، وهو يشعر ببوادر الاطمئنان تزحف على صدره .

أخذ منصور تحت ذراعه ومشى به فى طرقة الحديقة ، المؤدية إلى خلف المبنى ، كان يتكلم فى تودد ، اعتذر لعدم إمكانه دخول شقة بركات هذه المرة لأن عنده ضيوف ، ووعده بزيارة عائلية قريبة .

احتار بركات .. إذا كان الرجل لم يأت لزيارته ، فلماذا أتى إذن ؟

ثم لماذا يأخذه لينفرد به خلف المبنى ؟

وبدا منصور جادا وهو يسأل بركات ، لماذا لم يبادر هو بالزيارة

- وعلى فكرة أنا رجل خدوم وابن بلد

وتضاحك وهو يواصل كلامه

- عرفت أنك رجل يحب أن يعيش فى حاله ، لكن أنا بقى لا أحب أن أعيش فى حالى ، قلت إيه يا جارى !

اقتربا من السور الذى يفصل بين الحديقتين .. فأطلق منصور صفيرا منغمًا

بدا صوت هرولة أقدام ، ولهاث مبوح خلف السور .

وفجأة برز رأس مخيف !

تراجع بركات مفزوعا والكلب ينبح فى وجهه بشكل مرعب

معقول كلب بهذه الشراسة !

وتعلقت عينا بركات بلسانه الطويل ، وأنيابه المسنونة ، وعيونه الوحشية ، وهو يشب على السور يطلع وينزل ، يظهر ويختفى ، ونباحه الفظيع يصفع الوجه .

زعق منصور بصوته الخشن

- جاك هوب

توالت خمشات المخالب متلاحقة على الحائط ، واستوى الكلب فى لحظات على السور ، وراح يتطلع إلى بركات ويلهث فى تحفز ..

تمددت قامة منصور فى زهو وهو يتطلع لكلبه .

- سلالة نقية .. ما رأيك .

خاف بركات أن يتكلم ، فيهجم الكلب عليه ويفترسه !

وخاف أن يسكت فيهجم الكلب عليه ويفترسه !

لم ير فى حياته كلبا بهذا الحجم ، وشعر بالأرض ترتفع به ، وتقربه من فم الكلب .

تباسط منصور فى خبث واضح .

- حسبتك تعرفه ، وتصاحبت عليه ، عموما لا نطلقه إلا فى الليل

وأخيرا بعد أن نشف دم بركات ، زعق منصور فى تعاظم .

- جاك ارجع .

فزام الكلب معترضا .. ثم هز ذيله وراء السور

ربت منصور على كتف بركات

- اطمئن ، لا يؤذى بدون سبب

ثم سحبه من يده عند حنفية الحديقة .

- يا شيخ أنسيتنى ما جئت من أجله

سكت قليلا وعيناه تحاصران بركات فى سماجة ، ثم دخل فى الموضوع .

قال إنه يقوم ببناء دور ثان بالمبنى ، وأن المياه انقطعت فجأة فتعطل الشغل ، ولما سأل هيئة المياه ، عرف أنهم يقومون بتصليح إحدى الوصلات ، وأن هذا التصليح سيستمر ثلاثة أيام على الأقل .

- طبعا أنت تعلم أننى رجل لى نفوذى وحيثياتى ، إنما يبدو أن مسألة التصليح هذه أكبر مما تصورت .. المهم وبدون أن أفكر قلت الجيران لبعضها ، خرطوم نمده من عندك لعندى ، تعود المياه لمجاريها .

ثم راح يضحك فى عنف ، ويخبط ظهر بركات بكل يده ..

(٤)

عندما تمدد بركات بجوار زوجته عفاف على السرير ، تنهدت وحطت ذراعها على وجهها فى عصبية

– كل هذا تتكلمان ؟

– هل شفت الكلب يا عفاف ؟

– أى كلب ؟

– جاك ، اسمه جاك

تأففت وأعطته ظهرها

– نم وخلنى أنام

– منظره فظيع يا عفاف ، والمصيبة إن السور واطى

بعد لحظات سمع بركات نباحا يشبه نباح جاك ، يأتى من ناحية السور .

هب قاعدا فى السرير وركز .. هو صوت جاك ، أكيد يحاول أن ينط السور .

وقد يكون نطه وانتهى . لابد من تعلية السور ، حتى لا تأخذ رجله على النط عندنا ، وقد يعض أحدا منا وتبقى مصيبة ..

تقلبت عفاف فى عصبية وطلبت منه أن يكف عن مكالمة نفسه وأن ينام .

انتبه بركات إلى أنه فكر بصوت عال . اقترب من عفاف وحط يده عليها .

– الرجل جارنا طلب منى خرطوم مياه ليكمل البناء .

– أى رجل ، وأى خرطوم ؟

جارنا ، اللواء منصور ، صاحب الكلب

أى كلب ، أتحلم وأنت قاعد

وشدت الغطاء ، وتغطت كلها ..

وعاد بركات يتمدد وهو مفتوح العينين ، يتسمع فى سكون لأى صوت أو حركة تأتى من ناحية الحديقة . !

(٥)

انتفض بركات من نومه مفزوعا .

– إيه الحكاية ؟

كانت عفاف تزعق ، وتضرب الأرض بقدميها ، وتشد اللحاف عنه .

– الديك ، أولاد الكلب ، البوليس ، لو كنت تسمع كلامى .

نظر بركات إلى المرآة فامتعض ، لم يعجبه شكله وهو قائم من النوم ، شدته عفاف فى عصبية فطاوعها مستجيبا .

– اسمع ، إن لم تعمل شيئا هذه المرة فسأعمل أنا

طار النوم من دماغ بركات وهو يتبعها إلى المطبخ ، وعند الباب الخلفى المؤدى إلى الحديقة ، ظلت عفاف تزعق وتضرب الحائط بيديها .

– من يظنون أنفسهم ، البوليس ، البوليس هو الذى يؤدب هذه الأصناف .

اقترب بركات من الباب ونظر هناك .. رأى الكلب فى الحديقة المجاورة ، وفى فمه ديك يزعق بصوت مخنوق ، قال مؤكدا .

– جاك ، هو جاك بعينه .

زعقت عفاف بكل صوتها ، حتى يصل إلى هناك .

– هذا الكلب الملعون نط السور وخطف الديك

وكانت المرأة الطويلة الممتلئة ، لابسة روبا فاقع الألوان ، وبيدها سكين كبير تسنه على حجر السلم ، وهى تبتسم فى وداعة .

نادت المرأة على البنت الخادمة فجاءت تجرى ، وأخذت الديك من فم الكلب وناولته لسيدتها ، فظلت تقلبه بين يديها فى إشفاق وعيناها على بركات وعفاف .. ثم لوت رقبته وذبحته فى بطء وتشف .

هاجت عفاف وأكلت نفسها من الغيظ ، بينما يسألها بركات إن كان الديك فعلا ديكهم .

– ماذا جرى لك يا بركات ، ألا تعرف ديكنا

أمسكت المرأة الديك المذبوح من رجليه ، وأدارته فوق رأسها مرتين ثلاثة ، ثم طوحته فى الجو ، فعبر السور ، ووقع فى حديقة بركات ، وخبط الأرض .

زعقت عفاف فى وجه بركات

– شايف ، كل هذا وأنت واقف وساكت

نزل بركات والتقط الديك .. وضعه فى حوض المطبخ وفتح الحنفية ، بينما عفاف تراقبه فى دهشة ..

– عايز تموتنا بالسعار ، ألم تر الكلب بعينك وهو يفترسه ؟

ثم خطفت الديك ، وهرولت خارج المطبخ ، وصوتها يملأ الجو

– والله إن ما كان الديك يرجع سليما وحيا لأخرب بيتكم .

وأمسكته من رجليه وأدارته فوق رأسها مرتين ثلاثة ، ثم طوحته بكل قوتها فطار فى الجو ، ووقع فى الحديقة المجاورة ، وخبط الأرض .

جرى الكلب وهو يزوم بصوت خشن ، اختطف الديك وجرى به إلى المرأة ، فزعقت للخادمة فى بلاده وهى تطوح ذراعها .

– إسلقيه وأعطيه لجاك يا حورية .

خبطت عفاف الباب وهى منحورة .

– لازم أروح القسم حالا

خمن بركات أن المرأة زوجة منصور ، رآه جالسا هناك بين الأشجار ورأسه خلف الجريدة .. حاول أن يهدى عفاف ، وأن يستمهلها حتى يتفاهم أولا مع الرجل ، ولكنها أصرت أن تحضر البوليس وهم متلبسون ..

وجرت إلى الدولاب ترتدى ملابسها وهى تزعق

– إن كنت خائفا منهم فسأروح وحدى .

جاءت رحاب ونظرت إلى أبيها فى إشفاق ، وهو حائر فى وسط الصالة ، يعرف أن عفاف قد ركبت رأسها ، وعندما تكون فى هذه الحالة ، فهى لا تسمع ولا ترى ولا تفكر .

أخذ بركات البنت وجلسا فى الصالة ، وكان صوت الخبط والرزع يصل إليهما من الحجرة المجاورة ، وصوت عفاف المتشنج المستفز .

– لو كان لى رجل مثل بقية الرجال ، مكان حصل كل هذا ، عشنا وشفنا ، الرجل يقعد فى البيت ، والست تجرى فى الشوارع .

شعر بركات أمام البنت بالمهانة ، واحتار إلى أين يدارى عينيه ، وهى ترجوه أن يذهب مع أمها .

(٦)

عند موقع ممتاز بمدينة نصر ، دارت المرسيدس الحمراء حول البرج الكبير ، برج التوحيد والنور

وكان القطب من خلف الزجاج ، تتسلق عيناه إلى قمة البرج فى انسجام .

فتح عباس باب العربة ، فنزل القطب وتمشى فى وقار .

تجمع حوله بعض العمال ، وراحوا يتقربون إليه فى تودد ، ويهنئونه على انتهاء العمل فى برجه الجديد .

وجاء المهندس مدكور فاردًا ذراعيه ، ليأخذ القطب فى أحضانه .

– يا ألف مرحب يا حاج ، خطوة مباركة يا حاج .

وتركه القطب يرحب على هواه ، وبدا مشغولا بالتشطيبات النهائية التى أظهرت جمال البرج وروعته .

أخذه مدكور إلى يافطة البرج ، وراح يغريه فى زهو ، ألا بستر إيطالى نمرة واحد ، والخط ذهب بندقى معرق ، والستارة حرير يابانى أصيل .

ألف مبروك يا حاج .

لم ينظر القطب إليه ، ولم يعلق على مناوراته ، وبدا مستخفا بما يقول .

ولاحظ مدكور ذلك ، فمال عليه ساعيا لمزيد من الاهتمام

– وكلها أسبوع يا حاج ، ويشرفنا الوزير بنفسه ، ليفتتح البرج .

تطلع إليه القطب ساهما ، ثم نادى على عباس ، وأعطاه تعليماته بطريقة إعلامية ، أن يصرف أجر أسبوع مكافأة للعمال .

تضايق مدكور ، واجتر غيظه بداخله .

كان معتادا أن يتلقى هو الأنباء السعيدة من القطب ، وأن يمن هو ببشراها على العمال ، وليوحى إليهم بأنه وراء هذا العطاء ، ولولاه ما أصابهم شيء منه .

بعد أن انفض مولد العمال .. أخرج القطب ورقا من جيبه وراح يتطلع إليه ويهمهم فى عبوس .

تساءل مستنكرا وعيناه لا تتركان الورق

بند إكراميات الأدوار المخالفة .. كم ؟ .. مليون يا مدكور ؟

نظر مدكور إلى عباس متوجسا ، كان لا يحب أن يخوض فى هذا الكلام وهو موجود .

لذلك بادر يستمهل القطب إلى ما بعد .. ولكنه لم يعطه فرصة المراوغة .

قال مدكور فى تأفف

– أصلها محسوبة يا حاج ، مهندس التراخيص وعصابته ، رئيس الحى وعصابته ، مهندس الأشغال ، مدير المرافق ، وغيره ، وغيره .

تململ القطب وتلفت حوله ، فأسرع عباس وأتى له بكرسى .

حاول مدكور أن يفلت من نظرات الريبة التى تحاصره ، ولكنه عجز ..

وأحس أن القطب يضمر له شكا مؤكدا . !

وفى لحظات وازنها فى رأسه ، وقرر أن يلاعبه على المكشوف ، ما دامت هذه رغبته .

سحب مدكور كرسيا وجلس فى مواجهة القطب .. ثم قال

– اتفقنا على أن نبنى عشرة أدوار زيادة عن رخصة الحكومة ، يعنى عشرة أدوار مخالفة ، تمام يا حاج .. ؟

هز القطب رأسه وهو صامت ، فواصل مدكور

– غرامة الدور المخالف فى قوانين الحكومة لن تزيد عن مائة ألف ، ثم مائة ألف رشوة تسليك أمور ، يبقى المجموع مئتان .. فلو فرضنا الدور يباع بمليون ، على الأقل تقدير ، يبقى مكسبه كم يا حاج .. ؟

انفعلت ملامح القطب وأطاحت يده بالأوراق بعيدًا

– أتعلمنى الحساب يا مدكور .. ؟

أسرع عباس بجمع الأوراق ، وهب مدكور متوترًا

– خلاص يا حاج ، كل واحد يشوف مصلحته

وانتفض القطب فسقطت عباءته على الأرض

– أنت تهددنى يا مدكور .. تهدد الحاج قطب يا مدكور .. طيب يا باشمهندس . !

تجمع العمال على صوت الزعيق ، وعيونهم تتواثب فى استطلاع .

حاول عباس أن يفرقهم ، ولكن القطب منعه فى حدة .. وراح يستثير غضبهم على مدكور ، ويبدى تعاطفا معهم .

صاح فيهم أن هذا الباشمهندس يجور على رزقهم ، يستمرئ كدهم وعرقهم ليفوز هو بنصيب الأسد .. ولأنه يضع مصلحتهم فوق كل اعتبار ، فإنه يعلن استغنائه عن خدماته من الآن .

تحسب العمال ، وتداخلت أصواتهم وتحركاتهم ، بينما تجمد مدكور مبهوتا، لا يصدق ما يسمع ، وما يرى . !

(٧)

جاءت انشراح وجلست قريبا من زوجها القطب .

فكرت أن تفاتحه فى الموضوع وهو معتدل المزاج ، لعله يوافق هذه المرة .

كانت الفرندة واسعة ، تطل على حديقة منبسطة ومزدهرة .. وكان القطب متراخيا فى كرسيه الملاصق للسور ، يمتص من مبسم الشيشة بكل عافيته ويطلق الدخان كثيفا إلى أعلى .

تسربت إلى مداخل الكلام فى حذر ، وهى متخوفة أن تثير غضبه ، فينفعل عليها . ولما انتهت من كل ما عندها ، أجابها فى استخفاف أنه لا يوافق .

تركها القطب تتكلم على هواها ، تناور فى سذاجة لا تخال عليه . !

احتارت انشراح وبدت مهمومة .. فإن خالفت رأيه قلبها غما ، وإن تنكرت لرغبة البنات كسرت بخاطرهن . !

قالت معاتبة وعيناها على بطنها المنتفخ . !

– أبوهم يا حاج .. أيرضيك أن تحرم البنات من أبيهن

ضاق صدر القطب ، وهم أن ينفجر فيها .. ولكنه تماسك ، خاف إن أغضبها يحدث مالا يحمد عقباه . !

وضع مبسم الشيشة جانبا وراح يكلمها فى هواده . يشرح لها على قدر ما تفهم ، أن زيارة البنات للسجن تسيء لسمعتهن ، كما أنها ستترك أثرا مكروها فى نفوسهن .. والأهم من ذلك ، أن الأسيوطى لا يحب أن تراه بناته فى هذا الوضع المهين ، وأكيد سيرفض مقابلتهن .

ولاحقته انشراح لعلها تؤثر عليه ، قالت إنه من غير المعقول أن يرفض الأب رؤية بناته ، ثم إنها زيارة واحدة ، وستكون الأولى والأخيرة .

ازداد ضيق القطب من إلحاحها العنيد فانفلت زمامه .

صاح فيها إن اتصال البنات بأبيهم يسيء لسمعته أيضًا ، يؤثر على مركزه وصورته أمام الناس ، ثم إنه فعل الكثير من أجل الأسيوطى ، فعل كل ما فى وسعه أن يفعله ، ومازال يفعل ، فماذا تريد منه بعد ذلك ، هى وبناتها . !

ثم انتفض واقفا وترك لها المكان .

وظلت انشراح ساهمة ، تلوذ بصبرها وتستعطفه . !

فماذا بيدها أن تفعل . !

إن كل ما حدث رغما عنها ، حط عليها فجأة وأربك حيلتها . فلم تعرف كيف ترفضه ، أو حتى كيف تغيره ، وحدد لها طريقا واحدا ، أجبرها على أن تواصل السير فيه .

وأسندت رأسها إلى الحائط لكى تريحه .

لو أن الأسيوطى لم يفعل ما فعل ، لظلت هى كما كانت ، تعيش فى مملكتها الصغيرة ، تديرها على هواها ، تحس فيها بدفء الزوج وإخلاصه ، وتحس فيها البنات برعاية الأب وحنانه ، فعلى الرغم من تواضع مملكتها وبساطتها المتناهية ، إلا أنها ما تزال فى نظرها أفضل من مغريات هذا المكان . !

أحست ببطنها توجعها فقامت ، وراحت تتمشى مع سور الفرندة .

أين كان لها هذا الحمل .. ؟

عادت انشراح تلوم نفسها فى مرارة .

كيف طاوعت القطب على أن تقع فى هذه الورطة ؟

أن تترك نفسها لتحمل منه ، وهى فى هذه السن الحرجة .

وخايلتها نظرات الطبيب وهى تغمرها بالإشفاق ، والتخوف . !

أحست بالغثيان يعاودها ، فاستندت إلى السور ، وظلت تملأ رئتيها بالهواء البارد ، ثم تفرغهما بعد برهة .

هل كان بوسعها أن تمتنع . ؟

أن ترفض إصراره وتلهفه على الولد .. لقد سمعتها منه بأذنها ، أنه لم يتزوجها إلا لكى تأتى له بالولد .. وعلى الرغم من أنه اعتبرها ذلة لسان فى لحظة غضب ، وراح يسترضيها بعدها ، إلا أن كل تصرفاته ، كانت تعني تماما صدق ما سمعته منه ، وتفضح حرصه الشديد على حملها . انتبهت إلى فايزة تحتضنها وتقلبها .

لما رأت البنت علامات الإرهاق واضحة على وجه أمها ، أخذتها لترتاح على الكرسى ، بينما تداعبها وتسألها إن كانت تريد شيئًا . ؟

ولم ترد انشراح ، نكست عينيها فسقطت الدموع فى حجرها .

أخذتها فايزة فى أحضانها ، وظلت تقبلها ، تحنو عليها وتلح لتعرف ما بها .

قالت انشراح فى تحسر ، وهى تمسك بطنها بيديها .

- أترضيك حالتى الآن .. أرأيت مشورتك . ؟

تراجعت فايزة ونظرت إليها متعجبة .

- مشورتى أنا .. أتقصدين الحمل . ؟

قامت انشراح إلى السور وظلت تتنفس فى عمق وتتوجع . اقتربت منها فايزة مشفقة ومتحيرة ، لا تعرف كيف تخفف عنها ، ولا كيف ترضيها . !

لم تكن تظن أن الحمل سيرهقها إلى هذه الدرجة .. وحتى لو أرهقها كان عليها أن تحتمل وأن تصبر ، ما دامت المصلحة تحتم ذلك .

عادت فايزة تواسيها وتطيب خاطرها ، تعترف بأنها شجعتها على الاحتفاظ بحملها لكى تضمن حقها ، إذا ما غدر القطب بهم .. وأنها لم تتوقع أبدا أن يتعبها الحمل بهذه الدرجة .

لما رأت أمها ساهمة ، لا يعجبها الكلام .. قالت وهى تنظر فى وجهها ، تضعها أمام الحقيقة المجردة ، لعلها تقتنع وتصبر نفسها .. إنها حملت نزولا على رغبة القطب ، وامتثالا لإرادته المتسيدة ، وأن مشورتها المتأخرة لم تكن لتقدم أو تؤخر أمام هذه الإرادة . !

لذلك فكرت أن تهون على أمها ما لابد من قبوله ، أن تريح الفكرة فى رأسها وتطمئنها ، تحمسها على تلبية رغبة القطب فى إنجاب الولد .

ثم أحاطت وجه أمها بيديها وسألتها .

لو أنها أشارت عليها بالتخلص من حملها ، فهل كانت ستستجيب لمشورتها ، تنفذ كلامها هى وتخالف كلام القطب . ؟

جاءت حسنية غاضبة تلوح بكراسها ، قالت لأختها إن الواجب صعب ، وإنها لا تفهم هذه المسألة . !

أخذتها فايزة بسرعة وابتعدت بها عن أمها .

(٨)

اقتربت المرسيدس الحمراء من مبنى كبير ، فخم ، تحيط به حديقة واسعة مملوءة بالخضرة ، وبالأضواء الخافتة .

توقفت العربة أمام البوابة ، ونزل الحاج قطب فاردا هامته فى تعاظم ، بينما يلملم أطراف عباءته .

كان القصر واسعًا من الداخل ، مملوءًا بالأثاث الفاخر .

وكان هناك بعض الرجال ينتظرون فى الصالة ، وقفوا جميعًا عندما دخل الحاج قطب ، وأقبلوا ليسلموا ويقتربوا .

جاء عباس وهمس إلى الحاج ، فالتفت إلى هناك ، وكان أبو العيون منزويا ، ينظر فى خبث .

ذهب إليه القطب ، وسلم عليه فى توجس ، ثم سحبه إلى مكتبه .

فوجئ أبو العيون بالمكتب الفخم ، وكراسى الفوتيه التى تملأ الحجرة .

– مشاء الله ، مكتب ، وكراسى جلد يا معلم فرس

شده القطب فى انفعال وأغلق الباب .. وطاوعه أبو العيون ، ثم راح يتحسس الكراسى ويدور حولها ساخرًا .

– الله يرحم الشلت والمساند ، وركن المزاج يا معلم فرس النبى .

جلس القطب فى رزانة وأشعل سيجارة .. ثم قال متثاقلا

– أبو العيون .. أصول الضيافة أن أكرمك على العين والرأس . وأصول الضيف أن يكون موزونا ، وأن يحفظ لسانه من الغلط .

أبدى أبو العيون دهشة مفتعلة ، بينما يتساءل .. ماذا فعل ، أو ماذا قال .. ؟

تماشى القطب مع مراوغة الرجل ، وراح يفهمه فى هدوء أن شخصية المعلم فرس النبى قد انتهت ، لم يعد لها وجود ، وأنه أصبح الآن الحاج قطب ، وأنه لابد أن يعى ذلك جيدًا ، ويتعامل معه على هذا الأساس .

تزايدت مساحة الدهشة على وجه أبو العيون ، وهى يدعى أنه مازال لا يفهم شيئًا ، وأنه يتكلم بنية خالصة .

قال القطب وهو يرواده الصبر ، إن أيام الجرى والرمح قد راحت ، وأن الحاج قطب قد أصبح فى طريق غير الطريق .

غاص أبو العيون فى كرسيه وهو يضحك بكل قوته

– أتقصد طريق القلعة . ؟

تضايق القطب وهم أن يزعق فى الرجل .. ولكنه قال بهدوء شديد

– هنا مكان عمل ، طلباتك بالضبط . ؟

لم يكف أبو العيون عن الضحك ، ولم يهتم بكلام القطب ، قال وهو يمسح دموع عينيه ويتطلع إلى وجهه .

– أصلك لا تصلح أبدا أن تكون الحاج قطب ، صدقنى يا أبو الأفراس .

مشى القطب متمهلا .. ثم جلس فى مقعد بعيد ، هناك فى الركن .

كان يحاول أن يتماسك . !

وأن لا يدع الفرصة للرجل لكى يتمادى فى مخططه ، فيوصل صوته للناس المنتظرين فى الصالة .

ضغط الجرس وطلب اثنين قهوة سادة .. بينما يدير المسائل فى رأسه ، ليسقر على المنفذ المناسب ، فيدخل منه إلى سردابَ « أبو العيونَ »، ويلاعبه على أرضه .

عاد مبتسما وجلس أمام الرجل .

راح يكلمه فى تودد ، ويرجوه أن يحط فى رأسه ، أنه مهما تغيرت الظروف والأيام ، فإن رباط الأخوة ، والصداقة ، وزمالة الكار الواحد ، سيبقى كل ذلك كما هو دائمًا ، متينا لا ينقطع .. ثم إنهما كانا متفاهمين متحابين ، فماذا حدث ليعكر صفو الجو بينهما . ؟

شرب أبو العيون قهوته ، ثم مال على وجه القطب ونظر فيه بقوة

– أنت تضيع وقتك ووقتى يا معلم فرس .

خلاصة الكلام أننا اخترنا أن نلعبها بمزاجنا ، أن نضع حياتنا على الترابيزة ، ويدك فى يدى ، إما نكسب كل شىء ، وإما نخسر كل شىء . !

فهل من المعقول أن أتركك وأنا مصارينى فى يدك ، ومصارينك فى يدى .. يا رجل أهذا كلام . !

أبدى القطب تفهما ، واقتناعا بكلام أبو العيون .. وأكد له أن شخصية الحاج قطب ستكون أفضل مليون مرة من شخصية المعلم فرس ، لأنه اكتشف طريقا آخر ، أجدى وأسرع فى جمع المال ، وبلوغ مركز القوة ، من طريق تجارة المخدرات . !

وراح ينصحه أن يجرب بنفسه ، وأن يتعاون معه فى كفاحه الجديد ، فلا شك أنه سيقتنع به ، وسيعترف أنه أخذه إلى سكة السلامة .

ظل أبو العيون ساكتا ، لم يعجبه الكلام ، ولم يتجاوب معه . !

فاضطر القطب أن يلقى بطعمه الأخير ، لعله يغرى الرجل فيوقعه .

قال مناورًا .. أما إذا كان أبو العيون مصرا على تجارة المخدرات ، فإن الحاج قطب بوضعه الجديد ومركزه ، سيكون بعيدًا عن الشبهات ، قريبًا من مراكز السلطة ،

وهكذا يمكنه أن يحميه ، أن ينتشله مثل الشعرة من العجين إذا ما وقع ، لا قدر الله ، فى يوم من الأيام .

ابتسم أبو العيون فى استخفاف ، كان يعرف أن صاحبه واعر ، عميق القرار ، يفكر بألف رأس لكى يفلت .. لذلك قرر أن يفاجئه ، فأخرج من ملابسه لفافة ووضعها أمام القطب ، وقال فى براءة ، إنها عملية صغيرة لإثبات حسن النوايا .

وفوجئ القطب فى البداية ، ثم مد أصابعه ليتأكد ، أحس بالكيس النايلون مملوء بالمسحوق . !

قال أبو العيون إن زبونها بعد أسبوع ، وأنها عند الحاج قطب ستكون فى الحفظ والصون ، وبعيدًا عن الشبهات كحد قوله . وطبعا سيكون للحاج نصيبه المعلوم فى العملية . !

– هه نقول على البركة يا حاج .

شلت المفاجأة رأس القطب وتمكنت منه ، فخذله ولم يسعفه بفكرة الإفلات ، وظل اللسان هامدًا متعثرًا .

وانتهز أبو العيون الفرصة ، فسلم على القطب وخرج مسرعًا .

دخل عباس مستطلعًا ، قال إنه رأى أبو العيون ينسل خارجًا ، وعيناه تسبقانه ، انتبه القطب وتطلع إلى عباس ، ثم إلى لفافة أبو العيون ، وكان وجهه مغتاظا . !

استجاب عباس لرغبة القطب ، فجلس واستمع لكلامه .

قال له إنه فى نيته أن ينسى أبو العيون ، ينسى أيامه بكل ما فيها ومن فيها ، ولكن الرجل عاد يزن على خراب عشه ، عاد يشاغب فى بجاحه ليورطه من جديد ، ليجره غصبا لتجارة المخدرات .

ولذلك فهو لن يتركه هذه المرة ، سيوقفه عند حده قبل أن يتمادى ، وقبل أن تطيش تصرفاته فتعكر الجو . !

ثم انفرد وجه القطب وبدأ عليه الارتياح ، بينما يثنى على مجهود عباس ، والذى بدا واضحا فى تزايد عدد المترددين على القصر ، من أهل الحى ، الساعين لخدمات القطب وأياديه البيضاء .

انتهز عباس الفرصة ، وراح يستطلع من القطب فى حذر ، وجهة نظره فى جمع هؤلاء الناس ، منذ عودته من رحلة الحج ، وما يتحمله من نفقات استضافة ، وإضاعة وقته الغالى فى حل مشاكلهم .

ابتسم القطب لعباس وأخذه بالهوادة ، كان يرى فيه صورة نابضة من أخيه الوحيد بكرى ، الذى أحبه كل الحب ، ثم حزن على موته كل الحزن . ولذلك ارتاح لعباس وقربه منه ، سمح له بأن يشيره ، ويبدى رأيه فى حرية ، وأن يعرف الكثير من أسراره ، وتحركاته .

قال لعباس وهو يبدى تأثرًا على الوجه .. إن انقطاعه أيامًا فى رحاب السيد البدوى ، لائذًا مستجيرًا ، قد غسل صدره ، وطهر نفسه ، وأنار بصيرته .. وهناك دعاه الرسول لزيارته ، وهناك طلب منه أن يبتعد عن طريق المخدرات ، وأن يقترب إلى الناس ويرعى مصالحهم .

فاستجاب ونفذ ، زار الرسول ، ونبذ تجارة المخدرات ، وتقرب إلى الناس ليرعى مصالحهم ، وليخفف عنهم .

ثم راح يشكر الله ويسأل العون والعافية .

بدا الكلام معقولا ، ولكنه لم يدخل رأس عباس . !

أحس أن وراءه خبثا يتوارى

ولأنه عاشر القطب زمنًا وفهم تركيبته ، فقد اضطر كالعادة أن يتغاضى عن إحساسه ، ويحتفظ به فى صرة أسراره ، حتى تتضح الحقيقة .

وتذكر عباس ، فأخرج إعلان المحكمة وناوله للقطب .

قال فى شماته إنها غلطة المهندس مدكور ، فهو لم يرض أصحاب الشأن ، وتجاهل خطورة شكوتهم .

تغير وجه القطب وهو يفترس فى الورقة

- قضية مبانى مخالفة .. برج التوحيد والنور . !

تدخل عباس ليذكره بتحذيره من هذا المدكور ، وليبرهن له على صدق تخوفه من مكره وجشعه .

هز القطب رأسه مؤيدًا ، واعترف أنه شك فيه مؤخرًا .. ثم طوى الورقة وألقاها على مكتبه

- سأعرف كيف أربيه .. تعال نخرج للناس

شد هامته ، وعدل العباءة على كتفيه .. ثم مشى متثاقلاً إلى الباب .

(٩)

ترك زكريا الطارق يدق الباب على هواه . !

لعله يزهق ويمشى من نفسه .. فقد كان لا يريد أن يسمع أو يتكلم أو يرى شيئًا . !

عاد يستجدى النوم أو يطاوعه ويأخذه ، ولكن الدق ازداد على شراعة الباب ، وسمعها تقع على بلاط الصالة وتنكسر . !

قام مغتاظا وجرى ، رأى يد تجاهد بين أسياخ الحديد لكى تصل إلى قفل الباب . زعق وهو يبحث عن شىء يدافع به .

– من يكسر الباب . ؟

تراجعت اليد ، اندفع يملأ الشراعة المكسورة .

– افتح يا زكريا أنا خالك أنور .

رأى زكريا عينى خاله غريبتين وهما تتطلعان إليه .

جلس أنور على الكنبة وخلع حذاءه

– كل هذا الدق ، أين كنت . ؟

راح زكريا يفهمه بأنه كان نائمًا ، ومتعبًا ، ولا يتوقع أحد فى مثل هذا الوقت .

وبدا خاله لا يستمع شيئًا ، ولا يهتم بكلامه .. وقاطعه فجأة

– عندك أكل .. أريد أن آكل لقمة وأنام يا سيد زكريا

فكر زكريا وهو فى المطبخ ، لماذا جاءه متأخرًا هكذا ، وفى نيته أن يبيت عنده .. لم يفعلها من قبل .. !

وعندما خرج إلى الصالة فوجىء به عاريًا ، إلا من سروال يصل إلى ركبتيه ، ورأسه منكس فى دخان سيجارته .

وضع الصينية أمامه وانتظر

– الأكل يا خال

فتح أنور عينيه ونظر إلى الأكل . طلب كوب ماء من الحنفية ، وأكد أن يكون من الحنفية .. ثم أخرج زجاجة صغيرة من هدومه المكومة بجواره ، وراح يقطر منها فى الماء . !

شم زكريا رائحة الجاز ، فسأل خاله ، شرب نصف الكوب بصوت عال ، ثم مال على الأكل .

لاحظ زكريا ما يشبه رءوس الدمامل السوداء تملأ جلد خاله ، وعندما جاءت عيناه فى عينيه عاد يسأله .

وفوجئ به يزعق فى وجهه .

– أحط جاز على الماء ، ألا تشم ؟

ضحك زكريا فى استخفاف وهو لا يصدق .

– أحقا تشرب الجاز يا خال ؟

ترك أنور الأكل من يديه ، وسأل زكريا بملامح جادة عما يضحكه ، ثم قال له إن الضحك وساخة الجوف ، ونصحه أن يجرب الجاز .

ظن زكريا أن خاله يهزر معه ، ولكنه كان يتكلم فى حماس .

– الجاز مادة ربانية طاهرة ، تخرج من باطن الأرض ، أمنا الأرض . ربنا سبحانه وتعالى قال يا جاز أنت تأكل الصدأ ، فأكل الجاز الصدأ .. صح أم غلط ؟

قال زكريا مؤيدًا .. عين الصح

واجهه أنور بصدره وهو يتباهى بعلمه .

– ربنا سبحانه وتعالى أوحى بأن القلوب تصدأ كما يصدأ الحديد ، صح أم غلط ؟

أجاب زكريا مؤيدا .. عين الصح

تركه أنور يتطلع إليه وعاد إلى الأكل وهو يقول ساخرًا .

– عين الصح ، عين الصح .. طيب إحسبها بعقلك بقى ، وافهم لماذا أشرب الجاز ؟

وقرب لقمة من فمه ، ثم عاد فأرجعها على الصينية ، لاحظ زكريا فى إصبع خاله خاتمًا كبيرًا من الفضة ، له فص غريب الشكل .

قال أنور وهو يشده إليه .

– تعال .. سأجعلك تؤمن بنفسك

وأمسك إصبعه وفقأ أحد دماملة ، ثم أمره أن يشم .

قام زكريا وغسل يده بالصابون ، ولكن رائحة الجاز ظلت عالقة بها .

بعد أن انتهى من الأكل ، شرب باقى الكوب فى تلذذ

– سبحانه علم الإنسان مالم يعلم ، أكنت تتخيل أن الجاز يمكن أن يطهر جوف البنى آدم بهذه الدرجة ؟

سكت زكريا ، رأى أن يهاوده فى الكلام لأن البوادر لا تطمئن . وأشعل أنور سيجارته فملأ الصالة بالدخان .. سخر من زكريا وهو يفتح الشباك ، قال إن دخان الشكمانات ألعن ألف مرة من دخان السجاير ، ومع ذلك فالناس ماشية فى الشوارع كالثيران !

(١٠)

– كان الإرهاق يبدو واضحًا على وجه زكريا ، وهو يصعد السلم . وجد باب شقته مواربًا وصوت خاله يتسرب من الداخل . سلم على أم ياسر وهو مندهش . لم تعملها من قبل ، أن تدخل شقته وتقعد وتحكى على راحتها .

كانت الصالة مملوءة بالدخان وبأعقاب السجاير .

طلب أنور من زكريا أن يعمل ثلاثة شاى مضبوطين ، فهمت أم ياسر وهى تمسح دموعها ، وأقسمت أن تعمل الشاى عندها ، وخرجت وشدت الباب وراءها .

سأله زكريا إن كانت تريد شيئًا ، فتطلع إليه أنور ولم يتكلم !

ثم عرّى صدره وراح يخمش دماملة فى تلذذ ، قال إنه تغدى منذ قليل ، لأنه لا يحتمل الجوع . !

قام زكريا وأكل فى المطبخ ، وجاءت أم ياسر ووضعت الشاى وهى تعتذر .

فالرجل عاد وستكون مشغولة . ولما لاحقها أنور بسؤاله وهى عند الباب ، وردت بصوت منخفض ، غدًا نكمل الموضوع . !

قال زكريا مداعبًا خاله وهو يناوله الشاى

– الله يسهل لك يا عم ، رزقك فى رجليك

سرح أنور لحظات وهو يشرب الشاى ، ثم فاجأ زكريا فى حسم .

– سآخذك معى

تساءل زكريا وهو يذهب ليخلع هدومه ، ويلقى بنفسه على السرير .. ولم يجبه أنور ومشى وراءه إلى حجرته ، ثم جلس على السرير وراح يتأمله ، كان يخرج بعض الأوراق من حقيبته ويضعها على المكتب الصغير ، قال وهو يدير الخاتم فى إصبعه .

– طاوعنى تكسب

تمدد زكريا على السرير فأحس بالإرهاق يهده ويثقل رأسه .. قال فى تأفف لينهى الكلام .

– بكره ياخال ، بكره أروح معك أى مكان

وأغمض عينيه ، بينما تصل إلى أذنيه خطوات خاله وهى تبتعد .

(١١)

– كـان الـقـطب مـنـهـمـكًـا فـى أوراقـه ، يـراجـع الـطلبـات ويـرتب المـقـابـلات والاتـصـالات حسب أهميتها .

جاء عباس وأخبره أن الناس ينتظرون . فترك الأوراق وقام إلى المرآة ، فرد هامته فى تعاظم ، فارتاح لمنظره .. ثم رطب كفيه برائحة فواحه ، ونثر منها على عباءته .

انتبه الناس ، فتطلعت العيون ، وهمت الأكف ، سعيًا إلى القطب ، وهو يدخل متمهلاً مهيبًا .

الوجه مبتسم فى تواضع ، واليدان الكبيرتان مشغولتان فوق الصدر بحبات المسبحة الكهرمان .

وتلقفته الأحضان والقبلات فى غير تحرج ، فترك نفسه لهم ، سمحًا بسيطًا حتى شبعوا .

فرد ذراعيه مرحبًا وداعيًا أن يجلسوا .

ثم تراخى فى كرسيه وظل صامتًا ، يسبح فى خشوع وعيناه على مسبحته .

دخل الرجال إلى الصالة يحملون أكواب الشراب وعلب السجائر وأطباق الحلوى ، وراحوا يوزعون فى سخاء .

رفع القطب عينيه ، وتطلع فى تأن وتودد .

كانت الصالة ممتلئة ، عرف معظمهم ، جاءوا من قبل ، وبينهم رواد جدد ، فانشرح صدره واطمئن .

لمح عباس يرقبه من الركن ، ينتظر رد الفعل لما قام به من جهد ، لجمع كل هؤلاء .. فأومأ له برأسه راضيًا .

وبدأ القطب كلامه بالبسملة ، ثم راح يستعرض بعض الظروف التى قست عليه ، وأيام الفقر والحرمان التى لم ترحمه ، ولكن لأنه رجل عصامى ، قوى الإيمان ، صبور على الشدائد ، فقد تغلب على الظروف والأيام ، حتى أعطاه الله من فيض كرمه ، وزرع فى صدره حب الناس .

ثم أخذ يمسح الوجوه فى تشوق ، بينما يبوح لهم بسر السعادة التى تغمره ، وهو يرى الصالة تمتلىء بالأحباء ، وأن هذه السعادة ستزداد عندما يرى الصالة المجاورة تمتلىء أيضًا بإخوانهم الأحباء .

وفتح عباس بابا زجاجيًا عريضًا ، يؤدى إلى الصالة المجاورة .

كانت متسعة ومملوءة بالكراسى والنجف الشيك .

ودار الهمس بين الناس وهم ينظرون إلى هناك ، فى فضول وانبهار

قام أنور ليستطلع الصالة عن قرب ، دخل وتحسس الأثاث فى إعجاب ، بينما يردد بصوت مسموع .

– بسم الله مشاء الله

ثم اتجه إلى القطب تسبقه عيون التودد والعرفان

– ربنا يزيدك يا حاج ، ربنا يكرمك ويقويك كمان وكمان .

ربت القطب على ظهر أنور فى تواضع ، وأجلسه بجواره ، ثم مال عليه يكلمه فى همس .

– موضوعك انتهى ، كلها يومان أو ثلاثة وتستلم التاكسى

فرحت ملامح أنور ، وهم بخطف يد الحاج ليقبلها ، ولكن الرجل سحب يده بسرعة وهو يستغفر الله ، وعينيه ترقب الناس . !

ظل أنور يبتهل بالدعاء ، وهو يتراجع لمكانه .وعاد القطب يتكلم فى تواضع ناعم .. مؤكدا للناس أن المحبة وحدها هى التى تربطهم به ، وهى التى تدفعه لأن يبذل كل الجهد لمساعدتهم فى حل مشاكلهم ، وتخفيف أعبائهم ، وإشاعة روح التآلف والتعاون بين أهل الحى الواحد .

ثم أخرج كشفًا من جيبه ، وراح يتلو بعض الأسماء ، أصحاب الطلبات العاجلة ، ودعاهم لمقابلته غدًا ، بعد صلاة العشاءِ ، هنا فى مكتبه ، وبعد أن يكون قد أجرى بعض الاتصالات بشأنها .

ودعا أصحاب الطلبات الجديدة ، ومن يريدون التفاهم معه ، أن ينتظروا إلى ما بعد الاجتماع .

همس عباس فى أذن الحاج قطب فتطلع ناحية الباب ورأى المأمور ياسر الشاهد ، يدخل الصالة وينظر إلى الوجوه الكثيرة وهو يدارى دهشته . ظل ساكنًا وأرخى عينيه على مسبحته ، وعندما اقترب المأمور منه ، قام مرحبًا وأخذه فى أحضانه ، وظل يربت على ظهره بكلتا يديه .

– أهلا يا باشا .. يا ألف مرحب

ثم أخذه تحت ذراعه واتجه به إلى حجرة المكتب .

ودار الهمس ، وارتفع بالتدريج بين الرءوس المتقاربة فى الصالة .

بعد تقديم واجب الضيافة ، دخل المأمور فى الموضوع .. بدأه متحرجًا آسفًا ، ثم متوددًا ناصحًا ، مراعاة لحق الصداقة القائمة بينهما .

استمع القطب واستوعب جيدًا ما قاله الرجل ، بينما ابتسامته الماكرة تتمدد على وجهه ، وتمتص بوادر الانفعال فى هدوء .

ولما انتهى المأمور ظل ينتظر .. وصمت القطب لحظات ، ثم اقترح أن يعمرا رأسيهما بنفسين من الشيشة ، متجاهلا بذلك كل ما قاله ضيفه .. !

اعتذر ياسر الشاهد عن وضع الشيشة ، لأنه جاء في وقت العمل .. وطاوعه القطب ، ثم مال عليه واحتوى وجهه بعينيه المتسعتين قائلا .

– أتعرف يا باشا ، لو قالها غيرك لقلبت الدنيا على رأسه ، ولكنك صديقى وللصداقة حقوقها ، كما أنك ضيفى ، وأيضًا للضيافة أصولها . أولا ياباشا هذا القصر قصرى ، ملكى ، ومن حقى أن أستقبل فيه من أشاء ووقت ما أشاء .

ثانيا الحاج قطب رجل فوق كل الشبهات ، وكل من يدخلون عندى ، يدخلون بدافع المحبة ، وطلبا للمعاونة المشروعة ، أو العمل المشروع .

أما من حيث دواعى الأمن وما شابه ، فأنا أعرف أسماء وأشكال المخبرين الذين يدخلون بيتى ، ويندسون بين الناس ، وأظنهم أخبروكم بكل ما يحدث هنا .

فرك القطب مسبحته بين كفيه ، ثم قال وهو يرمى لبعيد .

– أعرف ياباشا أن الكلام ليس كلامك ، لأنك تعرفنى جيدًا . لذلك أرجو أن تترك صاحب هذه الأفكار الطائشة ليواجهنى بنفسه ، وتأكد أننى سأرد عليه بما يستحقه . !

بعد أن خرج المأمور مثقلا بكلام القطب ، أبدى عباس استياءه ، وراح يراجع القطب فى موضوع قطعة الأرض التى منحها لتوسعة القسم . كان من رأيه أن هذه الطائفة ناكرة للجميل ، وأنها لا تستحق أبدا عطاء القطب وسخاءه . !

ابتسم القطب مستخفًا برأى عباس ، وفكر أن يواجهه بضيق أفقه ، ويحبوه المتعثر وراء حكمته ومكره .

قال وهو يزن الكلام ويتباهى به .. إن قطعة الأرض هذه ستكسر العيون ، وتسد الأفواه ، وتسهل كثيرًا من المسائل ، ثم إنها قطعة تافهة لا تزيد عن المائة متر ، والأهم من ذلك أنها لا تصلح للبناء ، لأنها عائمة على بركة مياه جوفية يستحيل ضخها .

ثم نظر باستهتار إلى عباس ، وهو يبتلع رعونته فى صمت . !

(١٢)

عرفت انشراح أن ابنتها فايزة ذهبت لأبيها فى السجن ، رأته وتكلمت معه .. فانشغلت وضايقها الخبر . !

لم تكن تتصور أن تجرؤ البنت على هذا التصرف ، وبمثل هذه الطريقة . !

فتتجاهل وجود أمها ومشورتها ، وتستخف برفض القطب وتحذيره لتنطلق على هواها وتفعل ما يحلو لها .

وعلى الرغم من تعاطفها مع حق البنات فى زيارة أبيهم ، وإيمانها القوى بهذا الحق ، إلا أنها تأثرت وحزنت ، لأن البنت لم تبح لها بما فعلت ، واعتبرته سرًا خاصًا بها . !

فلولا أن أختها حسنية فتنت عليها ، لما عرفت هذا السر من أحد .

ولولا أن الصغيرة حكت لأمها كل ما سمعته من فايزة وعباس فى الحديقة ، لما دخل الكلام رأسها وصدقته . !

قامت انشراح إلى الشرفة ، وراحت ترقب الطريق .. تنتظر وصول فايزة من معهدها وهى تفكر .

كيف طاوع عباس البنت وأخذها إلى السجن . ؟

ثم لماذا استجاب لرغبتها ، وهو يعرف أنها تعارض رغبة القطب ، وتستثير غضبه . ؟

هل يدبر عباس شيئًا لا تفهمه . ؟

أم أن بينه وبين البنت علاقة خفية ، تبيح له فرصة الاستهانة بكل العواقب ، وهو يلبى رغبتها ويسترضيها . ؟

توقفت العربة عند المدخل ونزلت فايزة ، كانت جالسة بجوار عباس ، ولمحت أمها ترقبها من الشرفة .

ولما دخلا فى الموضوع بادرت بالإنكار ، وتحايلت لكى تتهرب من حصار أمها وضغطها عليها .

بكت انشراح وراحت تنعى حظها العاثر ، مع الرجل المسجون والابنة الجاحدة .. ولم تسكت حتى انهارت فايزة أخيرًا ، واعترفت لها بكل ما يحدث ، وبكل ما سمعته من أبيها .

أطبقت المفاجأة على صدر انشراح ، فانتفض قلبها وأوجعها دقاته .

وغامت الدنيا أمامها ، فظلت عيناها شاخصتان تقطران الدموع فى هدوء ،

لم تشعر بفايزة وهى تضمها وتسترضيها ، ولم تنتبه إليها وهى تعترف بذنبها ، وتلوم نفسها على كتمان الأمر عنها .!

(١٣)

دخل بركات عبد الهادى عند الحلاق ، ففوجىء باللواء منصور عبد الجبار مسترخيًا فى المقعد والموسى يجرف ذقنه بصوت خشن .. هم بالتراجع ولكن عينى الرجل اصطادتاه فى المرآة وشلتا حركته . !

أزاح منصور صدر الحلاق ، ليمتص أنفاسًا متلاحقة من سيجارته ، بينما ظل الموسى معلقًا فوق الرأس .

قال الحلاق وهو ينظر إلى بركات .

– طبعًا تعرف الباشا منصور

فأومأ بركات فى تودد

– – ومن لا يعرف الباشا

ولاحقه منصور وهو يهتز بالكرسى

– – كنت آتيا لك بنفسى ، أين أنت يا رجل . ؟

لم ينطق بركات ، وظل يتأمل الرأس المنطرح على ظهر المقعد ، نشاز من الصلع البرتقالى اللون ، ورءوس البثور البنية ، وهيش الأعشاب البرية وراء الأذنين الكبيرتين . !

كان يفكر فى موضوع الكلب ، والمحضر الذى عملته عفاف فى القسم ، بينما يتوجس الخبث فى إيحاءات الرجل ، وفى منظر عينيه ، وهو يلاعبه ، يناوشه بكف لينه ، قبل أن يبرز مخالبه المسنونة ويهجم . !

قال الحلاق فى مداهنة ، وهو يتحسس أعلى الرقبة :

– وبعد ياباشا ، كيف جعلتمونه يعترف . ؟

نظر منصور إلى الحلاق وقال فى تعاظم

– أتريد أن تعرف كيف جعلته يعترف . ؟

وبدون أن ينتظر رد الحلاق ، التفت إلى بركات ، وقال لكى يشركه فى الموضوع .

– كنت أحكى له شيئًا من أمجادى يا بركات بك .

أيام كنت ضابط صغير فى المخابرات .

الحكاية يا سيدى باختصار ، أنه كان مطلوبا منا الحصول على اعتراف مهم من أحد السياسيين الخطرين ، وكان الوقت ضيقًا وحرجًا .

المهم أنهم احتاروا مع الرجل جميعًا ، بعد أن تبادلوا عليه كل وسائل التكريم لفك عقدة لسانه ، ولكن بلا جدوى . !

وأخيرا أعطوه لى ، بعد أن امتلأ إصرارا وتبجحًا . !

وعنها وبدأت أفكر .

ليست المسألة مجرد إعتراف يا منصور ، إنما هى مسألة إثبات وجود .

وآه إن لم يستطع الرجل إثبات وجوده فى شغلتنا هذه . !

وأخيرا هدانى تفكيرى إلى الطريقة ، وكانت هى الطريقة !

وضحك منصور فى انسجام ، بينما يدفع بسيجارة فى فم الحلاق ، ثم يلقى بأخرى إلى بركات ، فتلقفها لاشعوريا قبل أن تقع .

قال منصور وهو يتمطى ويميل بالمقعد إلى الخلف .

- أتعرفون ما هى الطريقة . ؟

ثم ركز نظرته على وجه بركات من خلال المرآة .

- إنها طريقة قطرة المياه يا بركات يا خويا . ؟

تساءل الحلاق فى فضول

- قطرة الماء ياباشا . ؟

حط منصور رجلاً على رجل ، ونفخ دخانًا ملأ وجه المرآة .

- المسألة يا جماعة فى منتهى البساطة . أوقفت الرجل مقيدًا تحت الحنفية ، وجعلتها تقطر على رأسه ، قطرة كل لحظة ، قطرة واحدة ، فى نفس المكان ، فى نفس المكان ، وهكذا . !

تضاحك بركات فى استخفاف ، وأفلت منه التساؤل .

- ولكن لماذا . ؟

ثم انتبه إلى أن الرجل نصب له فخًا وجره إليه . !

استدار منصور بمقعده ، واحتوى بركات بكل وجهه .. وانطلق يشرح له ، ويؤكد بحركات يديه وملامحه ، كيف أنها طريقة مضمونة ، وأنها برغم بساطتها الظاهرية ، تجعل أشد الرجال صلابة ، يخر ساجدًا ، ويخرج كل ما فى جوفه . !

مصمص الحلاق بشفتيه وقال متعجبًا

- معقول ياباشا ، لأ الله ينور

أمسك منصور يد الحلاق وضغط عليها

- المهم أن تجعل القطرة الباردة تسقط فى نفس المكان ، كل مرة ، كل مرة ، فاهم . ؟

بعد مائة قطرة على الأكثر، تشعر بهذه القطرات وكأنها جمرات، تخرم عظام الرأس، وتصل إلى النخاع، وتكوى مركز الأعصاب. لحظتها تنفك عقدة اللسان تلقائيًا، وفى منتهى الهدوء. !

انتفض الحلاق وهو يخطف يده من قبضه منصور.

– يالطيف اللطف يارب

قال بركات مندفعا.

– أليس هذا حراما يا منصور بك. ؟

وضحك منصور بكل قوته، فملأت ضحكته فراغ المحل، ثم راح يتساءل مستنكرًا.

– حرام .... !

يا راجل حرام عليك أنت .. أتسمى العمل حرامًا يا سيد بركات !.

أتحب أن أجعلك تعترف بأنك زعيم الجاسوسية فى بر مصر. ؟

تراجع الحلاق مفزوعا وشد الفوطة عن صدره.

– أعوذ بالله، آخرتها ياباشا، الأستاذ بركات رجل سكرة، ثم إنه جارك على كل حال.

قام منصور واقترب من المرآة، ظل يتحسس جلد ذقنه ويبحلق عينيه، وقال وهو ينفض هدومه بالفوطة.

– وأنا أيضًا رجل سكرة، لكن مع الرجل السكرة.

أشار الحلاق لبركات فقام وجلس فى مقعد الحلاقة. والتقط منصور نظارته وعلبة سجائره .. ثم دفع الباب ليخرج، ولكنه عاد وقال للحلاق.

- أوصيك خيرًا ببركات بك ، إنه جارى وقريبى .

ثم أمسك كتف بركات وهزها

- سكر مع سكر يبقى آخر حلاوة .

وعندما تأكد من خروجه ، أخذ نفسه فى ارتياح .

- أعوذ بالله ، سرطان يا جدع .

تراخى بركات فى المقعد وأسند رأسه .

- وعنده كلب فظيع !

قال الحلاق وهو يحرك الفرشاة فى الصبانة .

- كفانا الله شره وشر كلبه .

ثم وضع الصابون على وجه بركات وراح يسن الموسى فى تكاسل .

دنيا ! . عندما كان قادرًا فعل الكثير ، أمام الآن ، وبعد أن ركنوه على الرف ، فماذا بيده أن يفعل ؟

سأله بركات ماذا يقصد بركنوه على الرف ؟

فقال شامتًا .

- يعنى ركنوه على المعاش ، أصبح رجلاً عاديًا مثلى ومثلك ، ألا تعرف ؟

أجابه بركات بأنه لا يعرف ، ثم إن العسكرى الخدمة ما يزال يقف أمام بيته .

تحسس الحلاق الذقن الخشن ، وبدا اليأس على ملامحه .

- أحالوه على المعاش آه ، أما نفوذه فلا يمكن لمخلوق أن يمسه ، يظهر إن سيادتك لا تعرف من هو منصور عبد الجبار !

خرج بركات من المحل وهو يفكر ، كان وجه منصور يملأ رأسه ويتمدد فيه ، وضحكته الخبيثة تناوره فى بجاحة ، وتسخر منه . !

لابد أن قسم البوليس أبلغه بموضوع محضر الكلب ، طبعا كلهم أصدقاؤه ومعارفه . العجيب أن الرجل لم يبد أدنى استياء ، لم يلمح لموضوع الخرطوم أو لموضوع الكلب على الإطلاق .

هل اعتبرها أمور هايفة لا تستحق الكلام ؟

أو حتى مجرد العتاب والتصافى ؟

هل اقتنع بأن كلبه هو الغلطان . وأن زوجته هى التى بدأتهم بالتحرش ؟

وعلى ذلك يكون عفى الله عما سبق .. وصافى يالبن ؟

لا يعتقد أن الرجل منصور يفكر بهذا المنطق .. ولابد أنه يبيت لهم ردًا يتناسب مع خبرته ومركزه . !

كان ذلك واضحًا وهو يحاصره بعينيه على مرآة الحلاق . !

ثم إن كلبه مازال يعملها ، ينط السور ويهجم على الفراخ ويفزعهم من أحلى نومة . !

(١٤)

سحب القطب صندوقًا صغيرًا من الدرج ، ووضعه على مكتبه ، خشب الصندوق جميل ومطعم بالصدف .

فى تأن فتح الغطاء ، فظهرت مجموعة الخواتم الفضية ذوات الفصوص الغريبة الشكل ، والولاعات ، والميداليات الذهبية القيمة .

وبحرص واعتزاز التقت أصابعه خاتمًا وولاعة وميدالية ، وقدمتهم للرجل الأول .

– أستاذ رمزى .

امتدت يد رمزى وعيناه تخطفان نظرة سريعة إلى وجوه زملائه

ابتسم القطب فى تودد مرسوم .

– النبى قبل الهدية

وبعدها امتدت بقية الأيدى وأخذت ، ثم دست فى الجيوب .

دعاهم القطب أن يشربوا ، ثم راح يرتشف من كوب العصير فى تمهل ، وهو يعود بهم إلى الموضوع .

قال إنه مؤمن بإخلاصهم الشديد فى عملهم ، وأيضا فى التعاون مع رجاله ، وتسهيل مسائلهم ، وخاصة المهندس مدكور .

كما أنه مؤمن بأن مرتب الحكومة لم يعد يفتح بيتا ، أو يحفظ عزيزًا من الهوان والحرمان . !

ولذلك فهو يرى أن يستفيد بإخلاصهم وحماسهم بطريقة مجدية ، بطريقة تفيده وتفيدهم ، فأحل الحلال ، أن يتبادل الناس منافعهم ومصالحهم فى مودة وتراض .

ابتسم فهمى عرفات أمين عام السجل المدنى بالشهر العقارى ، وقال فى استجابة مرحبة .

– ونحن تحت أمرك ياحاج

طلب القطب منهم أن يأخذوا راحتهم فى القصر ، وأن يعتبروا مكتبه مكتبهم ، من اليوم ، وأن تكون علاقتهم به مباشرة .. فهو يكفيه ساعة واحدة ، يجتمعون فيها كل يوم ، ليتفاهموا فى العمل ، وليدبروا أمورهم العاجلة .

ثم سحب درج مكتبه .

– أما عن المرتب فاطمئنوا ، سيكون مجزيًا .

كان الرجال يستمعون فى ترقب ، يسايرون القطب فيما يقول ، بينما رءوسهم الواعية تفهم ما وراء الكلام ، وتزنه فى عبقرية متأصلة . !

أخرج القطب أربع رزم من درجه .

– مادمنا قد اتفقنا ، يبقى نقول على البركة .

وناول كلا منهم رزمة .

– تحت الحساب ياسادة ، من مرتب الشهر القادم .

والتقطت الأيدى بسرعة ودست فى الجيوب .

قال القطب وهو يفرد خريطة الحى بينهم .

– الأولوية كما اتفقنا ، ستكون لمشروعات المسجد والمدرسة والمستشفى ، نبدأ بها ، ومهمتكم أن تساعدونى على إيجاد قطع الأرض المناسبة ، من حيث الموقع ، والسعر ، والإجراءات ، لكى نتوكل على الله ونبدأ .

ألقى فهمى عرفات نظرة سريعة إلى الخريطة ، ثم صرح فى تباه بمعلوماته ، أن هناك خريطة للحى ، أحدث من هذه وأدق ، وأنه سيأتى بنسخة منها غدًا .. وأمن على كلامه رمزى القرموطى رئيس الحى .

وضع شريف عبد الهادى إصبعه على أحد المربعات الاستراتيجية بالمنطقة ، وأكد أنها قطة أرض متاحة ، وأنها مثالية لبناء المستشفى ، وأيده عادل المحلاوى مسئول تراخيص المبانى .

كان تحت يد القطب أحدث نسخة من خريطة الحى ، وصلته يوم صدورها .

كما أنه يعرف جيدا أماكن القطع الاستراتيجية .. ولكن لكونه يعشق المناورة ، وأساليب جس النبض ، لذا فقد ألقى بالطعم ، وترك الفرصة للثعالب المتنافسة أن تستعرض أمامه مواهبها وغرورها !

استأذنهم لدقائق ، وتركهم وذهب إلى الحجرة المجاورة ، حيث الشيشة المعدة ، والجو المرسوم ، وشاشة الدوائر التليفزيونية الداخلية ، تكشف أمامه كل ما يقولون وما يفعلون فى غيابه . !

(١٥)

دخل دسوقى أبو عيطة شقة زكريا فرحب به وأخذه إلى البلكونة ، فى الهواء . وقبل أن يبتلع من الساقع ، سأل زكريا إن كانت زوجته أم ياسر قد جاءت عندهم اليوم ، هنا فى الشقة ؟ ولماذا جاءت ؟ وماذا قالت بالضبط ؟ تردد زكريا فى البداية ، ثم قال فى نفسه إن الصدق أسلم ، طالما أن الرجل يتحرى عن زوجته !

بدأ دسوقى يشك فى كلام زكريا ، لا يصدق أنه لم يتكلم مع زوجته فى أية موضوعات .

عاد يسأله أن كان قد سمع ولو « طراطيش » كلام مما قالته لخاله أنور

– إعمل معروف يا أخ زكريا ، ثم لماذا خالك بالذات . ؟

ثم تركه فجأة وجرى إلى باب الشقة ، وقف متخفيًا هناك يتنصت فى ترقب ، وعينه على ثقب الباب !

تساءل زكريا .. ماذا هناك . ؟

فطوح له يده فى عصبية .. هش .. انتظر .

ولما طال انتظاره ، راح له وهمس فى حذر .. إيه الحكاية ؟

أخذه دسوقى من يده إلى البلكونة . ابتلع من زجاجة الساقع وقال بعينيه الرامشتين .

– كلام فى سرك ، المرأة أصابها اللطف ، أصبحت مجنونة رسمى ، والعياذ بالله . !

سأله زكريا متشككا ، فأكد أنه يقصد زوجته أم ياسر .

ثم انفتح الرجل ولم يسكت ، راح يشرح لزكريا حالتها المستعصية

- أصبحت مسعورة بداء الفلوس يا سيد زكريا ، لا تكف لحظة ولاتهمد ، عوزين فلوس لهدوم العيال يادسوقى ، ودسوقى يا سيد زكريا يأخذ بالقطارة ليكب فى البيارة !

حاول زكريا أن يطيب خاطره بكلمتين ، ولكنه هب فى وجهه .

- اسمع ، نبه على خالك أن يبتعد عن طريقنا ، وإلا جعلته يسف من تراب الأرض ، فاهم ياسيد زكريا ؟

راح زكريا يحلف له بأنه لا يعرف شيئا مما حصل بين أم ياسر وخاله ، ولكن دسوقى سخر منه ، وإتهمه بأنه نائم على أذنيه !

ثم أخذ يتباهى بفراسته الفزة ، فى فن المراقبة واكتشاف المؤمرات .

- سمعت خالك يكلمها فى بئر السلم ، وعدها أن يأخذها لرجل يدعى الحاج قطب ليحل لها مشكلتها ، ألا تعرف أيضا الحاج قطب . ؟

غلب الضحك زكريا ، ولكنه تماسك وكتمه فى صدره ، يبدو أن خاله قد « عكها » معهم وزاغ !

فكر أن يأخذ الرجل بالهوادة ، لعله ينتهى ويقوم لحال سبيله ، لذا طاوعه ، وراح يؤكد له أنه سيتكلم مع خاله ، ويمنعه من التداخل فى شئون الناس .

التفت دسوقى فجأة إلى شباكهم المجاور ، ثم سأل زكريا إن كان قد لمح البنت واقفة هناك .

- أكيد كانت تتنصت لحساب أمها . !

لم يفهم زكريا شيئًا فهز رأسه وسكت !

نادى الولد ياسر على أبيه فقام .. ثم قال وهو يتجه إلى الباب

– تعرف لولا أننى سيطرت على الولد من أولها ، لضاع منى كما ضاعت البنت .

انصفق الباب وظل زكريا حائرا مع أفكاره .

من هو الحاج قطب ، وما هى المشكلة التى سيحلها لأم ياسر ؟

ثم إن منظر خاله وتصرفاته غير طبيعية ، لا تعجبه !

فلماذا ترك شقته وجاء ليقيم عنده ، وبدون سابق إنذار ؟

وأين التاكسى الذى كان يتكسب رزقه منه ؟

لم يره مركونًا كالعادة بجوار الباب !

انتبه زكريا على صوت الدق فقام وفتح . سبقت خاله رائحة البخور ودخان السجائر ، ولاحقته وهو يدخل البلكونة .

فرد أنور لفافة كانت معه على الترابيزة ، وطلب من زكريا أن يأكل . الكمية كبيرة من الحلوى الممتازة ، تملأ الورقة .

مد زكريا يده بقطعة منها لخاله ، وسأله مداعبًا هل كان معزومًا فى فرح ؟

تمنع أنور وقال إنه أكل نصيبه .

انفتح فجأة باب الجيران ، وانطلق منه صراخ دسوقى .

– إلحقونى يا خلق .. الحقونى يا هووه .

جرى أنور وفتح الباب وزكريا وراءه !

وبعد أن انفض السكان المتجمعون على الصراخ ، وبعد أن التقط دسوقى أنفاسه وتراخى على الكنبة ، جاءت أم ياسر من المطبخ وحطت صينية الشاى على الترابيزة . كانت هادئة وعيناها إلى الأرض .

زعق دسوقى وضرب الكنبة بيده .

– إبعدوها عنى يا خلق ، خذونى للمستشفى ، ذراعى انكسر ياهوووه .

مشت أم ياسر بعيدًا ، وراح أنور يهدئ الرجل ، ويتحسس مكان الألم ، ولكنه ظل يتوجع ، ويصر على الذهاب إلى المستشفى .

– جناية ، علاج أكثر من أسبوعين فى المستشفى يعنى جناية ، خذونى للمستشفى ياهوووه .

رجاه أنور أن يتركه يدلك له ذراعه ، ولكن الرجل ازداد هياجًا .

– أبدا ، لابد أولا من إثبات الحالة فى محضر رسمى ، أنا كنت قاعد هنا على الكنبة فى حالى . وهى كانت قاعدة هناك على الكرسى . راحت تنظر لهذه الخزنه وتتعجب ، ثم قامت فجأة وهجمت على ذراعى وعضتها بكل قوتها . تركتها تعض حتى تعبت ، لم أفتح فمى بكلمة واحدة ، قلت أنا الرجل ولازم أتحمل جنونها . اغتاظت وزقتنى بكل عافيتها ، فوقعت من على الكنبة وانكسرت ذراعى ، آه يا ذراعى !

جاءت أم ياسر فى تمهل وقعدت . طلبت والدموع تسح من عينيها أن نأخذ زوجها إلى المستشفى ، لأن أمنيتها أن تذهب إلى السجن ، كما يريد هو . !

ثم قامت وحطت يدها على الخزنه المركونة عند الحائط ، وتساءلت

– هل رأيتم إنسانًا عاقلاً يدفع كل ما معه ليشترى هذه الخزنة ، فى الوقت الذى لانجد فيه ما ننفقه على ضروريات المعيشة . !

قلت له .. ماذا سنحط فى الخزنة يا دسوقى ؟

قال لى .. مزاجى كده ، أنظر لها كل يوم وأتمتع بمنظرها فى بيتى .

أهذا تصرف يرضى الله ؟

أخرج أنور عود بخور من جيبه وأشعله ، قربه من أنف دسوقى وطلب منه أن يشم بعمق ، ويقول أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ثلاث مرات .

تضايق الرجل من رائحة البخور ، فأزاح يد أنور ، وزعق فى غيظ أن الألم فى ذراعه وليس فى أنفه . !

مال أنور عليه وهمس

– تعال معى وأنت تكسب ، القعدة هناك ترد الروح .

وبكت أم ياسر وهى تدخل حجرة الأولاد .

– والله السجن أرحم من هنا ألف مرة !

(١٦)

كالعادة اختتم القطب كلامه للجالسين فى الصالة ، بأن الأمور تسير على أحسن حال ، وأن تحقيق الآمال أصبح قريبا ويسيرا ، وذلك بفضل جهودهم الذاتية المخلصة ، ورغبتهم فى حل مشاكلهم .

ثم راح يذكرهم بأنهم جميعا أبناء حى واحد . وأن هذا الحى سيصبح قريبا جدا حيا نموذجيا ، حيا رائعا ، تتطلع إليه العيون ، ويباركه كل المخلصون .

قام القطب مستأذنا ، ودعاهم أن يأخذوا راحتهم فى المكان .. وعند باب المكتب همس لعباس ، فذهب وأعطى المظروفين المعتادين ، للمخبرين الجالسين فى الصف الأخير !

كان أبو العيون ينتظر فى حجرة المكتب ، يدخن ، ويعبث بالأشياء الموضوعةعلى المكتب ، فى استخفاف ملحوظ . !

سيطر القطب على ضيق صدره ، وأقبل على الرجل مرحبا ، فأخذه أبو العيون فى صدره وضغط عليه فى تودد .

وبعد أن جلسا أشار على القطب فى سخرية ، أن يرشح نفسه لمجلس الشعب ، لأن الأصوات أصبحت تملأ المكان . !

تجاوب القطب معه فى برود ، وشاركه ابتسامته الماكرة ، مؤكدا أنه سيفعلها قريبا بإذن الله .

ولما طلب منه أبو العيون « الأمانة » التى عنده ، أحضرها ووضعها أمامه ، فعاد يغريه بتجارة الصنف ، التى انتعشت وأصبح ربحها خياليا .

ثم أخرج من جيبه مظروفا منتفخا وقدمه فى حماس .

– نصيبك يا معلم فرس

اعترضت يد القطب مظروف الفلوس .

– اسمى الحاج قطب يا أبو العيون ، ضع فلوسك فى جيبك .

تضاحك أبو العيون وهو يبدى استجابة مفتعلة لاعتراض القطب على لقب المعلم فرس النبى .. ثم عادت يده تلح بالمظروف .

– نصيبك يا حاج قطب

أشاح القطب بوجهه ، قال إنه لم يفعل شيئا يستحق عليه نصيبا .. وأصر أبو العيون على أن يعطيه المظروف .

– لقد اتفقنا يا ... حاج ... هو كلام عيال ؟

– اتفقنا على ماذا يا أبو العيون ؟

– على أن نتعاون معا فى تسليك المسائل ، وكل منا يأخذ نصيبه بالحلال .

– بالحلال ! أبدًا يا أبو العيون ، الحاج قطب لم يتفق على هذا الكلام .

تطلع إليه أبو العيون متوجسا ، ثم ألقى بالمظروف أمامه على الترابيزة .

– أتعنى أن أبو العيون لا يفهم كلام المعلم فرس ؟

هب القطب واقفًا وهو يجتر غيظه .

وهب أبو العيون مواجها وهو يجتر غيظه ، وتلاقت العيون ، فهددت ، وتعاركت ، فى صمت مشحون !

امتدت يد القطب وضغطت على الجرس ، فدخل عباس ومعه رجلان .

رمقهم أبو العيون من تحت جفنيه ، ثم عاد يتضاحك ، تجاهل كل ما حدث ، وقال إنما جاء ليشترى شقة من الحاج ، فى برج التوحيد والنور ، ليزوج ابنته منال .

– فاكرها يا حاج ، كانت تطلع على حجرك وتشد الكوفيه .

ثم أبدى استعداده لدفع الثمن الذى يراه الحاج ، كما ترك له حرية اختيار الطابق المناسب .

وظل القطب يراقب مناورة أبو العيون فى حذر ، بينما رأسه منتبه ، يفكر ، ويتحين الفرصة الحاسمة .

التقط أبو العيون المظروف وقدمه للقطب .

– عربون الشقة ياحاج قطب ، أظن نقول على البركة .

صمت قطب لحظات ، ثم هز رأسه موافقا وأخذ المظروف .

(١٧)

سألت فايزة أختها حسنية عن سبب تأخرها أمس بالمدرسة ، فأخبرتها أنها اشتركت فى مجموعة العربى لأنها ضعيفة فى القواعد .

انطلق « كلاكس » عربة المدرسة ، فخطفت حسنية شنطتها وجرت إلى حجرة أمها لتقبلها .

نظرت فايزة من الشباك فرأت عباس فى الحديقة ، يتكلم مع الجناينى ، ولما رفع عينيه ناحيتها أشارت إليه خلسة ، ففهم وهز رأسه فى سعادة !

فى الصالة كان الحاج قطب يشرب قهوته ويتصفح الجرائد .

لمح فايزة تتجه إلى حجرة أمها فناداها ، أخذها إلى جواره ، وراح يكلمها فى حنان الأب .. ولأول مرة يوصيها على أمها بهذا الحرص !

يرجوها أن تنتبه إليها ، ترعاها ، تغذيها ، تمنعها من كثرة الحركة ، أو المشاركة فى أعمال البيت ، حتى تضع وتقوم بالسلامة !

وزادت جرعة الحنان والتودد ، وهو يفتح لها صدره ، ويبوح بمدى لهفته إلى الولد ، أخوها المنتظر ، الذى يسعدهم ويملأ عليهم البيت . !

وبدت ملامحه تتقلص من تشوق الصدر المحموم ، ثم تتهدل منه وتستجيب للحظة صدق عابرة ، بينما اللسان يعترف . !

هى مرارة الحرمان من الولد ، تلك التى ساقته مجبرا ، ليفعل الكثير ، وليضحى بالأكثر . ! فكرت فايزة فى أبيها ، الأسيوطى ، عرفت أخيرا أنه فى مقدمة الضحايا .

داسه الرجل فى خسة ليعبر إلى الهدف الصعب .. لذلك فقد أصرت عيناها على الهروب من عينيه البغيضتين ، ونفضت أذناها فى اشمئزاز بقايا صوته !

وحين انتبهت ، كان يسألها عن دراستها ، وإن كانت تطلب شيئا ، أو تريد زيادة فى المصروف . ثم أخرج من جيبه وأعطاها ، لتشترى فساتين جديدة ، لها ولأختها .

خرج الحاج قطب .. وراحت فايزة لأمها .. بدت انشراح متعبة من الحمل ، ومن التفكير فى موضوع زوجها الأسيوطى .

وسحت منها الدموع على خديها ، وهى تبوح للبنت أنها لم تعد تحتمل ، لايطيق بطنها بذرة الحاج قطب وهى تنمو بداخله ، تحس به ينقبض عليها ويعتصرها فى نكران ، يريد أن يلفظها ، أن يتخلص منها قبل الأوان . !

وعادت البنت تطمئن أمها ، تشجعها على تحمل الصبر والانتظار .. فما حدث قد انتهى ، ولا يجدى الندم عليه ، أما ما سيحدث فهو الأولى بالتفكير والتدبير ! فإنهم إذا بدأو الحرب مع الحاج من الآن خسروا كل شيء .

سيظل الأسيوطى فى السجن ، وسيقعون هم عاجزين تحت أقدام من لا يرحم ، تدوسهم بكل غل الانتقام .

أما إذا انتظروا حتى يجيء الولد ، وأصبحت انشراح هى أم الولد .. فإن الموازين ستنقلب لصالحهم ، سيصبحون هم الجانب الأقوى والأبقى .

استعطفت فايزة أمها ، وراحت تشجعها وتوصيها بالمحافظة على حملها ، ورعايته ، فإنه الأمل الوحيد ، إن أرادت فعلا أن ترد للأسيوطى اعتباره وكرامته !

بعد ساعة من خروج الحاج قطب ، كان اللقاء المنتظر بين فايزة وعباس . لم يكن عباس يصدق نفسه ، وهو يسرع حذرًا إلى الحديقة الخلفية ، أن فايزة يمكن

أن تأتيه حقا ، تقترب منه برضاها وتكلمه ، وقد تبوح بما يتمناه قلبه ، وتتشوق لسماعه أذناه ! كان الشك يتقلب محموما فى صدره ، منذ أن أشارت إليه !

هل أشارت إليه حقا ؟

وهل قصدت بالفعل أن تلقاه هو بعد ساعة ؟

معقول يا عباس . أيمكن أن تستجيب أخيرا أميرة أحلامك ، تدخلك جنتها التى طالما سعيت إلى أعتابها ملهوفا متشوقا !

أم أنك لم تفهم معنى إشارتها ، فأولتها أنت على هواك ؟

ولما اقترب وجدها هناك .

هى فايزة ، أميرته ، تنتظره بنفسها بين الأشجار والورود !

وهبط منه القلب إلى رجليه ، فقيدهما إلى الأرض ، ثم عاد فأطلقهما فى حماس !

(١٨)

قبل أن يوقع الحاج قطب على العقدين ، راح كالعادة يسأل عباس ، إن كان قد عدّ الفلوس بنفسه جيدًا .. ؟

فأكد له عباس ، وعيناه على ماكينة عد الفلوس ، المركونة بجوار المكتب ..

كان يعرف جيدًا تركيبة الحاج قطب . ويعرف كيف يتعامل مع هذه التركيبة ، بما يرضيها ، وبما يرضيه هو أيضًا .

لذلك فقد بادر بفتح الشنطة ، وظل يضع الرزم فى الماكينة ، لتعدها أمام عينى الحاج قطب ، ثم يعيدها إلى الشنطة .

– مضبوط يا حاج ، ثم فتح أجندته على صفحة برج التوحيد والنور .

– باقى أربع شقق يا عباس

أخبره عباس أنهم ثلاث ، لأن " أبو العيون " استلم شقته بالأمس .

دق جرس التليفون الخاص ، فوضع يده عليه وتطلع إلى عباس .

فهم وانسحب بالأوراق فى هدوء .

تفتحت ملامح الحاج قطب وهو يتكلم فى التليفون .. ثم راح يتأرجح بكرسيه منتشيا وهو يؤكد حضوره إلى العوامة ، فى الموعد المتفق عليه ..

أخذ مائة ألف ، ثم وضع باقى المبلغ فى خزينته .

قبل منتصف الليل بقليل ، كانت المرسيدس السوداء تسرى فى نعومة على طريق الكورنيش ، متجهة إلى المعادى .

تكسرت بعض شعاعات خافته ، وسالت ملونة على سطحها اللامع ، وهى تتهادى وتركن بجوار الرصيف .

أوقف الحاج قطب الموتور ، وظل ساكنًا أمام عجلة القيادة ، يستطلع ويترقب .

جاء من العوامة وجه ثعلبى ، وفتح باب المرسيدس فى تأدب مرسوم .

نزل الحاج قطب وفرد هامته ، بينما ألسنة الترحاب تتلاحق من الفم الثعلبى ، وتتمسح به فى تزلف ..

ناوله الحاج مفتاح المرسيدس ، وأخبره الرجل أن المكشوف بك ينتظره ، ثم ركب العربة ليخفيها بعيدًا عن الطريق وبعيدًا عن العيون ..

كان مدخل العوامة فخما ، المشايات اللينة الملونة ، والديكور الرائع ، والإضاءة الفنية ، التى تنسحب بالتدريج حتى تتلاشى داخل الصالة الكبيرة ، فلا يظل منها سوى شعاع بنفسجى متمرد ، يومض على فترات ، ليعلق استدارة نافرة ، أو ساقًا أبنوسية تتأود ، أو ملامح رجل تهيم فى النشوة .. والموسيقى حالمة ، تهدهد وتثير فى نعومة ، إلى تواصل الالتصاق ، وتواصل الدفء ..

تجنب الحاج قطب باب الصالة ، وانحرف إلى باب جانبى ، يؤدى إلى طرقة أخرى ، طويلة وضيقة ، على جانبها أبواب مغلقة ، تسيل عليها أضواء شاحبة ، تتقاطر من السقف المنخفض ..

توارى الحاج قطب وانتظر ، لمح وجها معروفا يدخل إحدى الغرف ، ومن ورائه خصلات ذهبية مسترسلة ، تنحو على نعومة ظهر مكشوف .

بعد لحظات تقدم ، عبر الطرقة وفتح الباب المواجه .. فإستقبلته روائح الدخان والبارفان والخمر ، وروائح أخرى ..

وهب إسماعيل المكشوف لاستقباله ، ضمه بكل الاحتفاء إلى صدره ، ثم أجلسه إلى جواره .

كان الأثاث شرقيا ، الشلت المخملية المبعثرة على السجاد الفخم ، قطع الأرابيسك ، التحف ، القناديل المضيئة ، الستائر الحريرية ، وعروس القعدة ، فى وسط المكان ، مبخرة كبيرة من النحاس المطعم بفصوص الزجاج الملون .

وضع المكشوف ذراعه على كتفى الحاج قطب وهزه فى تشوق

– أخذك الشغل منا يا كبير ، والله لك وحشة

تهادت ساقان بللورتان ، ثم مال صدر يستنكر السترة ، وناولته الأنوثة مبسم الشيشة ، بطريقتها ، وهى تركع أمامه ، وينقبض ثقب شفتيها الممتلئتين ويتمدد إلى الأمام ، بينما تداعب الجمرات وتوهجها .

أشار لها المكشوف ، فضمت عريها فى حرص ، وذهبت إلى هناك .

أطلق جهاز اللاسلكى إشارته المتقطعة ، فأخذه المكشوف وراح إلى الركن .

عادت الحورية تناور بابتسامتها المثيرة ، والحاج قطب يدير المبسم بين شفتيه الكبيرتين ، ويشد بكل قوته فى انسجام .

دارت حول المبخرة ، ثم هبطت وأخذتها بين رجليها ، فتحت غطاء الزجاجة وسكبت فوق الجمرات قطرة ، قطرة .. فهب الدخان الأبيض كثيفا ، معبقًا برائحة زيت الحشيش . ومدت الحورية وجهها فيه ، وظلت تتشربه به بكل ملامحها فى تلذذ .. !

انتهز المكشوف فرصة الكلام عن أخيه الوزير ، صاحب الأيدى البيضاء فى كل أعمال الخير ، وسأل الحاج أن يدبر شقة أخرى فى برجه ، للابن الثانى للوزير .

– لاتنس يا حاج أننا نعيش بأنفاسه ، ثم كله بثمنه يا كبير

هز الحاج رأسه فاهما ومؤيدا . وعينه على الحورية ، وهى تأخذ من دخان المبخرة وتدلك صدرها . !سأله المكشوف وهو ينظر فى عينيه

– أتعجبك . ؟

تشاغل عنه الحاج قطب بتحريك الجمرات على رأس الشيشة ، ففهم وأومأ برأسه ، دخل رجلان يحملان صينية كبيرة ، ووضعاها أمامهما . أطباق الإستكوزا ، والجمبرى ، وشرائح البوفتيك ، والحمام المشوى ، والسلطات ، والكفيار ، كلها مرصوصة بشكل جمالى رائع . وفى الوسط برام الكوارع والمخاصى ، الذى يعشقه الحاج قطب .

قال المكشوف وهو يتفاهم مع الحورية بعينيه .

– العشاء وجب يا كبير

فاقتربت ، وجلست بجوار الحاج قطب ، وراحت تنتقى من الصينية وتضع فى فمه وهى تغازله .

أخبره المكشوف أن فلانا ، وفلانا ، ورجالا آخرين مهمين ، كلهم مجتمعون حول البوفيه ، وأن المصلحة العامة تستدعى أن يلتقى بهم ، وأن يتبادل معهم فرص الأخذ والعطاء .

ظل الحاج قطب يأكل من يد الحورية فى نهم . وبدا أن كلام المكشوف لم يعجبه قبض على اليد اللينة فتأوهت ، وقال معاتبا .

– قلت لك لا أريد أن ألتقى هنا بمن يعرفنى وأعرفه .

ضحك المكشوف وتراجع مداهنا

– وأنا رهن إشارتك يا كبير

أخرج الحاج رزمة بألف ، وألقاها على الصينية ، ثم رزمة مثلها ، راح يداعب بها صدر الحورية المتلهف . !

– انسحب طاقم العازفين من الصالة الكبيرة ، وظل أحدهم وحيدا فى الظل ، يستحلب أوتار كمانه فى أنين شجى مثير ، يناوش التصاق الأبدان المخدرة ، ويغرى نشوة السعى إلى لحظة الامتزاج الخرافى . !

وامتدت الأيدى المدربة ترتفع الفوارغ ، وتضع الزجاجات الممتلئة ، والمزات ، والأكواب النظيفة .

كان المكشوف يشكو للحاج قطب من ارتفاع مصاريف المكان ، وأنه أصبح لا يغطى همه ، ولولا حرصه على مزاج أحبابه الكبار ، لكان تخلص منه فى أسرع وقت .

داعبه الحاج قطب ساخرا

– ارفع ثمن « الفزيته » يا دكتور .. والغاوى . !

تطلع المكشوف إلى الحورية ففهمت وقامت .

ترك الحاج قطب مبسم الشيشة ، وراح يشهق فى تأن واستمتاع خلاصة الدخان المعبق ويملأ به صدره .

مال على المكشوف واحتواه بعينيه

– خمس أرانب بالتمام والكمال .

انتبه المكشوف ، شم رائحة صفقة جديدة ، فسال اللعاب ، وانزلق الرأس حثيثا فى عينى الحاج قطب ليصل إلى القرار ويكشفه .

– تكلم يا كبير

وبدأ الحاج قطب يناور كالعادة ، والمكشوف يهز رأسه مؤمنا .

كان كلاهما يعرف جيدًا ماذا يريد من الآخر . وكيف يصل إلى هدفه بأقصر الطرق وأيسرها .

ولكنها أصول اللعبة ، وطقوس الصفقة ، التى تفرض نفسها ، وتحتم على كل منهما أن يستعرض خبرته ومكانته ، وأيضًا مراوغته إذا احتاج الأمر . !

ودخل الحاج قطب فى الموضوع ، فقال إنه مواطن صالح ، يسعى لرفع المعاناة عن أهل الحى الذى ينتمى إليه ، لذا فقد قرر إنشاء مجمع خدمات خيرى ، يشمل المستشفى ، والجامع ، ودار الحضانة .. وأن أنسب مكان لإقامة هذا المشروع ، هو قطعة الأرض الكبيرة ، شرق الشرطة العسكرية ، تلك التى استولت عليها الوزارة لبناء النادى الرياضى .

وتبلورت نية الحاج قطب ، فالتقطها المكشوف فى براعة .

إذن فالمطلوب أن يقنع أخاه الوزير بأن يترك قطعة الأرض للحاج قطب ، ينقل ملكيتها إليه بشكل قانونى ، نظير رشوة خمسة ملايين جنيه . ! تهادت موسيقى ناعمة من الأركان .

ودخلت الحورية ، ومن ورائها تشكيلة منتقاه ، أجسام مجهزة بطرق مبتكرة ، تحتقر ورقة التوت وتلفظها فى نفور . !

بد أن يستعرضن إمكانياتهن فى براعة ، البيضاء والسمراء ، الطويلة القصيرة ، الملفوفة والممتلئة .. والعين من إحداهن تروى مئة عطشان . !

تطلع المكشوف فى إعجاب ، وهو يغرى الرجل ببضاعته

– العمل فيما بعد ، خلنا فى ساعة المزاج

وكانت عيون الرجل قد همت بالفعل .. تلاحق أشياء الأجسام ، تحاصر مواطن القيمة الفنية ، وتفحصها ، وتجوس فيها فى مهارة مذهلة . !

وأخيرا استقر الرأى وانتهى .

أشار إليهن الحاج قطب فأقبلن عليه متلهفات . نفح كل واحدة منهن رزمة بألف ، مع ابتسامة بالغة الرقة . !

وتوقف عند إحداهن ، البيضاء الملفوفة ، لم يعطها شيئا . !

طلب منها أن تجلس إلى جواره ، فتداعت فى تدلل والسعادة تغمرها ، وهنأه المكشوف على ذوقه الرفيع وخبرته المتفردة فى أمور النساء .

بعد أن جمعت الحورية بضاعتها وخرجت ، تم التفاهم سريعا بين الرجلين ، وكان كل شيء مجهزا كالعادة .. شاهد عدل ، والمهر الشرعى .

وقام المكشوف بكتابة العقد فى لحظات .

– مبروك يا كبير ، على سنة الله ورسوله . !

راحت العروس إلى حجرتها لتستعد .. وبقى الرجلان ليسويا باقى الموضوع .

ناوله الحاج قطب خمس رزم ، مهر العروس . ثم عشر رزم مؤخر الصداق . ورزمتين لزوم القعدة ومصاريف نثرية وخلافه . ؟

ثم سأله إن كان يريد شيئًا آخر . ؟

فتودد له المكشوف وهو يرافقه إلى حجرته

– يا رجل خذ مزاجك أولاً .. ما بين الخيرين حساب . !

(١٩)

فى نهاية حديثه ، وبكل الثقة ، أكد الحاج قطب لكل العيون المنطلقة إليه ، والآذان المنصتة لكلامه ، بأن كل هذه المشاريع سيبدأ تنفيذها فورًا بإذن الله ، وأنها ستستوعب كل الأيدى ، وكل الرءوس ، وكل الخبرات ، التى عانت من مرارة البطالة ، وغمرها يأس الانتظار الممل . !

أما الشباب ، فلهم عنده مفاجأة مذهلة ، سيعلن عنها قريبًا جدًا .

ثم تدفقت كالعادة صوانى المشروبات والحلوى ، فاستقبلتها الوجوه ببشاشة الرضى والعرفان .

استأذنهم الحاج قطب ليلتقى بأخواتهم لحظات ، فى الصالة المجاورة ، والتى تم تجهيزها حديثًا لاستقبال النساء .

وأسرع أنور يلاحقه ويستوقفه قبل أن يدخل ، فأخذه تحت ذراعه ، واستمع إليه فى اهتمام وهو يكلمه عن أم ياسر ، الضيفة الجديدة .. أومأ الحاج قطب برأسه فاهمًا ومطمئنًا .

كانت أم ياسر منزوية فى ركن الصالة ، تشرب من الفنجان فى تمهل ، وتتسرب منها قطرات الاستطلاع إلى بقية الرفيقات ، وكن قلة ، مجتمعات فى وسط الصالة ، يتبادلن ثرثرة خافتة ، تدهشها فخامة المكان ، وتنشطها إشارات الأيدى ورغونة العيون . !

ودخل الحاج قطب متأنيًا مهيبًا ، منكس العينين مسبح الشفاه فى خشوع .. وجلس فى صدر الصالة .

بعد برهة ، ارتفع قليلاً صوت تمتمته ، بينما يشير لهن أن يتقدمن إلى الصف الأول ، فرك مسبحته بين كفيه ، وبدأ بالبسملة والصلاة والسلام على نبى الهدى ، سيدنا رسول الله .

ويدأ دخان البخور يتهاوى من الأركان ، ويتسلل إلى الأعطاف والصدور ، دافئًا ناعمًا ، يدغدغ الحواس المرهقة ، ويبعث فيها نشوة الترقب من جديد ، إلى بزوغ طاقة الآمال المستحيلة . !

وتواتر الصوت رخيمًا فى خشونة ، متسربًا إلى أماكن الضعف الغريزى ، يناوشها ويسيطر عليها . راح يخبرهن أن المرأة هى ثلاثة أرباع المجتمع ، وليست نصفه كما يدعى الجاهلون ، فهى التى تصنع الزوج ، والابن ، والأخ ، وتقيم الأسرة الحقيقية ، متحملة أعباء وظيفتها ، وأعباء بيتها .. ولذلك فإن المصلحة العامة تحتم علينا أن ننصف المرأة ، وأن نكفل لها كل حقوقها عن طيب خاطر ، لكى تعطى ، وتستمر فى العطاء .

انشرحت الصدور وتقاربت .. واكتحلت العيون بومضة البشرى الحالمة ، وبدأت الرءوس تخف من أثقالها . !

وراحت عينا الرجل تحطان على الوجوه فى غير تحرج . هنا يا أخواتى سنحل كل مشاكلنا ، فالمال موجود ، العمل موجود ، وكل ما تردنه موجود بإذن الله .

دخل عباس وبيده التليفون ، أخبر الحاج قطب همسًا أن معالى الوزير على الخط .

أخذه منه وابتعد قليلاً عن الآذان .

ويعد تبادل عبارات المجاملة ، أخبر الوزير أن شقق برج « التوحيد والنور » تحت أمره ، وأن تشطيبات برج « الهدى » ستنتهى بعد شهرين على الأكثر ، ثم خيره

فيما يفضل ، ولما سمع رأيه ، أمن عليه وحبذه . وفى نهاية المكالمة سأله إن كان المكشوف قد تفاهم معه فى موضوع قطعة الأرض « إياها » وطلب من الوزير موعدًا قريبًا للقاء .

فوعده الوزير ببحث الأمر ، وربنا يفعل الصالح بإذن الله . !

انقطعت الثرثرة وعادت العيون تتطلع من جديد .

وبعد لحظات صمت ، قال الحاج قطب فى تودد ، إنه مستعد لسماع المشاكل الخاصة ، والعاجلة ، لمن تريد منه العون . !

بدأ بأم ياسر ، طلب منها أن تتبعه .. وكانت هناك حجرة زجاجية صغيرة ، تطل على الصالة ، بها مكتب وبعض الكراسى . أدخلها وأغلق الباب .

(٢٠)

سمع زكريا زعيقًا وصراخًا يأتى من شقة دسوقى ، ثم هرولة أقدام وخبط على الباب . !

قام وفتح ، ولأول مرة يرى دسوقى بالفلنة وبنطلون البيجامة ، ومن غير النظارة . !

كان وجهه ثائرًا وأنفاسه مخطوفة .

– أين خالك ، أين السيد المحترم . ؟

عزم عليه زكريا بالدخول ، فاندفع وعيناه تفتشان الشقة

– أين هو .. هه ... أين هو .. ؟

أخبره أن خاله يرجع متأخرًا ، وقد لا يرجع ، فهو ضيف عنده . خطف دسوقى كرسيًا وقعد على باب الشقة .

– سأنتظره هنا ، أعندك مانع ... ؟

رجاه زكريا فى ملاطفة أن يدخل ، ليفهم منه المشكلة .. ولكنه أصر على موقفه . !

فسحب كرسيًا وقعد بجواره ، ثم راح يجره فى الكلام ويهدئه .. وعندما سأله عن أحوال شغله ، فوجئ بثورته وصياحه .. فأحوال الشغل زفت ، وأنه قرر أن يسرح بعربية كشرى أمام المدارس . !

ثم ظل يخبط رجله منحورًا !

– مصاريف ، وتعليم ، وعشرين سنة خدمة ، وأخرتها أطلع مختلس . دسوقى أبو عيطة ابن الأصول ، يلوث سمعته وكرامته من أجل عشرة جنيهات . !

حاول زكريا أن يطيب خاطره ، فنفر منه وصده

ألقى عليهما الشيخ شعبان السلام وهو طالع ، ثم حط على السلم ليرتاح وليعرف حكاية صوت دسوقى الواصل إلى بئر السلم .

– خير يا أولاد .. أبوكم شعبان يريد أن يعرف الحكاية من أولها .

قال دسوقى وهو يقوم ويقعد على الكرسى

– الحكاية لا لها أول ولا لها آخر . قالوا تشتغل أمين خزنة المؤسسة يا دسوقى ، تطلع لك بقرشين ، بدل خزنة وإضافى ، لكى يسندوا مرتبك التعبان ، قلت موافق .

قاطعه الشيخ شعبان ليستفسر عن معنى بدل الخزنة والإضافى ، فتجاهله ، واستمر يتكلم فى عصبية .

– أصل مستندات الصرف كلها تنتهى عندى . فاتورة فيها عشرة زيادة ، أقول اصرف يا دسوقى . فيها عشرين زيادة ، اصرف يا دسوقى الموظف غلبان وعنده كوم لحم . !

لكن عندما تكون المؤسسة خاسرة ، ويقدم رئيسها فاتورة بعشرة آلاف جنيه ، عشاء لخبير أجنبى ، وفاتورة بخمسة آلاف هدايا لأحد العملاء ، وغيره ، وغيره بالآلاف .. فلابد أن يؤدى هذا إلى الشك ، وإلى وجع الضمير ، وأنا ضميرى وجعنى على الآخر . فانفلتت منى كلمة ، كلمة واحدة ، أقامت القيامة . !

جرد مفاجئ للخزنة ، وعجز عشرة جنيهات ، وتحقيق ، وإهمال جسيم ، ونقل لإدارة الأمن .

تدخل الشيخ شعبان متعجبًا

– إدارة الأمن ، نقلو ك البوليس يا دسوقى . ؟

مال عليه دسوقى مغتاظًا ، وراح يفهمه شغلته الجديدة . الأمن يعنى جلوس طوال النهار على البوابة يناكف خلق الله الداخلين والخارجين .. وبعد أن كان يقبض ويصرف ، وطول النهار يعد الفلوس ، أصبح مرميًا على البوابة مثل العمل الرضى . !

ثم صاح وهو يقوم ويقعد فى عصبية .

– أعرفتم لماذا اشتريت لنفسى خزنة ، خزنة ملكى أنا ، تحت تصرفى أنا .

رمش الشيخ شعبان مندهشًا

– اشتريت خزنة يا دسوقى . ؟

ركن دسوقى ظهره إلى الحائط ، وحط رجلاً على رجل

– طبعًا .. أشتريتها من مالى ، وبعرق جبينى .. أصرف منها بما يرضى الله ، وأحط فيها بما يرضى الله .. معقول أرضخ لهم ، أتهاون فى أموال الناس الغلابة . !

تحامل الشيخ شعبان على درابزين السلم وقام

– موضوع هايف ، لا يستحق أن أسمعه من أوله .

بدت على وجه دسوقى علامات الانكسار والهزيمة ، وهو يقلب كفيه أمام عينيه ويتحسر ، أصابعه تستحق اللف فى الحرير ، الكل يعترف بأنها كانت تسبق ماكينة عد الفلوس .. ولكنها الآن شاخت وعلاها الصدأ ، من الركنه ، وقلة الحركة . !

ثم انتبه فجأة وعاد يزعق فى وجه زكريا ، يسأله ويضغط عليه ليعترف ، لماذا راح خاله أنور يغافله ، ويأخذ زوجته أم ياسر إلى الحاج قطب . ؟

(٢١)

مازالت نظرات الضيق واللوم تبدو عالقة بعينى الحاج قطب ، وهو يواجه زوجته انشراح ، والصمت يتمدد بينهما .

جاء الطباخ ووضع طعام الإفطار أمامهما . فى انكسار أنثوى تجاهلت نظراته ، وتناولت شوربة الحمام ووضعتها أمامه ، تعرف أنه يبدأ بها كل وجبة .. ثم تراخت على كرسيها ويداها تتحسسان بطنها .

فى شهية ملحوظة أتى الحاج على السلطانية كلها .. ثم سحب طبق البيض المسلوق أمامه .

سألها لماذا لا تأكل . ؟ فأبدت عدم الرغبة .

وسألها هل جاء الطبيب فى موعده . ؟ فهزت رأسها ولم تتكلم .

أكل بيضتين وبدأ فى الثالثة ، وهى مازالت منكسة الرأس ، تتحسس بطنها وتتنفس فى تثاقل . !

وازنها فى رأسه حتى استقرت كما ينبغى ، فاضطر أن يبدل نظرات الضيق واللوم بنظرات التعاطف والتودد ، وأن يتسامح عما حدث منها بالأمس ، ولابد أن يتسامح ، لكى تطمئنه على أحوال الولد . !

ولمحت هى نظرة التعاطف تناورها وتداعبها ، فأيقنت أن الحيلة خالت على الرجل ، وأنه تراجع ليسترضيها .

كانت المرة الأولى منذ أن تزوجها ، وضمهما سرير واحد ، أن تجرؤ على ذلك ، أن تتمنع على الرجل حين ركبه المزاج جامحًا إليها ، أن تصد سعيه فى إصرار وهو يهم بها وتعطيه ظهرها فى برود ، متأوهة من آلام الحمل . !

كانت مطمئنة أنه راضخ لامحالة ، أنه سيبتلع رغبته فى هدوء ويتركها لحالها .

فهو يريد الولد قبل أن يريدها هى ، يتشوق إلى الاطمئنان عليه فى كل لحظة ، وينتظره بفارغ الصبر . !

انتبهت إليه ، وهو يلح عليها أن تأكل ، وأن تعمل بتعليمات الطبيب ، وأن تهتم بصحتها ، من أجل صحة الولد . !

وبالتدريج ذاب صوته فى أذنيها ، وهى تتطلع إلى فمه ، ولأول مرة تلاحظ أنه كبير ومتسع ، ولا يعجبها شكله . !

وتراءى لها فم الأسيوطى صغيرًا وحنونًا .. لم يكذب عليها ، ولم يخدعها أبدًا ، أما هذا الفم ، فم الحاج قطب ، فقد كذب عليها وخدعها . بل وظل يحاصرها حتى استسلمت ووقعت فيه راضية . !

بعد أن خرج الحاج قطب ، تساقطت الدموع من عينى انشراح ، فقامت .

ومشت إلى أقصى ركن وجلست هناك

بدا الجو متكسرًا فى عينيها النديتين ، والخضرة باهته ، خاملة لا تستجيب للنسمة الطرية .

لم يكن يخطر ببالها أن القطب يكذب عليها .

يغشها ويستخف بوعده لها .. وفى البداية لم تصدق البنت ، ظنتها تلفق الكلام لتدين القطب ، تدعى عليه زورًا لتثبت لأمها سوء نيته ، ولتؤكد لها مدى جحوده ونذالته .

ولكن البنت أقسمت على صدق كلامها ، وأحست هى بهذا الصدق متوهجًا فى عينيها ، يصل إلى القلب ويلامسه .

واحتار القلق فى صدرها .

معقول يتهاون القطب فى حق الأسيوطى ؟

معقول يغدر بالرجل الذى خدمه وعاشره سنين طويلة ، لا يقف فى محنته ولا يفعل المستحيل كما وعدها ، ليثبت براءته ، أو ليخفف الحكم عنه ؟

هل حقًا تركه يلبس القضية بمفرده ويدخل السجن ؟

ولماذا فعل القطب ذلك ؟

هل كان للأسيوطى يد فى تجارة المخدرات ، وأنه استغل عربة القطب فى تهريبها ؟

كلام الأسيوطى للبنت يؤكد أن القطب هو صاحب المخدرات ، وأنه هو الذى وضعها تحت كرسى السائق وهم عائدون من الإسكندرية ، وهو الذى ادعى أمام النيابة أنه لا يعلم عنها شيئًا .

وعادت الدوامة تدور برأس انشراح ولا تفلته .

هل حقًا فعلها القطب متعمدًا ليتخلص من الأسيوطى ، أم أنه اضطر لذلك لكى ينجو هو ويفلت بنفسه ؟

ولكن لماذا أراد القطب أن يتخلص من الأسيوطى ، وقد كان سائقه الخاص وذراعه اليمنى ، كما كان يعترف أمام الجميع .

لابد أنهما اختلفا على شىء خطير .

ولابد أن الأسيوطى كان يعلم الكثير عن أسرار القطب ، بما فيها تجارة المخدرات .. فالقطب لم يكن يتركه إلا لساعات النوم ، بل كثيرًا ما كان يرافقه إلى البيت ليسهرا معًا .

أيامها كان وجه القطب مثيرًا لدهشتها ، ولفضولها . !

فتارة يبدو لها كمغارة سحيقة القرار ، تمتلئ بالغرائب والأسرار ، تدعو وتحذر تناوش صدرها بشكات الرهبة والتوجس .. وتارة أخرى يبدو وجهًا حنونًا متشوقًا ، يناور فى تعاطف ، ويتجاسر فى ثقة .

ولذلك خافت على نفسها منه ، وتجنبت لحظة النظر إليه .

وبدا صدق الانفعال ، واضحًا على وجه انشراح ، وهى تلوم الأسيوطى على سقطته التى أعجزتها ، التى أربكت تفكيرها وألقتها فى ضياع مخيف . !

وماذا كان بيدها أن تفعل ، وقد وجدت نفسها فجأة مسئولة عن البنتين قبل أن تكون مسئولة عن نفسها .

كيف كانت تتصرف والأسيوطى لم يترك لها شيئًا ، ولم يعطها فرصة التماسك والتدبر .

وعاد التساؤل المنهزم يرفرف فى القلب ، يلامس الجرح المتقيح ويدميه ، لماذا طلقها الأسيوطى ؟

كيف هان عليه أن يطعن كرامتها بهذه القسوة ، وأن يضطرها مرغمة لركوب الصعب ؟

(٢٢)

شال بركات عبد الهادى حجرًا وحطه بجوار السور وطلع عليه ، كان يريد أن يتأكد من شكل الكلب فى النهار ، نظر بين الأشجار ، وحول مبنى الجراج ، وتحت تكعيبة العنب ، ولكنه لم يجده .

ورأى منصور عبد الجبار جالسًا هناك ، اصطاد عينيه وهما ترقبانه من خلف الجريدة ، ثم تتجاهلانه فى إصرار .

تأكد أن الرجل يدبر أمرًا .. وإلا فلماذا لم يعاود طلب الخرطوم ، ولماذا لم يلمح حتى لمشكلة الكلب ، أو يعاتبه على محضر البوليس ؟

الغريب أنه لم يبد أى رد فعل لكل هذا ، ويجلس هناك صامتًا ، يخطط لهجوم مباغت ، يرد به اعتباره .

آه لو يعرف متى وكيف يكون هذا الهجوم . ؟

سمع صوت لهاث يأتيه من جانب السور ، شب على أطراف أصابعه وأمال رأسه ، رأى كشكًا صغيرًا من الخشب ، ملتصقًا بالسور ، أسفله تمامًا ، وكان الكلب قاعدًا أمامه ، ينظر إليه باستخفاف .

لحق بركات نفسه وتماسك قبل أن يقع ، ابتعد عن السور بسرعة .

استقبلته عفاف بنفس السؤال ، فأخبرها أن المسئولين حفظوا المحضر ، لعدم توافر الأدلة المادية والشهود .. تم تركها تدير اسطوانة الثورة والخبط والرزع ودخل الحمام .

خلع ملابسه ووقف فى البانيو .

كان يفكر فى اقتراح صديقه همام ، يبدو معقولاً ومنطقيًا ، يرتفع بالسور بينه وبين منصور عبد الجبار مترًا أو مترين فتنتهى المشكلة ، وبطريقة سلمية .

ولكن هل سيسكت الرجل ويتركه فى حاله أم سيعتبر ذلك تحديًا لذاته ولقدراته .

أحس بقطرة ماء تسقط على رأسه من الدش ، كانت باردة وناعمة .

ثم تسقط قطرات ثانية ، كانت ناعمة ، ولكنها لم تكن باردة .

وسقطت ثالثة ، ولم تكن باردة ولا ناعمة .

الرابعة كانت دافئة ، والخامسة ساخنة ، ثم توالت القطرات كالجمر ، أحس بها تثقب عظام الرأس ، وتصل إلى النخاع .

ارتعب ، وحاول أن يبتعد فلم يستطع .. حاول أن يحرك الرأس بعيدًا فلم يستطع .. وضع يده على رأسه ، لا فائدة ، القطرات تثقب اليد وتصل إلى النخاع ، تدخل من نفس الثقب ، إلى نفس المكان ، تلسعه ، تكويه فى إصرار !

استجمع قواه وقفز من البانيو مستغيثًا ..

(٢٣)

ظلت فايزة تتقلب مسهدة فى سريرها ، تطرد وجه عباس عن خيالها ، ثم تعود فتستدعيه راغبة .

كانت تلوم نفسها ، كيف أعطته الفرصة أن يقترب منها ، وأن يرى بوادر الاستجابة تشف فى عينيها ، تتعاطف مع مشاعره نحوها وتباركها ؟

كيف طاوعتها نفسها أن تستميل رجلاً تعرف أنه يلازم القطب ويتعلق بأذياله ؟

فى البداية راودتها الفكرة .. وهى تراه يسعى إليها كل يوم ، متحايلاً على مراقبة القطب ومشاغل العمل ، مختلقًا أذكى المبررات والمصادفات لكى يوصلها بنفسه ، من المعهد إلى البيت .. ثم وهى تلمح عينيه تتعلقان بها فى مرآة العربة ، وتودعانها فى تشوق عند باب البيت .

فكرت .. ما دام الرجل قد وقع فى حبها لهذه الدرجة ، فلماذا لا تستفيد من هذا الحب ؟ لماذا لا تطوعه على هواها حتى تصل به ؟ ثم تنساه بعد ذلك ؟

وبالفعل راحت ترخى له حبال الأنثى قليلاً ، ثم طلبت منه أن يدبر لها زيارة للسجن ، لكى ترى أباها الأسيوطى .

وكان لها ما أرادت فقد استجاب عباس ، ونفذ ، خاطر بكل العواقب وانصاع لأميرة القلب .

وبعدها وجدت نفسها تفكر من جديد .. فالواقع أنها لم تستنكر جب عباس ، ولم تصده بل على العكس تمادت فيه ، وأرخت له مزيدًا من حبال الأنثى .

وفى هذه المرة أرادت أن تعرف الحقيقة كاملة من فم عباس ، لأن أباها الأسيوطى أشفق عليها فلم يقل الكثير ، لم يطاوعه لسانه وهو يرى حزنها فنسى هم نفسه وراح يطيب خاطرها وينصحها .

وعلى الرغم من مجاهدة عينيه للهروب منها ، إلا أنها تأكدت من حصار تساؤل مؤلم ، يغور فى أعماقهما ويتململ حائرًا ، بينما يستطلع أبوها أحوال أمها .

أخذت الوسادة ووضعتها على وجهها .. فعاد وجه عباس يشاغل خيالها ، رأته رجلاً حنونًا ، يقترب فى تشوق ليضمها ويحنو عليها ، ثم متوجسًا يحذرها ويخاف عليها .. والشفتان مزمومتان على الحقيقة ، على السر ، وتحرصان على ألا ينفلت من بينهما أبدًا .

(٢٤)

عاد القطب يلتقط صورة الحكم ويمعن النظر إليها .. ثم يلقيها على الترابيزة وقد بدا وجهه منفعلاً .

لم يكن الحكم فى حد ذاته هو سبب الانفعال ، فإزاله عشرة أدوار من برج التوحيد والنور وغرامة مليون جنيه ، لم تكن هذه الأمور لتثير غضبه ، أو حتى لتحرك شعرة من رأسه .

ولكن الشيء الذى أزعجه ، وأثار غضبه ، هو جرأتهم على التحرش به ، واستهانتهم بشخصية القطب ومكانته .

امتدت يده إلى التليفون ليكلم الوزير ، فكر أن يلومه وينبهه من غفلته ، فماذا يعمل هناك على كرسيه ، إن لم يظل يقظًا واعيًا لمثل هذه الهفوات الشنيعة .

ثم ما معنى العلاقة القائمة بينهما ، إن لم تكن مجدية فى مثل هذه الظروف ؟

تراجعت يده عن التليفون . ثم امتدت إلى الدرج وسحبت ملفًا . تطلعت عيناه إلى كشف الحاجزين فى برج التوحيد والنور ، فانبسطت ملامحه ، وهو يتأكد من معلوماته ، ويبارك بعد نظره ، على أنه اختار لأقارب الوزير شقتى الدور الخامس عشر ، ولابن المحافظ شقة فى الدور الثامن عشر .

وهز القطب رجلاً على رجل وهو يتساءل فى سخرية .

– أرونى كيف تنفذون حكم الإزالة يا غجر .

دخل رمزى القرموطى رئيس الحى ، وعاد المحلاوى مسئول تراخيص المبانى ليستطلعا ما يريده القطب .

وعندما دخل فى الموضوع ، اعترفا صراحة بأن المهندس مدكور هو سبب المشكلة ، لأنه لم يتفاهم معهما من البداية ، فيما يتعلق ببرج التوحيد والنور ، كما لم يبد أى استعداد لتغطية الإكراميات المتعارف عليها ، لتسليك العملية فى مراحلها المختلفة ، كما حدث بالنسبة للأبراج السابقة ، وقال رمزى القرموطى بأنه اضطر لإصدار قرار الإزالة من مدة ، لأنها مسئولية ، ولكنه إكرامًا لعيون الحاج قطب عمل بأصله ، ولم يتخذ أى إجراء تنفيذى ، حفظ الموضوع برمته فى ثلاجة المجلس ، لحين التوصل إلى الحل المناسب .

ثم طمأن القطب فى ثقة ، أن رئاسة الحى لن تتحرك إلا إذا تورطت بالفعل ، وهى لن تتورط أبدًا بإذن الله .

وسكت القرموطى لحظات ، بينما يختلس النظرات إلى وجه القطب .. ثم قال بطريقة تؤكد مكانته الخطيرة .

وحتى إن حدث لاقدر الله ، فالحل عندنا أيضًا فكما تعرف فكلها شكليات ، مجرد شكليات وحبر على ورق .

تساءل القطب وهو يصوب إليه عينيه .

– ومن الذى أبلغ النيابة .

وضحك القرموطى باستخفاف .

نحن طبعًا يا حاج ، أنت سيد العارفين ، نحن نبلغ ، ونحن ننفذ الأحكام ، ونحن نجمد المواضيع ، حتى يفكها صاحب القدرة بمعرفته .

ناوله القطب صورة الحكم ، فقرأ بغير اهتمام .. إزالة عشرة أدوار وغرامة مليون جنيه . ثم اعتدل فى كرسيه وأشعل سيجارة بالولاعة الذهب ، وقال فى جدية .

– خذ الكلام المفيد يا حاج ، من جهة إبلاغ النيابة وخلافه كان لابد أن نبلغ ، أما من جهة تنفيذ الحكم وخلافه ، فهذا كلام آخر ، كلام يخصنا نحن .

تساءل القطب فى حسم

– والمطلوب ؟

قال القرموطى بصوت ناعم

– إعط أحباءك نصف مبلغ الغرامة ، يتركون لك النصف الآخر والعشرة أدوار المخالفة .

أبدى القطب تعاطفًا مع موقف الرجلين ، واستجابة لاقتراح القرموطى ، وبعد أن خرجا ابتسم ساخرًا ، فليس القطب من يقع تحت رحمة الأمر الواقع ، لن يدفع قرشًا ، ولن يهدم طوبة من برجه ، مهما حاولوا .

أما مدكور .. فسيكون له حساب خاص معه ، ولن يتركه يفلت بما فعل . وأحس القطب أن عباس كان محقًا عندما حذره منه ، وأنه كان من المفروض أن يتخلص منه ، قبل أن يغيب فى رحلة الحج .

(٢٥)

سمع زكريا كلامًا كثيرًا ومتضاربًا حول الحاج قطب ، كان زملاؤه بأرشيف السجل المدنى بالشهر العقارى يتسامرون بسيرته الشهية ، كلما سقط اسمه بينهم ، على أية ورقة أو وثيقة ، تدخل أو تخرج من الإدارة ، بعضهم كانوا يمدحون الرجل فى حماس وتعاطف ، ويشيدون بخدماته وأخلاقه التى يغمر بها الصغير قبل الكبير ، والبعض الآخر كانوا يؤكدون أنه رجل أفاق ، انتهازى ، يتلون فى براعة متفردة ، ويحتال على فرائسه حتى يوقع بها فى شراكه ، ثم يمتصها على طريقته ..

انشغل زكريا على خاله أنور وساوره القلق .

فهو يتردد على الحاج قطب يوميًا ، ولا يأتى من هناك قبل منتصف الليل .. لذلك قرر أن يجره فى الكلام وأن يذهب معه إلى هناك ، ليرى الرجل ، ويتعرف على جوه بنفسه

تراخى أنور على الكنبة وراح يدخن ويكح ، كان الإرهاق على وجهه يتركز حول العينين طلب من زكريا أن يقعد بجواره لكى يخبره بموضوع التاكسى .

اندهش زكريا لمبادرة خاله غير المتوقعة ، فلقد سبق أن سأله مرارًا عن عربته التاكسى ولكن كان يراوغ فى زهق ، وتكلم أنور .

– كنت لا أود أن أوجع دماغك بمشاكلى ، ولكنها طلعت فى نافوخى الآن أحكى لك ما حصل ، لكى تتعلم ، لكى تعرف كيف تحمى نفسك من ذئاب هذا الزمن . !

المهم ، من حوالى شهر خرجت بالتاكسى مبكرًا كالعادة ، ركب معى أول زبون وقال محكمة إمبابة بسرعة يا أسطى ، رأيته يخرج دوسيها من شنطته ويقلب فيه ،

كانت الشوارع مزدحمة بشكل فظيع ، وكان هو يرفع عينيه لحظة إلى الزحام ، ثم ينفخ فى غيظ ويعود لأوراقه ..

قلت الصبر طيب يا أستاذ ، فحشر الدوسيه فى الشنطة وألقاها .. مش باين . قلت أعوذ بالله ، وحاولت أن أهرب من الزحام إلى الشوارع الجانبية ولكن إرادة ربك فوق كل اعتبار لا أعرف كيف « زرجن » الموتور فجأة وقطع النفس ، نزلت وفتحت « الكبود » وهو يلاحقنى فى عصبية إيه يا أسطى ؟ جرى إيه للعربية يا أسطى ؟

كان الماء يغلى فى الردياتير وأحد أسلاك البوجيه مخلوعًا من مكانه .

قلت خمس دقائق حتى يبرد الموتور ونمشى .

رأيته ينظر الىَّ بغيظ ثم يجرى إلى شنطته ويحاول أن يوقف تاكسيًا آخر .

قلت بركة يا جامع .. وأعدت السلك المخلوع وأدرت العربة فدارت ، وقبل أن أتحرك بها فوجئت به يفتح الباب ويرتمى على الكرسى .

يعنى دارت .. المحكمة بسرعة وبعدها نتفاهم .

أغاظنى طريقته فى الكلام ، قلت أتوكل على الله وأرميه من العربة ، بعد أن أعطيه درسًا فى الأخلاق ، ولكنى رجعت وقلت الطيب أحسن .

بعدها بخطوات فردة الكاوتش نامت .

حكمتك يارب ، الكاوتش جديد يا خلق ..

ونزلت لكى أرفع العربة ، فنزل ورائى هائجًا زاعقًا .. حاولت أن آخذه بالذوق والتفاهم ، ولكنه أطال لسانه وقل أدبه .

المهم ، شتمته وأمسكت فى خناقه لأضربه ، ولكن أولاد الحلال باعدوا بيننا ، وهو يزعق بكل صوته .

أتركونى ، أنتم لا تعرفون من أنا ، والله والله لأجعله يسف من تراب الأرض .

وفوجئت به يهجم على الشنطة ، أين الشنطة يا لص ؟

وبعدها رحنا القسم يا سيد زكريا ؟

وهناك أُهين خالك آخر إهانة ،، اتضح أن الرجل وكيل نيابة ، وأن الشنطة كان بها أوراق هامة .

وطبعًا كل من فى القسم أراد أن يجامل وكيل النيابة على حسابى .. س و ج ، ومحضر ، وخذه يا شاويش تفاهم معه على جنب لكى يقر ويعترف .. وعنها ، ثلاثة أيام فى الحجز شربت فيهم المر ، وفى النهاية خرجت بقضية .

رحت أبحث عن العربة فى حوش القسم ، فوجدتها كوم خردة ، عليها نمرة عربتى .

ووضع أنور كفيه على وجهه لكى يدارى دموعه .

أخذه زكريا تحت ذراعه ، وراح يطيب خاطره ، ويحاول أن يبتعد عن الموضوع .. لكن أنور أصر على أن يكمل كلامه .

– آه لو تعرف كيف كان حالى يومها .

فلولا لطف الله وحده لارتكبت جناية ، وفعلاً كدت أدلق البنزين على بقايا العربة وأشعل فيها النار .

بعدها ، رأيت المأمور يخرج من مكتبه ومعه الحاج قطب ، كان يوصله إلى المرسيدس الحمراء ، الراكنة بجانب عربتى ، وأحسست أنهما صديقان ، فقلت فرصة ولكى أريهما حالة العربة ، ولكى أقع فى عرض الحاج قطب لعله يتشفع لى عند المأمور .

وفعلاً دخلت عليهما فى جرأة ، العمر واحد والرب واحد ، قلت كل ما عندى وارتحت .

دعك أنور عقب سيجارته فى الطفاية ، وهو يتنهد بكل صدره .

– ربك كريم ، الحاج قطب أنقذنى من يدى المأمور ، وأخذنى معه فى المرسيدس إلى بيته .. كانت أول مرة أرى فيها الرجل ، ومع ذلك لا استطيع أن أصف لك ، كيف أن كلامه أراحنى كل الراحة ، وجعلنى أحط دماغى وأروح فى سابع نومة .

خالك كان تعبان يا زكريا ، كاسن ميتًا من التعب .

(٢٦)

رن جرس التليفون ، وفوجئ بركات عبد الهادى بصوت اللواء منصور عبد الجبار يداعبه مترددًا ، ثم يدعوه فى تشدد أن يتفضل عنده ليشربا القهوة معًا ... ثارت عفاف وهاجت ملامحها وهى تعترض طريقه ، هددت بترك البيت إن هو ذهب هناك ، وحط يده فى يد هذا البنى آدم القذر ..

وعلى الرغم من عدم ارتياح بركات عبد الهادى لهذه الدعوة ، وارتيابه فى طريقة كلام الرجل ، إلا أنه حاول أن يقنع عفاف بوجهة نظره ، فلابد أن يأخذ ويعطى مع هذا القذر ، لكى يعرف ماذا يضمر لهم ، فقد اتضح أن أسلوب الإستعانة بالشرطة لا يجدى مع هذا الصنف ، لا يمكن أن يقيهم شره .. فلماذا لا يجرب أسلوبًا آخر ، لعله يريحهم من استفزازه وتربصه بهم .

لم يعجب عفاف الكلام ، وتمادت فى ثورتها ، واتهمت زوجها بالجبن .. فمعنى أنه يذهب إليه صاغرًا ، أنه خائف منه ، أنه يذل كرامته ويتمسح به ، وطبعًا سينتهز هذا النذل الفرصة ليركبهم ويهز رجليه .

كان منصور عبد الجبار جالسًا بالقرب من الكلب ، يتأمله فى إعجاب وهو يلتهم قطع اللحم المسلوق ، يجرش العظام فى نهم ويزوم .

تردد بركات عبد الهادى عند باب الحديقة ، وفكر فى الرجوع .. التقطته عيون منصور عبد الجبار ولم تفلته ، ثم سحبته إلى الداخل مسلوب الإرادة .

– لا تقترب من كلب يأكل .. وإلا .

ولوح منصور فى وجه بركات بأصابعه محذرًا ، ثم ضحك فى استخفاف .

جلس الرجلان عند حوض الزهور .

وبدت بقايا شعاعات الشمس تنحسر عن أطراف الأشجار .

وراح العسكرى الخدمة يغسل « البيجو » فى همة ملحوظة ويرشها بالخرطوم .

– قهوتك زيادة .. صح ؟

هز بركات رأسه مستجيبًا ، وهو يبتلع دهشته قبل أن تفاجئ الوجه ، حتى القهوة عرف أننى أشربها زيادة .

وماذا عرف أيضًا ؟

لابد أنه عرف كل شىء عنا ، وضعنا تحت المراقبة المكثفة وتوصل إلى كل المعلومات والأسرار التى تكشفنا أمامه .

راحت ساق منصور عبد الجبار تهتز على الأخرى ، بينما يطلب القهوة بجهاز لاسلكى كان موضوعًا على الترابيزة .

جاءت الخادمة ووضعت أمامهما صينية القهوة فى حذر شديد ، ثم استدارت ورجعت مسرعة . نظر منصور إلى الصينية ، ثم التقط حصاه وألقاها على ظهرها فتوقفت وتطلعت إليه ، أشار لها أن تحضر كوب ماء آخر ، فهزت رأسها فاهمة .

– أصلها خرساء ، وإذا أعطتك ظهرها ..

وقطع كلامه بضحكة ساخرة ، بينما يخبط كفًا على كف . !

ثم التقط سيجارة من العلبة المارلبورو وأشعلها .

– أعرف أنك لا تدخن .. صح ؟

سرت الدهشة إلى ملامح بركات وغمرتها ، سبقته قبل أن يتمكن منها فتضاحك ، لعله يستر شيئًا منها .

– يبدو أنك تعرف كل شيء يا منصور بك .

تطوح منصور بكرسيه إلى الخلف وهو يضحك منسجما

– حاشا لله أنا أعرف ما أريد فقط .

ثم راح يتكلم فى تواضع ، وأنه رجل ودود ، مجامل ، يحب أن يسأل عن جيرانه ، وأن يتقصى أخبارهم ، متمنيًا أن يقف إلى جوارهم عند المحنة ، وأن يشاركهم سعادتهم عند الفرحة .. ولذلك فقد أخذ على خاطره من صديقه بركات ، لأنه لم يشركه فى فرحته بعمرو ابنه الذى حصل على بكالوريوس الهندسة بامتياز ، ولم يعطه فرصة القيام بالواجب نحوهم .

تاه الكلام من بركات ، أحس أن الرجل يورطه فى الغلط ليتسلى عليه .. فكر أن يعتذر ، لسوء التفاهم الذى حدث ، بخصوص موضوع الكلب ، ومحضر البوليس بأنه كان سحابة صيف ، عكرت الجو قليلاً ولكنها لم تصل إلى النفوس ، ولم تؤثر فيها .

وقبل أن ينطق بكلمة ، أعفاه منصور بإشارة يده ، وطلب منه أن لا يعتذر ، وأن ينسى كل ما فات ، لأنه نسيه هو بالفعل ، فقلبه الأبيض لا يسمح أبدًا لذرة من الشوائب أن تعشش فيه ، مهما كانت صغيرة ومهما كانت حقيرة !

أيقن بركات أن الرجل يقتحم أفكاره فى سهولة ، بل ويلمح له بهذه المقدرة الفذة فى مكر ناعم ، راود نفسه وهو متوجس .. كيف يتوقف حتى عن التفكير أمام هذا الداهية ؟ وفوجئ بصرخة حادة تقتحم أذنيه فانتبه مفزوعًا .

احتارت نظرته المستطلعة ، بين المبنى ووجه منصور عبد الجبار ،

أربكه أن الرجل لم يبد أى أهتمام وكأنه لم يسمع شيئًا ، كما أن عسكرى الخدمة ظل منهمكًا فى تلميع العربة ، ولم يتوقف ، ولم يلتفت إلى مصدر الصوت .

فكر بركات أن ينسحب ، وهمّ فعلاً بالقيام ، ولكن الصوت عاد يقتحم أذنيه ، شهقات متلاحقة ، وأنين مكتوم يخفض بالتدريج ويذوب .. تساءل فى تخوف

– عندكم . ؟

هز منصور رأسه مجيبًا . سرح لحظات ثم مال على بركات وهمس فى تأثر ، أن حالة البنت تقلقه . !

وسكت فى ترقب حتى سأله بركات السؤال المتوقع .

– خير إن شاء الله ، مالها . ؟

أشعل منصور سيجارة ، وقد بدا مهمومًا وهو يتكلم .. قال إنه عاش حياته الوظيفية مغمورًا فى ضباب الشك ، والحذر ، والتربص . يفتقد الصديق المخلص ، الإنسان الذى يحس بقربه ودفئه وأصالة معدنه ، ويرتاح إليه ، ويطلعه على أسراره وهمومه الشخصية ، بدون حرج ، أو تردد .

ثم فاجأ بركات بسؤال مباغت .

أتظن حقًا أن منصور عبد الجبار احتاج لخرطوم مياه من عندك . ؟ أو أن كلبه كان يجرؤ على عبور السور إليكم بدون إذنه . ؟

انزعج بركات .. تساءل وهو يتململ فى كرسيه .

– ماذا تقصد يا منصور بك . ؟

– أقصد أننى أتحرش بك .. لقد تأكدت أنك الرجل الذى أبحث عنه ، الإنسان الذى أطمئن إليه ، وأستطيع أن أتخذه صديقًا حقيقيًا لنفسى ، وعندى أن الغاية تبرر الوسيلة . !

تبلد تفكير بركات أمام هذا المنطق العجيب .. وراح الشك ينسج خيوطًا متقاطعه فى رأسه ويتعبه . !

ماذا يريد الرجل منه بالضبط . ؟

وهل هو يحتاج فعلاً إلى صديق حقيقى كما يدعى ، ولماذ الآن بالذات ، وبعد كل هذا العمر ، وهذا المنصب . ؟

ثم لماذا اختاره هو لينال شرف صداقته ، ألم يجد إنسانًا مناسبًا غيره يصلح لهذه المهمة الخاصة . ؟

هزه منصور بيده الكبيرة .

– أين كنت ألا يعجبك كلامى . ؟

تساءل بركات مستخفًا ، ألم يجد سوى طريقة التحرش هذه لتكون رسول المودة بينهما . ؟

فأسرع منصور مؤكدًا فى ثقة ، أنها أضمن وأسرع الطرق لبلوغ الهدف ، فما محبة إلا بعد عداوة .. ثم إنه لا يعرف غير هذه الطريقة .

وربت على يده وهو يطمئنه أن الأمور هكذا تسير على ما يرام .

ثم رجع إلى موضوع البنت هبة ، ابنته الوحيدة .. وراح يتكلم فى انفعال ، وكيف أنه أحاطها بكل الحرص والرعاية ، وضعها بين عينه ويده ، وليحميها من غابة البشر .. وبعدها اكتشف مؤخرًا أن شابًا مستهترًا كان يلاحقها ، كان يستغفله وينصب شباكه من حولها ، حتى أوقعها ولوث سمعته . !

ثم ألقى بنظرة مستطلعة إلى بركات ، وكانت الدهشة تنسحب على وجهه ، وتربك أى تعليق يهم به لسانه .

أمسكه منصور وهزه ليستحثه على الكلام .. طلب منه المشورة فى هذه الواقعة الخطيرة ، بصفته صديقه وكاتم أسراره .

وقبل أن ينتظر إجابته ، دق الترابيزة فى عنف وهو يقسم أن سيتصرف بطريقته الخاصة مع الشاب ، وأهله ، وكل من يتشدد له . !

حاول بركات أن يلطف الجو ، وأن ينسلخ فى هدوء من إبداء أية مشورة لا يعرف عاقبتها .. فلم يكن يتخيل ، أن يجرؤ أحد على مجرد الاقتراب من ابنة هذا الرجل . !

لذا فقد لاذ بالنصيحة المجردة ، وأخذ يوصى منصور بالتروى ، ومعالجة مثل هذه الأمور بالحكمة واللين ، لعله يصل إلى نتيجة أفضل .

ناوله منصور كوب الليمون وهو يقول فى غيظ .

– لا أعرف كيف استطاع أن يؤثر عليها ، أن يأكل عقلها ويسلبها إرادتها بهذه السهولة . ؟

ثم التقط حصاة وألقاها على ظهر الخادمة ، فتوقفت مستطلعة .

أشار لها بيديه ، فهزت رأسها واتجهت إلى العسكرى الخدمة ، بدت عيناه تلتمعان فى سعادة وهو يتمطى بصدره العريض ، بينما يومئ إلى هناك ، حيث الرجل والمرأة يتفاهمان .

– كانت ترغبه فزوجته لها .. ما رأيك .

وراح يرتشف من كوب الليمون بصوت خشن .. ثم مال على بركات ، وقال فى مرارة مرسومة ، وهو يعود لموضوع ابنته فجأة .

– المصيبة أنه جارى ، الحيط فى الحيط ، وأهله ناس طيبون .. آه لولا ذلك ما ترددت لحظة .

دار الكلام بسرعة فى رأس بركات فانتبه متوجسًا ، وتعلقت الكوب فى يده .. الحيط فى الحيط . !

وبدت الابتسامة الصفراء تنفر من الضوء الباهت ، المتساقط على وجه منصور من العامود المقابل .. قال وهو يدير إصبعه على حافة الكوب .

– نعم ابنك عمرو ، للأسف كان ينط السور ، ليلتقى بالبنت هنا ، فى حديقتى .

تجمد بركات فى مكانه ، وتعلقت عيناه بوجه منصور فأمسكهما بكل الحرص .

قال وهو يتلاعب بملامحه بطريقة غريبة .

– عندى الشهود جاهزين ، والصور أيضًا .. هه ما رأيك يا صديقى . ! ؟

(٢٧)

كان الاجتماع فى مكتب الحاج ، لوضع اللمسات الأخيرة فى خطة الاستيلاء على قطعة أرض الأجرودى ، بمدينة نصر .

نكس الحاج قطب رأسه ، وقال فى أسى ، إنه مضطر لأن يفعل ما سيفعل ، وبهذه الطريقة ، لأنه تعب كثيرًا ، وبذل كل الجهد ، لكى يحصل على قطعة الأرض المناسبة لإقامة مشروعه ، القومى ، الخيرى .. ولكنه فشل ، إما بسبب الارتفاع الفاحش فى سعر الأرض وجشع ملاك وسماسرة أهل الحى ، وإما بسبب الروتين والتعقيدات التى يضعها المسئولون والحاقدون فى طريق المشروع .

ثم راح يحذر الرجال ويشدد عليهم ، أن ينتبهوا جيدًا ، وأن يتخذوا كافة الاحتياطات ويتجنبوا كافة الثغرات ، مهما كانت صغيرة ، أو تافهة .. لكى لا يقعوا جميعًا فى المحذور . !

وسكت الحاج لحظة ، ثم تطلع إلى الوجوه فى ارتياح وواصل كلامه .. قال إنه بعد أن يتم المشروع ، وتظهر ثماره ، ويغمر أهل الحى بخيراته ، عند ذلك سيعرف كيف يواجه المسئولين ، ويضطرهم إلى الوقوف بجانبه ومساندته .

تبادل الرجال نظرات متميعة ، تلمح لعد اكتراثهم بهذه المقدمة الروتينية الساذجة ، وأنهم يبتلعون تبريرات الحاج قطب بمزاجهم ، ومادامت هذه الرتوش لا تؤثر على الحسابات المادية البحتة ، فلا بأس أن يجمل كل منهم دوره فى اللعبة على هواه . !

لذلك ، ومن أجل إحكام الحبكة الدرامية ، فقد بادروا بالتأمين على كلام الرجل ، وباركوا تفانيه المخلص من أجل الصالح العام ، وعاهدوه على الوقوف بجانبه ، قلبًا وقالبًا . !

فتح فهمى عرفات أمين عام السجل المدنى بالشهر العقارى حقيبة ، وأخرج بعض الأوراق .. قال وهو يتعاجب بنفسه ، إنه رجل الأفعال ، رجل المهام المستحيلة ، شعاره أن يعمل فى صمت ، وأن ينهى المواضيع فى سرعة وإتقان . لذلك فقد أنجز المفيد ، وما على السادة الأخوة إلا أن يمدوا أياديهم إلى أنجر الفتة . !

تداخل رمزى القرموطى رئيس الحى فى الكلام ليؤكد مكانته فى إنجاح اللعبة ، ودوره الفعال فى موقعه منها .. وعليه فقد طلب من فهمى عرفات أن يشرح له خلفية الموضوع بالتفصيل .. من هو المالك الحقيقى لأرض الأجرودى ، ومتى أعلن أن هذه الأرض معروضة للبيع . ؟

ابتسم فهمى عرفات فى استخفاف ، ثم رفع يده بالعقد ، وصرح بأن أرض الأجرودى قد آلت ملكيتها إلى السيدة انشراح إبراهيم الأنصارى ، زوجة الحاج قطب ، بموجب هذا العقد الرسمى ، الموثق بالشهر العقارى ومنذ عشر سنوات تقريبًا . أما عن خلفية الموضوع ، وبالتفصيل ، فسيدلى بها فيما بعد .

ثم وضع العقد أمامهم وتراخى فى كرسيه .

انتبهت عيون الرجال ، وهم يغرقون فى صمت مفاجئ ، وتزاحمت فى رءوسهم كل الاحتمالات ، بناء على الوضع الراهن . !

أخذ العقد عادل المحلاوى مسئول تراخيص المبانى ، وفحصه بعين الخبير .. ثم هز رأسه مقتنعًا .. وفعل مثله رمزى القرموطى ، وهو يختلس نظرات ماكرة إلى وجه فهمى عرفات .

فى اللحظة الحاسمة ترك الحاج قطب مسبحته ووضع قبضته على العقد ، ثم قال فى تأن

– نصيب كل منكم مليون جنيه .. يعنى أرنب بالتمام والكمال .. وطبعًا شهادة تقدير من المسئولين .. بمجرد وقوف المشروع على رجليه .

ثم سكت قليلاً ليستمتع بوقع عرضه عليهم . !

هدأ التوجس فى صدور الرجال فانتشت ، واطمأن الصخب فى رءوسهم فاعتدل المزاج .

مليون جنيه لكل واحد . !

وعندما باغتهم الحاج بمد يده .. هه نقول على بركة الله . ؟

مدوا أياديهم بلا تردد .. على بركة الله .

وتماسكت الأيدى فى حماس .

أخرج الحاج قطب ثلاث حقائب من تحت مكتبه ، ووضعها فوقه ، وهو يقول – لكل واحد شنطة .. نصف مليون بصفة مبدئية .. والنصف الآخر فى الطريق بعون الله .

امتدت الأيدى الشرهة واستحوذت على المال ، وضمته فى لهفة إلى الصدور .

بعدها تحررت الألسن من كل المحاذير ، وراحت تستمرئ المداهمة الرخيصة بين يدى ولى النعمة ، الحاج قطب . !

اقترح رمزى القرموطى إرسال البلدوزرات وعربات النقل فى الغد ، لهدم أسوار الأرض ، وتشوين مواد البناء بداخلها .

وقال عادل المحلاوى فى حماس ، إنه سيتخذ فورًا إجراءات إستخراج رخصة المبانى .

دق جرس التليفون .. فانشرح صدر الحاج قطب ، عندما عرف من المأمور ياسر الشاهد أن الخطة تمت بنجاح ، وأنهم قبضوا على أبو العيون متلبسًا ، وتم مصادرة شقته ببرج التوحيد والنور ، وإغلاقها بالشمع الأحمر . !

تعمد الحاج أن يرفع صوته ، وأن يحاصر رد الفعل على الوجوه ، بينما يهنئ المأمور على كفاءته الفذة ، وحكمته ، وتفانيه فى عمله .. وأيضًا على ترقيته المتوقعة فورًا بمشيئة الرحمن . !

(٢٨)

سمع زكريا صوت خاله أنور ينادى فى بئر السلم فأسرع إليه . وجده يدور حول عربة تاكسى جديدة ، وعيناه تبوحان بفرح طفولى .. وعندما رآه أخذه فى أحضانه وقال وهو متأثر .

– ربنا فرجها من أوسع أبوابه ، خالك رجعت له الحياة يا زكريا ، تعال ، انظر ، عربتى الجديدة .

ثم أخذه من يده وظل يدور به حول العربة ، مستعرضًا شكلها ومميزاتها فى زهو .

ثم أدخله فيها ليجرب مقاعدها المريحة .

وبعد أن صعدا إلى الشقة ، حكى أنور الموضوع بمزاج رائق . وفوجىء به زكريا يعود إلى سجيته المرحة التى افتقدها منذ أن جاءه .. قال أنور وهو يتربع على الكنبة ويتلذذ بكوب الشاى .

نصحنى الحاج قطب أن أبيع العربة القديمة ، وأدفع ثمنها مقدم عربة جديدة من بنك ناصر . الرجل الطيب ابن الأصول هو الذى ضمننى بنفسه ، وهو الذى كلم المسئولين فى البنك ، فمشت الإجراءات آخر حلاوة ، وبقدرة قادر استلمت العربة فى يومين اثنين ، أتصدق يامؤمن هذا الكلام . !

لم يهن على زكريا أن يحرم خاله من فرحته بالعربة الجديدة ، وكان قد عزم على أن يفاتحه فى موضوع الحاج قطب ، ويحذره من خطورة الاقتراب الشديد منه ، ويوصيه بأن ينتبه جيدًا لمناورات الرجل ، وألاعيبه التى سمع عنها .. لذلك فقد

آثر أن ينتهز فرصة اعتدال مزاجه ، ليجره فى الكلام ، ويعرف منه موضوع الجاز الذى يشربه ، لعله يقنعه بالكف عن هذه العادة المضرة . !

وبالفعل لانت الأمور .. وراح أنور يتكلم .

أول ليلة قضاها فى التخشيبة كانت ليلة قطران .. المكان المقرف ، والرائحة النتنة ، ووجوه المتشردين وأصحاب السوابق . كل ذلك جعله ينكمش فى الركن مرعويًا ، أول مرة فى حياته يحس بأن جيفة فظيعة تملأ جوفه ، ولا يستطيع أن يلفظها ، من أعلى ، أو من أسفل . !

جاءه رجل يشبه أهل الكهف وجلس بجانبه .. راح يطيب خاطره ويصبره على بلواه .. قال له أنا عاكف ألا تعرفنى . ؟ عاكف آكل النار يا جدع . انظر إلى وجهى وأنت تعرفنى .. أخذونى مرة فى التليفزيون لأعرض لعبتى فى برنامج حكاوى القهاوى ، وبعد أن لعبت بالنار وأكلت عشر شعلات أمام الكاميرا ، صفقوا لى وقالوا كلامًا كبيرًا .. أنت معجزة زمانك ، أنت تراث الأجيال ، أنت مصيبة من مصائب العصر .. وثانى يوم يا مبارك ، ثانى يوم بالضبط ، أخذونى فى البوكس . قلت جايز يكون بوكس التليفزيون وتفرج بقرشين . !

وعنها يا مبارك لقيتهم نزلونى هنا .

إيه الحكاية يا خلق . ؟

قالوا عرض على النيابة ، أنت متهرب من ضريبة المبيعات . !

ياناس أنا لا أبيع ولا أشترى . !

قالوا أخطرناك مليون مرة ، بأوراق رسمية على محل سكنك .

يا بهوات أنا ألقط رزقى من الشوارع ، وسكنى ضاع من زمان . !

قالوا الأوراق الرسمية تثبت أن مهنتك فنان كبير ، وأنك تعرض فنك فى أجهزة الإعلام . أتنكر أنك تظهر فى التليفزيون . !

وعنها .. ألقونى هنا يا مبارك حتى يظهر لى صاحب . !

ثم سكت عاكف وبان عليه الألم ، فسكب بعض قطرات الجاز فى كوز الماء وشرب ، وتجشأ ، ثم ناول الكوز لأنور ، ونصحه أن يشرب الجاز ليطهر جوفه من جو التخشيبة وأهلها ، وإلا خرج منها محمولاً على الأعناق . !

دق الباب ففوجئ زكريا بدسوقى أبو عيطة وزوجته أم ياسر يدخلان ، وكانت آثار السعادة تبدو واضحة على وجهيهما .

وعندما دخلا فى الموضوع ، اتضح أن المرأة قد تمكنت أخيرًا من إقناع زوجها بالذهاب إلى الحاج قطب ، ليحل مشكلته . وفعلاً ذهب ، وقعد مع الرجل ، وحكى له كل شىء .. فما كان من الأمير ابن الأصول ، إلا أن رفع سماعة التليفون وكلم المسئولين ، وثانى يوم كان دسوقى أبو عيطة منقولاً ، معززًا مكرمًا ، إلى وظيفته الأصلية ، صرافًا لخزينة الشركة .

ولذلك فإنهما جاءا إلى أنور ليشكراه ، وليعترفا له بجميله الذى لا ينسى ، على أنه دلهما على الحاج قطب . !

(٢٩)

على الرغم من أن بركات عبد الهادى كان واثقا من سلامة أخلاق ابنه عمرو ، وأنه لا يمكن أن يفعل ما اتهمه به منصور عبد الجبار ، إلا أنه أراد أن يستشف بنفسه وقع تلك التهمة عليه ، لعل شيئا لا يعرفه ، خاصة وأن الرجل يدعى أنه يمتلك الشهود والإثبات التى تدين ولده . !

وفعلا دخل بركات فى حوار طويل مع عمرو ، وتأكد له براءته من هذه التهمة .

قال عمرو أنه لا يعرف أحدا على الإطلاق من أبناء منصور عبد الجبار ، ولا يعرف حتى إن كانوا صبيانا أم بناتا ، وكل ما هناك أن هذا المنصور قابله مرة واحدة فى الشارع ، واختلق معه كلاما عاديا ثم وعده بوظيفة عظيمة بمجرد حصوله على البكالوريوس .

وهاجت عفاف عندما سمعت بالخبر ، وأقسمت أن تذهب لزوج خالتها عبد العليم خضر ، ليتصل بقريبه النائب العام ، فيتصرف مع هذا البنى آدم الخسيس . !

تضايق بركات وركبه الهم .. فلم يكن يستبعد أن يلفق له الرجل تهمة محكمة ليوقعه ويتشفى فيه . ممكن يفعلها ، أمر عادى ، يتلاءم مع تركيبته المستفزة ،، وتفكيره الشيطانى . !

ولكن الشيء الذى أصبح يثقل صدر بركات ، ويربك تفكيره ، هو عجزه عن معرفة ما يريده الرجل منه ، ولماذا يصر على مطاردته بهذه الطريقة المثيرة للأعصاب . ؟

ذهب بركات إلى الحلاق ، وفى نيته أن يتلمس عنده بعض الأخبار ، التى قد تفيده ، وتضىء له شيئا من الطريق الوعر الذى جره إليه هذا الثعلب منصور عبد الجبار . !

وفعلا كان الحلاق كريما كل الكرم ، فقد بادر طواعية إلى الصندوق المقصود ، ووضعه بين يدى بركات ، صندوق منصور عبد الجبار ، الذى يضم أسراره ، تلك التى جمعها فى حرص من أفواه زبائنه الفضوليين ، ولايبوح بشىء منها لغير الأحباء .

ومع طرقعات المقص المتواترة ، وانسياب الموسى على الجلد الناعم ، عرف بركات سر البنت هبة . !

وأصل الحكاية .. أن منصور عبد الجبار كان فى بدايته الوظيفية ، متزوجا من امرأة ثرية من أعيان الصعيد ، وهذه المرأة أنجبت له بنتا وحيدة ، بعد الزواج بأربع سنوات . ثم اختفت فى ظروف غامضة ، وأثارت من الإشاعات ما هو أكثر غموضا حول هذا الاختفاء .

ولكن كان أقربها إلى الحقيقة ، تلك التى ظلت تشير بأصابع الاتهام إلى الزوج منصور . !

وأخيرا حفظت القضية لعدم ثبوت الجريمة ، واستحوذ منصور وابنته هبة على كل ممتلكات الزوجة المختفية . !

بعد ذلك انتقل منصور إلى القاهرة ، وتزوج ابنة رجل معروف ، يحتل مقعدًا خطيرًا فى مركز السلطة . وعن طريق هذا النسب المشرف ، الفعال ، تمكن من أن يستغل إمكانياته وموهبته الفذة ، فى أن يتسلق بسرعة البرق إلى الموقع المرموق . !

وتربت البنت هبة بين شقى الرحى ، بين أب مسعور بأطماعه ، جاف من عاطفة الأبوة ، ناسٍ محنة بنته الوحيدة ، وزوجة أب قاسية بطبعها . وزادها عدم القدرة على الإنجاب قسوة وحقدا على البنت ، لدرجة أنها تركت الفرصة لأحد كلاب

منصور الشرسة ، لكى يتحرش بالبنت ، ويهاجمها فى حجرتها المغلقة ، فكان أن أصيبت بمرض الصرع ، عض على رأسها ، وامتص عودها ، وحاصرها فى وحدة مضنية ، ليهاجمها فى نوبات هياج مرعبة ، ويفترسها بين حين وآخر . !

وعندما أفاق أبوها أخيرا ، وتحركت فى صدره بقايا من نوازع الرحمة ، حاول أن يعالج البنت ، ينقذ ما يمكن إنقاذه منها . !

ولكن الوقت قد فات ، فلم يأت العلاج بنتيجة ملموسة .

بدأ بركات يستوعب الموقف .. وينكشف حقيقة الصرخة التى سمعها فى بيت منصور عبد الجبار . وفى نفس الوقت يتأكد من براءة ولده . فالبنت مريضة ، منعزلة ،

لاتتجاوب مع دنيا الناس ، ولادنيا العواطف .. وبالتالى فالرجل منصور كاذب كل الكذب فيما ادعاه ، وفيما يحاول أن يلصقه بعمرو . !

إذن لماذا يحاصرهم الرجل بهذه الطريقة الحقيرة . ؟

لماذا يفترى على الولد ، ويدعى أنه يمتلك أدلة إدانته ، والإيقاع به . ؟

أتراه يمكر ويدبر لكى يزوج البنت للولد . ؟

هلى يسوقنا إلى مصيدة الأمر الواقع ليتصرف فينا على هواه . ؟

ممكن يفعلها ، فهو رجل فظيع ، لا يتورع عن أخس الأساليب ليصل إلى هدفه ، وليستحوذ على مصلحته .

ومصلحته الآن هى أن يزوج البنت ، يتخلص منها بطريقة شرعية ، تخرس ألسنة اللائمين ، وتخدر صحوة ضميره المريض . ؟

(٣٠)

اطمأن الحاج قطب وانشرح عندما عرف من الطبيب ، الذى يداوم على مباشرة زوجته يوميا ، أن حالة الحمل مستقرة ، وأن الجنين ينمو بشكل طبيعى ، وبالنسبة لأشهر الحمل الأولى .. ولكنه عاد يتوجس عندما أوصاه الطبيب بمراعاة الأم انشراح ، وبذل مزيد من الاهتمام بصحتها ، لأنه يلاحظ توترا يشوب حالتها النفسية ، مما قد يؤثر على صحة الجنين .

ناوله الحاج قطب مظروفا سخيا ، وطلب منه أن يستعين بمن يشاء من الأطباء المتخصصين ويأتى بهم إلى هنا إلى البيت .

ثم بادر إلى انشراح ، يلاطفها ويقترب إليها ، يجس نبضها فى مداهمة ، لعله يعرف ما يعكر صفوها . !

ولكنه فوجئ بها تبكى فى مرارة ، وتستحلفه أن يتركها لحالها .. أما من ناحية الولد ، فقد وعدته أن تأتى به ، وستفى بوعدها .

لم يرحه كلامها وأحس أنها تخفى شيئا يضايقها ، فاستهداها بالله ، وعاد يحاول معها فى ملاينة وتودد ، يسترضيها بسخاء وصبر .. فإن كان الأمر يتعلق بها ، فهو رهن إشارتها فيما تطلب ، ومهما تطلب . وإن كان يتعلق بالبنتين فهو على استعداد أن يعطيهما ما يكفل لهما حياة طيبة طوال عمرهما . !

ولأنه كان يفهم جيدا طبيعة انشراح ، وأنها لا تتحمل ضغطه الملح عليها ، ولاتصمد أما إصراره ومناوراته ، فقد ظل يحاورها ، ويعدها ، وهو فى داخله يؤمن سلامة الولد ، ويتمنى أن يحصل عليه فى أقرب وقت ، وبأغلى تضحية . !

وأخيرا كان ما أراد . فقد عجزت انشراح عن مقاومة ضغطه ، خافت إن تمادت في موقفها ، يهيج ويقلب الدنيا عليها وعلى ابنتيها ، كما فعل من قبل . !

لذلك تكلمت ، بينما وجهها يرتعد من الانفعال .

إنها لم تعد تريد شيئا لنفسها ، فقد ارتضت أن تتزوجه عن طيب خاطر ، رغم اعتراض البنتين ، ورغم علمها أنه تزوج الكثيرات غيرها ، وأهم من كل ذلك ، رغم تأكدها أنه أرادها من أجل الولد . !

وبكت انشراح وهي تعترف بمدى إخلاصها له ، وتفانيها في إرضائه وراحته منذ أن دخلت بيته ، وعاشت تحت جناحه ، حتى إنها ظلت تدعو له في صلاتها ، أن يحقق الله أمله ، ويهبه من يحمل اسمه ، ويمد له في شجرته .

ولكن الأمر الذي يؤرقها ، ويجعلها تأخذ على خاطرها منه ، هو إهماله لقضية الأسيوطي ، والد البنتين ، وكان أن وعدها بطلب إعادة المحاكمة ، وتبرئة الرجل . !

ثم اشتد بكاؤها وهي تبوح له ، أنها تسعى لذلك من أجل مستقبل البنتين ،

لأن وصمة العار تظل تلاحقهما وتهددهما مالم تثبت براءة أبيهما . !

ولم يتركها القطب لتكمل .. فقد نفرت ملامحه فجأة ، وتمددت هامته في استعلاء ، وراح يزعق ويدق بيده .

فكيف تجرؤ على التفكير في رجل آخر وهي على ذمته ؟

ألا تراعي كرامته وشرفه ؟

أهذا كلام زوجة عاقلة ، مخلصة كما تدعي . !

ثم إن الأسيوطي لبسته التهمة ، ودخل السجن من مدة ، فماذا يفعل لها . ؟

– اسمعي يا انشراح ، الأولى والأخيرة أسمعك تفتحين هذا الموضوع ، وإلا فستندمين كل الندم ، والولد أنت مسئولة عنه من الآن . !

ثم خرج وأغلق الباب فى عنف .

لم تعرف انشراح لماذا يثور هكذا ويكسر بخاطرها . ؟

ثم ما الذى فعله الأسيوطى ، فجعله لا يطيق سيرته ، أو حتى سماع اسمه . ؟

جاءت حسنية وارتمت على أمها وهى غاضبة . شكت من أختها فايزة ، لأنها تخرج كثيرا مع عباس ولا تأخذها معها .

انتبهت انشراح مفزوعة ، وأمسكت البنت وهزتها .. ماذا تقولين . ؟

(٣١)

الدنيا كلها هنا ، فى عينيها ، تناديه وتفتح ذراعيها ، لتأخذه ، لتضمه وتنحو عليه .. وهو متشوق أن يضع رأسه ويرتاح ، بعد طوال المشوار ، وطول المعاناة . !

أرخت فايزة عينيها وابتسمت ، لم تستطع أن تتحكم فى عواطفها ، وأن تقاوم دغدغة النظرة المتعلقة بها ، المبتهلة فى محراب صدرها .. وأحست بكل مناوراتها تنهزم ، وتتداعى عن رأسها ، وتودعه فى طواعية .. فيصفى ، ويستجيب للهمس الناعم ، المناسب من عينى عباس .

وواصل عباس كلامه

كان يريد أن يبوح بكل ما عنده ، يفرغ محتويات صدره بين يديها ، فتختار منها ما يرضيها ، وتلقى بما تعافها . !

قال إنه بعد موت أبيه ، مرضت أمه وطال رقادها .. فعز عليهم القرش واشتدت بهم الحاجة .. ولم يعد أمامه إلا أن يترك مدرسته ويعمل أجيرا فى قريته ، ليطعم أمه وأخته .

ولما ماتت الأم ، وسافرت الأخت مع زوجها ، لم يعد له فى القرية ما يبكى عليه ، فتطوع فى قوات الأمن المركزى ، ليبتعد عن المكان ، وأهله ، وذكرياته . !

ويوم أن جاء إلى القاهرة ، لم يحمل إلا صرته الوحيدة ، المملوءة بآلامه ، وأحزانه ، وغربته . !

فألقاها مختارا فى جب الطاعة العمياء ، التى آل على نفسه أن يحتمى بجوفه ، من كل ما يتربص به من عواقب لا يعرفها .

المهم فقد ظل فى الخدمة ثلاث سنوات ، مثالا للعسكرى المطيع لرؤسائه ، الخاضع للأوامر الميرى ينفذها كما أنزلت ، بلا تفكير ، وبلا وعى .

وجاء يوم ، وجد نفسه يفيق فجأة على شىء رهيب ، أفزعه ، وملأ دماغه غيظا واستنكارًا . !

فلماذا يزرعونه دائما فى مواجهة الجماهير ، وظهره إلى الموكب الذى يمر بالشارع ، أو إلى الاحتفال الرائع ، أو إلى ماتش الكرة المثير . ؟

لماذا يفرض عليه أن يترصد العيون المتطلعة ، والأكف المصفقة ، والهتافات الصارخة ، ليحرم من متعة الفرجة على موكب الرئيس ، أو على روعة الاحتفال ، أو على حماس تسجيل الجون . ؟

أبدا .. لن يكون بعد اليوم . !

وأحس بلحظة الرفض ، تلفظه خارج الجب ، وتوقد فيه حماس الوعى ، وحتمية اتخاذ القرار .

لابد أن يتفرج على موكب الرئيس ، كما يتفرج عليه كل هؤلاء الخلق .

بل لابد أن يرى الرئيس شخصيا ، ويلوح له بيده ، وليكن بعد ذلك ما يكون . !

واستدار .. وبكل الإصرار .

أعطى ظهره للجماهير ، ووجهه إلى موكب الرئيس .

وهب عباس فجأة ، وبدون وعى ، ليمثل لفايزة كيف فعل ذلك ، فضحكت فايزة مندهشة ، ثم شدته حتى لا يلفت الأنظار .

– كانت النسمة الخفيفة تداعب أوراق الشجر ، وترف بشراع الفلوكه الراكنة على حافة الخضرة ، وتشجع رواد الكازينو على المواصلة ، كلا فيما يشتهيه ، ويسعى إليه .. وأخيرا تتسرب إلى صدر فايزة فتريحه ، تلاغيه بصدى الكلمات

ودفء المشاعر ، المتهادية من جهة عباس ، فيستكين الصدر فى سعادة ، ويطمئن إلى أن هذا العباس هو الرجل ، وهو المراد ، بكل نقائه ، وكل تلقائيته .

قالت وقد استهواها سماع صوته ، سماع حكايته .

- .. وبعد أن استدرت . ؟

قال عباس وهو سارح ، أنه لم يعرف كيف سيطر العند والإصرار عليه إلى هذه الدرجة ، ولحظتها أحس بأنه سيقع ميتا ، إن هو تراجع عن موقفه ، أو إن فكر فى عواقب العصيان . !

استدر يا عسكرى عباس .. ولم يستدر .

أتكسر الأمر يا عسكرى . ؟ ولم يستدر ولم يرد .

أنت محبوس يا عسكرى ، سلم نفسك للرقيب حالا .. ولم يتحرك العسكرى من مكانه ، حتى رأى الرئيس بعينيه وأشار له بيده .

تساءلت فايزة فى توجس ، فأجابها عباس باستهانة ، إنهم حكموا عليه بالطرد من الخدمة ، وبسنه سجن ، قضاها صابرا راضيًا .. وعندما خرج ، تعرف على القطب فى مكتب مأمور السجن . يومها لم يجد أى مأوى يلوذ به ، سوى أن يطاوع هذا الرجل ويذهب معه . !

(٣٢)

انسجم القطب من نفسه وهو يناور رمزى القرموطى بطريقة تناسبه . كان يعرف أن الرجل ليس هينا ، وأنه يزن الكلمة جيدا فى رأسه قبل أن يفلتها لسانه . !

لذلك ضن هو أيضًا بالكلام ، وراح يعبث بأوراقه ، ويداعب مسبحته فى تراخ .

وكان كما توقع القطب . فقد اضطر القرموطى أن يتخلى عن تماسكه ، وأن يستجيب لفضوله المتوتر ، الذى شكه القطب فى صدره ، وأخذ يحركه فى مهارة .

تساءل رمزى وهو يبحث عن ثغرة ، يخترق منها خطوط القطب ، ليعرف ما وراءها

– طبعا أنت الذى دبرت كل هذا يا حاج . ؟

وتركه القطب لحظات يعايش ملل الترقب ، ثم تطلع إليه فى استخفاف وقال

– البوليس يا سيد رمزى رجال الأمن ، هم الذين يخططون ويدبرون .

هز رمزى رأسه مؤيدا ، وفى نفسه كان يعلن دهاء الرجل ، ويقتنع بعدم جدوى المواصلة معه ، فهو لن يخترق خطوطه ، ولن يعرف ماوراءها .

وبعد أن خرج ، كان متأكدًا أن القطب لعبها بحرفية شيطانية ، فقد استطاع برمية واحدة أن يصيب ثلاث عصفورات فى مقتل . !

أولا .. أوقف حكم إزالة العشرة أدوار المخالفة ، لحين يمكنه التصرف براحته .

ثانيا .. دعم مركزه عند البوليس وأمام السلطة ، بمساعدتهم فى القبض على تاجر مخدرات خطير . !

ثالثا .. وهو الأهم أنه أفسد على أحبائه فرصة الحصول على نصف المليون ، وأخرجهم من المولد بلاحمص . !

سمع عباس أطراف الحديث الذى دار بين القطب والقرموطى ، بطريق الصدفة ، وفكر فيه ليفهم .

كان كل ما يعرفه ، أن أبو العيون وقع فى أيدى البوليس متلبسا ، أما ماعدا ذلك ، فقد كان غريبا عليه ، مثيرا لفضوله .

وعندما انفرد عباس بالقطب آخر الليل ، وراح يخدر رأسه بما يشتهى أن يسمع ، كلمة عن الجاه والمكانة التى وصل إليها بمجهوده وذكائه العبقرى .

وكلمه عن تزايد محبيه ، الساعين إلى مجلسه ، الحامدين لخيراته وأفضاله .

ثم جنح إلى سيرة ولى العهد المرتقب ، وأخذ يمنى القطب بامتداد شجرته المباركة ، واستمرار نموها وطرحها ، بعد أن طال الانتظار ، وطال التشوق .

وأخيرًا دخل فى الموضوع على حذر .

وفهم القطب ما يرمى إليه عباس ، اكتشف مناورته فى بدايتها فابتسم معجبا ، وأحس بجرأته المشاغبة ، فحن عليه بعينيه مشفقا .

وبدون تردد راح القطب يشرح الخطه التى قام بها .

قال إنه باع لأبو العيون شقة فى الدور الأخير ببرج التوحيد والنور ، ثم دس له المخدرات فى هذه الشقة ، وتحين فرصة تواجده فيها وأبلغ المأمور ياسر الشاهد .

وبذلك وقع أبو العيون الذى كان يضايقه كثيرًا ، وتأجل تنفيذ إجراءات الهدم فى البرج ، لأن شقة أبو العيون المحرزة ، أعلى الأدوار المحكوم بإزالتها .

واستطاع أن يهدى المأمور وجبة شهية على صينية من فضة ، وأخيرا أثبت للقرموطى أنه يعطى ويمنع بمزاجه ، وأن القطب فوق كل المناورات ، وكل الاستغلال الخبيث المدبر .

وعلى الرغم من إعجاب عباس الشديد بعقلية القطب ، إلا أنه كان يشفق على فايزة وأهلها من هذه العقلية ، ويتخوف مما قد يصيبهم بسببها . !

(٣٣)

انطلق البلدوزر الضخم ، يجرى متحمسا بكل قوته ، يكتسح بصوته الهادر المفزع سكون الليل ، ونداء المؤذن لصلاة الفجر ، ومن ورائه طابور عربات النقل تلاحقه وتحتمى به .

بدا أن الهدف كان معروفا ومحددا .. كان أرض الأجرودى . !

وفى لحظات ، وقبل أن ينتبه مخلوق لما يحدث ، كان كل كائن على أرض الأجرودى منهارا ومدكوكا ومستويا بسطح الأرض . السور الخارجى ، والأشجار ، وصهريج المياه ، وحجرة الخفير ، والزير الذى يشرب منه ، واليافطة الكبيرة التى تحمل اسم مالك الأرض . !

وفى لحظات أخرى أفرغت عربات النقل حمولتها . مواد البناء ، والمعدات الخفيفة ، والعمال ، ثم أسرعت لتأتى بالمزيد .. وفورا أقيمت اليافطة الكبيرة ، تحمل اسم المشروع القومى . !

وتحت الأضواء الكاشفة تحول الموقع إلى خلية نحل ، المهندسون يفردون الخرائط ويصدرون التعليمات ، والمساعدون يمدون خطوط الجير ، ويحددون أماكن الحفر ويوزعون خوابير الجس ، ويجهزون خراطيم الشفط وخلافه .

وكان الخفير مرعوبا ، يبحث عن أشيائه بين الحطام ، ولا يجد من يجيبه . !

– إيه الحكاية يا خلق .. من أنتم يابهوات .. هل قامت القيامة . ! ؟

وقبل أن تطلع الشمس ، كانت ماكينات الحفر ، والكباشات العملاقة ، تفترس مئات الأطنان من باطن الأرض ، وتلقى بها ندية هامدة على الحواف !

أخذ عباس الخفير تحت ذراعه ومشى به ، ورأى فيه بعض نفسه فأشفق عليه ، أعطاه فى سخاء ونصحه أن يتوكل على الله ، يبتعد بقدر ما يستطيع عن هذا المكان . ثم جلس على رأس الموقع ، ليتابع الحركة ، ويتواصل مع الحاج قطب ، من خلال جهاز لاسلكى صغير ، يطمئنه على سير العمل ، ويتلقى تعليماته .

كان عباس قلقا ، يفتقد القدرة على التركيز والانتباه ، يشرد لحظات رغما عنه ، فينقطع عن صخب الجو المسعور ، ويعايش صوت فايزة ، ويتراءى طيفها ، وهى تلاغيه على استحياء ، تبوح بأسرارها وآلامها ، وتلتمس منه التعاطف والمساندة فتسرى فى صدره فرحة ناعمة ، تستثير حماسه ، تؤكد مكانته ، وأهميته ، على الأقل بالنسبة لها ، هى ، حبيبة القلب . ! ثم تعود الفرصة فتتخاذل وتنحسر .

هل يستطيع أن يعترف لفايزة بكل ما تريد ، بكل ما تلح عليه وتسعى لمعرفته .. لا يعتقد .. فالحقيقة مرة ، ولن ترتاح إذا عرفتها ، منه أو من غيره . !

بل على العكس ، ستزداد هما وانفعالا ، وحتما ستوقع نفسها بين أنياب لا ترحم . !

هل يكذب عليها ليرضيها ويحل المشكلة . ؟

يبعد الشبهة عن الحاج قطب ، ويعلن براءة ذمته من تهمة أبيها والتغرير بأمها . ؟

إذن سيبدأ علاقته بالتلون والاحتيال ، مع الإنسانة الوحيدة التى طلع بها من دنيا أنكرته وأتعبته . ثم إنها ستعرف الحقيقة يوما ، وقطعا ستعرفها ، وستكتشف أنه كذب عليها وغرر بها ، تماما مثل الآخرين . !

انتبه عباس على صوت الكباشة الضخمة ، وأنيابها تتكالب وتزمجر لتنهش كتلة كبيرة من جوف الحفرة ، ثم ترتفع بها فى بطولية ، وتلقيها على قمة الكوم ، وتعود مسرعة إلى الحفرة .

وهرول إليه أحد المهندسين ، وقال فى حماس أن كلها ساعة زمن ، وتبدأ الخلاطات عملها لصب حصير الأساس .

فكر أن يطلب الحاج قطب ويطمئنه ، ولكنه فوجئ ببعض العمال يجرون ويصيحون ، وبنافورة من المياه تنطلق من جوف الشارع ، الموازى لموقع العمل . !

قالوا إن البلدوزر حطم ماسورة المياه الرئيسية ، دون قصد ، وأنه لابد من استدعاء هيئة المياه فورا .

أسرع عباس يكلم الحاج قطب ، وهو منزعج ، وسأله كيف يتصرف . ؟

وكان أن طمأنه الرجل فى هدوء المعتاد ، ثم سأله عن رمزى القرموطى ، إن كان موجودا عنده . ؟

(٣٤)

ظل بركات عبد الهادى يستمع لزوجته عفاف وهو متمسك ، يتجنب اعتراض كلامها لكى لا يشتعل النقاش ، وتبقى ليلة . !

ولكن عفاف لم يرضها موقفه السلبى ، وراحت تستثيره حتى نطق ساخرا

– إذا كان البوليس بجلالة قدره ، لم يستطع أن يفعل شيئا مع هذا البنى آدم ، فماذا سيفعل هذا الحاج قطب له ، هل سيقرأ عليه عدية ياسين ، أم سيعمل له عملا . !

وإنطلقت عفاف تمارس هويتها ، تطيح زعيقا لا يلتقط الأنفاس ، بينما تتحرك بعصبيتها فى كل الاتجاهات تلوم نفسها على رضائها من البداية بهذه العيشة الهباب ، وعلى أنها أعطت الفرصة له ولأولاده أن يستمرئوا همتها وعافيتها ، أن يلقوا فوق رأسها بكل مشاكلهم وبلاويهم ، وبدلا من أن يعينوها ، راحو يسخرون منها . !

ثم راحت تحاصر بركات بالاتهامات والأسئلة المتلاحقة ، وتؤنبه على تهاونه فى حقوق أهل بيته ، وتراخيه فى اتخاذ الموقف الحاسم مع منصور القذر ليوقفه عند حده ، وإلا ماكان تجرأ عليهم لهذه الدرجة

– أنتركه حتى يلوث سمعة الولد ويفضحنا . ؟

أتنتظر حتى تقع الفاس فى الرأس ، ويتورط المسكين فى هذه البلهاء ، يضيع أمام أعيننا ونحن نقف لنتفرج عليه . ؟

جاء عمرو وتدخل فى الموضوع ، وكالعادة بدأ بأمه ليهدئها ويفهم منها .

قالت إن هذا المنصور قد ركبهم وراح يهز رجليه ، وأن متاهات التفاهم الودى وشكاوى البوليس لم تعد تجدى مع هذا الصنف ، المتسلط بقوته ، المتبجح بها على خلق الله ، والحل الوحيد لكسر شوكته أن يلاقيه من هو أقوى منه ، فيرغمه على التعقل والتراجع .

اقتنع عمرو بكلام أمه وأيدها فيه ، فاسترسلت تكمل ، أن أولاد الحلال نصحوها بالاستعانة بالحاج قطب ، تروح له وتكلمه ، فالرجل من الواصلين ، أصحاب الكلمة المسموعة ، وهو الذى سيعرف كيف يتعامل مع هذا المنصور ، ويلجمه كما ينبغى .. وذهبت إليه ، لم تنتظر لحظة ولم تتراخ كما يفعل أبوه فى المواضيع الحاسمة ، وكان أن قابلت الحاج قطب بنفسها وتكلمت معه .. ياسلام ونعم الرجال .

تساءل عمرو عمن يكون هذا الحاج قطب ، وماذا قال لها . ؟

فتمايلت برأسها ، وفى عينيها سخرية تتطاير إلى وجه بركات .

سترون .. سترون قريبا جدا ، ماذا سيفعل الحاج قطب .

(٣٥)

فى مكتبه كان الحاج مشغولا على آخره .

يتابع أحداث أرض الأجرودى عن طريق جهاز اللاسلكى ، ويعطى تعلمياته لعباس أولا بأول لكى يتصرف . ثم يفكر لحظات ويتصل بالمكشوف ، يطلب منه الاتصال بنسيبه رئيس هيئة المياه ، ويؤكد عليه أن يبادر بإعلان حالة الطوارئ فى الهيئة ، ولحين إصلاح الماسورة المكسورة ، وطبعا الأتعاب على الحساب الجارى . !

ثم يفكر لحظات ويتصل برمزى القرموطى ، وينبه عليه أن يكون مستعدا لكل الاحتمالات غير المتوقعة ، وأن يتواجد بنفسه فى موقع العمل .

وقبل أن يعاود التفكير ، فوجئ بالوزير يطلبه على الخط السرى ، ويسأله على الشقق التى أوصاه عليها ، ثم يلمح بما يحدث على أرض الأجرودى ، وأخيرا يطلب إليه أن يزوره فى مكتبه ، ليدردشا فى بعض الأمور .

وبعد أن وضع السماعة ، شرد منه الفكر دون وعى ، وطار إلى حيث انشراح زوجته .

فرواده القلق من تصرفاتها الأخيرة . إعراضها عنه بالتمارض ، والشكوى المستمرة من آلام الحمل ، وانفرادها أغلب الأوقات بابنتها ، حتى وهو معهم فى البيت . ومازاد وغطى ، ذلك « النزناز » الذى ركب رأسها أخيرا ، وراح يشغلها بالنبش فى سيرة الأسيوطى ، ومحاولة إثبات براءته . !

والمصيبة أنها تنتظر منه .. هو .. أن يقوم بذلك . !

يرفع لها القضية ، ويبذل كل ما فى وسعه ، لإخراج الأسيوطى من سجنه .

أتراها تشك فيه . ؟

هل عرفت شيئا عن الحقيقة . ؟

البنت فايزة منظرها لا يريح ، نظرتها الثعلبية الساهية تتسرب إليه وتلاحقه ، تبحث وتناوش فى بجاحه ، توحى بأنها تعرف وتتربص .

ملعون أبوهم كلهم .. المهم الولد ، ابنه الذى بدأ يتحرك فى مكمنه ، والذى سيحصل عليه رغم أنف الجميع ، وسيأخذه فى أحضانه وينطلق به ، بكل فرحته ، وبكل حماسه ، حتى يحتل مكانه الطبيعى ، والذى لن يتنازل عنه أبدا ، فيتجاوز به مقدمة الحيتان ، كل حيتان البلد . !

وشرب الرشفة الأخيرة من فنجانه ، بينما يخطف فكره الشارد ، ليعيده إلى جو العمل ، وبسرعة راوده لحظات ، فلمعت الخطة واستقرت ، فقام فى حماس وانطلق .

كان سكان المنطقة حول أرض الأجرودى متزمرين ، يتصلون بالمسئولين ويستنكرون قطع المياه المفاجئ . !

وعلى غير انتظار ، اقترب الركب المتحمس من الموقع ، تقوده « سارينة » عربة البوليس . !

هاصت الدنيا ، وتدلى السكان من نوافذ العمارات .. يستطلعون ويندهشون .. ماذا حصل . ؟

كان الحاج قطب راكبا الجيب المكشوف ، ومعه بعض رجاله ، يلاحقون عربة البوليس ، ومن خلفهم عشر عربات « فنطاس » كبيرة مملوءة بمياه الشرب ، وعربة هيئة المياه تحمل العمال والمعدات .

وفورًا نزل رجل من الچيب ، طول بعرض ، وفى يده ميكروفون صغير .. وراح يتنقل ويزعق فيه بكل صوته ، وبنغمة مؤثرة .. أن الحاج قطب اتصل فورا بالمسئولين ، وعمل المستحيل لكى تعود المياه إلى مجاريها .. وأن الحاج قطب استصدر أمر فوريا ، بتشغيل خزانات الطوارئ ، لتكون جسرا بريا ، لإسعاف المساجد والمستشفيات والمدارس بالمياه المطلوبة ، وأيضًا المحتاجين من السكان .. وأن الحاج قطب سيظل منتظرا مع الجميع ، حتى يتم إصلاح الماسورة المكسورة .

أسرع عباس واقترب من الچيب مندهشا .. وكان الحاج قطب يلوح بيديه ويبتسم فى تواضع لكل الخلق .. فقد سارت الخطة كما رسم وتوقع ، وفى سرعة البرق ، كان أهل المنطقة يشيدون برجولة الحاج قطب ، وشهامته ، وانتمائه لأهل حيه . !

(٣٦)

تقبلت فايزة ثورة أمها بصدر رحب ، لم تحاول ، ولم تعترض ، وتركت أمها تفرغ شحنة الغضب والاستنكار لكى ترتاح .. ثم أخذتها فى هوادة .. كانت تعرف حالتها النفسية المتوترة ، فتشفق عليها وتلتمس لها الأعذار ، فى كل ما تقول وما تفعل .

لذلك فقد راحت تطيب خاطرها ، وتؤكد لها أنها لا تخفى عنها شيئًا ، وأنها كانت ستبوح لها بحقيقة علاقتها بعباس ، وتطمئنها ، حتى لا يساورها الشكوك فى تصرفاتها .. قالت فايزة إن عباس يعرف كل صغيرة وكبيرة عن الحاج قطب ، وأنه ذراعه اليمين ، وكاتم أسراره ، لذلك فهى تستدرجه لكى تعرف منه ما يعينهم على حماية أنفسهم ، وحفظ حقوقهم ، عندما تحين ظروف المواجهة مع الحاج قطب .

ثم راحت تبوح لأمها بما عرفته من أخلاق عباس ، وأنها تختلف تمامًا عن أخلاق الحاج قطب .

وأكدت لها أنه يعترف ببراءة أبيها ، وأنه يتعاطف معهم ، ويريد أن يساعدهم لإثبات هذه البراءة ، ورفع الظلم الذى وقع عليهم .

واستشهدت على ذلك ، بأنه هو الذى جازف ودبر زيارتها لأبيها فى سجنه

اطمأنت انشراح .. دخل الكلام دماغها فاستراحت ، وإن ظل قلب الأم متوجسا .. فلماذا يتعاطف معهم رجل مثل عباس ؟

أمعقول يكون بدون مقابل ؟

أخذت ابنتها فى صدرها وأوصتها ، وأكدت ، أن تنتبه لنفسها جيدًا ، حتى لاتقع فى الغلط ، مهما كان الثمن !

تكلمت فايزة مع أختها حسنية على انفراد ، توددت إليها ، نصحتها أن لاتتدخل فيما لاتعرفه ، وأن لا تستثير أمها بكلام يزعجها ، حتى لاتتعبها .. ثم وعدتها أن تخرج بها للفسحة فى أيام الأجازة .

وقبل أن تفتح كتابًا . وجدت فايزة نفسها تستحلب كلام عباس ، ويتشربه رأسها فى تمهل .

كان خطيرًا ومحيرًا ماعرفته منه !

لم تكن تتوقع أن أباها ظل يعمل مع المعلم فرس النبى لعدة سنوات ، يقود عربته الخاصة ، ويصاحبه فى كثير من تحركاته ، وهو يعلم أن الرجل من أكبر تجار المخدرات

أكد لها عباس أن أباها عرف الكثير عن المعلم فرس النبى ، بحكم اقترابه منه .. ولكن الأسيوطى كان كتومًا . لاينطق بكلمة تجره إلى المتاعب ، وكان لايتدخل فى أعمال الرجل ، ولايقترب بأنفه من أماكن الشبهة . كل همه أن يعمل بإخلاص ، وأن يتقاضى أجره عن هذا العمل .. ولذلك رضى عنه المعلم فرس النبى واطمأن إليه . لم تستطع فايزة أن تفسر هذا الموقف المحير ، والذى يتنافر مع شخصية أبيها وأخلاقه . ولا أن تجد له تبريرًا يدخل دماغها ، يقنعها بأن أباها الرجل المتدين ، الحريص على سمعته وطهارة يده ، يمكن أن يتدنى بنفسه إلى الخطيئة ، وأن يستمرئ معايشتها والاستكانة فى أحضانها !

يمكن أن يدخل جيبه مال ملوث ، وهو يعلم بذلك ويرتضيه .

وفكرت فايزة فيما قاله عباس عن ظروف تورط أبيها .

يومها كانوا عائدين من الإسكندرية بالعربية ، وعند الاقتراب من إحدى كمائن البوليس أسرع المعلم ووضع لفافة « البضاعة » تحت مقعد السائق ، ولسوء الحظ جاءت الطوبة فى المعطوبة ، فاكتشفت اللفافة ، ولبس الأسيوطى القضية بمفرده .
وتراءى لفايزة وجه عباس صادقًا ومخلصًا ، وهو يقسم بحياتها أنه لايعرف ، إن كان المعلم فرس النبى قد لفق قاصدًا هذه التهمة لأبيها ، أما أن الحظ العاثر هو الذى ساقها إليه :

(٣٧)

وصل الكلام إلى دماغ الوزير فانتبه :

لم يكن يتوقع أن يلقى الحاج قطب بأوراقه أمامه ليلاعبه على المكشوف ، وأن يقطع عليه فى حسم كل سبل المناورة ، متجاهلاً بذلك حيثيته ونفوذه كوزير فى حكومة الدولة . ولأنه يفهم جيدًا أصول اللعبة ، فقد أيقن أن الرجل وضعه أمام أحد الخيارين ، لاثالث لهما ، فإما أن يتنازل عن موقفه ويقبل أن يلاعبه على المكشوف ، فيصبح بذلك ندا له ، الأنف فى الأنف .. وإما أن يتمسك بكبريائه وحذره ، فيرضخ لما يفرضه الأمر الواقع ، مستبيحًا لنفسه حق التدني .

وكان أن قرر الوزير أن يتجرأ على الخيار الأول .

فرد الحاج قطب خرائطه وحساباته على الترابيزة ، وكان الكلام عن قطعة الأرض المتميزة ، والتى استولت عليها الوزارة من سنين ، لإقامة نادى رياضى لأبناء الحى ، وأعاد ما قال بطريقة موزونة ، ليسهل مأمورية الوزير ، ويأخذ بيده إلى الطريق القانونى المشروع :

وبما أن معاليكم ترون أن قطعة الأرض لم تعد صالحة لإقامة النادى الرياضى ، طبعًا للأسباب الفنية والقومية المبينة بعاليه ، وبعد أخذ رأى اللجنة الاستشارية العليا ، ومجلس المدينة ورئاسة الحى ، عمل دراسات الجدوى اللازمة ، لذلك فقد أصدرنا قرارا وزاريا ثوريا ، يقضى ببيع هذه الأرض بطريق المزاد العلنى ، وشراء قطعة أخرى تصلح لنفس الغرض ، تكون أكبر اتساعًا ، وأنسب موقعًا .

هز الوزير رأسه ، وأبدى استخفافًا بتدخل الرجل ، وعبثه الجرىء فى مفاتيح لعبته :

ورأى أن الفرصة قد حانت ، ليلقى بأوراقه هو الآخر ، ويلاعبه على المكشوف أمسك الوزير بعينى الحاج قطب فى جرأة .. وقال .

– أتعرف أن قطعة الأرض هذه تساوى خمسة عشر مليونًا ؟

أدخل الحاج قطب عينيه فى عينى الوزير ، فى جرأة أكثر .

– بل تساوى عشرين مليونًا .. يامعالى الوزير

خلص الوزير عينيه ، وتراخى فى كرسيه اللين . انسجم من اللعب بهذه الطريقة ، وهنأ نفسه على حسن الاختيار .. ثم بادر هو بالتساؤل لوضع النقط فوق الحروف .

– وبعد يا حاج قطب ؟

وألقى الحاج قطب « بالچوكر » ليكسب الدور لصالحه .

– نرسى المزاد عند مليونين ، والفرق بالنصف بيننا .. هه نقول على البركة .

أبدى الوزير تثاقلاً مرسومًا قبل أن يعطى يده للحاج ، حسب نصيبه بسرعة فكيفه الرقم وعدل مزاجه .

– ماشى يا حاج قطب ، على البركة .

دق جرس التليفون الساخن فرد الوزير .

– أهلا يا مكشوف

ثم تهطلت ملامحه وهو يستمع لما يثيره .

– كفى يانمس ، سأرى وأعاين على الطبيعة .

ولما أخبره بوجود الحاج قطب معه ، وأنه قام بالواجب على خير ما يرام .. بادر الحاج قطب ليطمئن المكشوف ، وأخاه أيضًا .

– أخبره أن أتعابه فى الحفظ والصون .

ودق جرس التليفون البارد ، فتمهل الوزير قبل أن يأخذ سماعته إلى الأذن الأخرى ثم ناولها للحاج قطب

- لك ياحاج

اندهش الرجل ، فلا مخلوق يعرف أنه هنا غير عباس :

وكان هو عباس . واعتذر للحاج فى ارتباك على اتصاله غير اللائق .

- ولكن يا حاج البوليس جاء لأخذ أقوالنا ، وأوقف العمل فى الموقع .. كيف أتصرف يا حاج ؟

وبعد أن وضع القطب السماعه .. أبدى فى غير اهتمام تذكره لموضوع هايف ، وطلب من الوزير المبادرة بالتصرف فيه بأسرع ما يمكنه ، وذلك حرصًا على الصالح العام ، وخوفًا على الشقق التى أشتراها لحسابه فى برج التوحيد والنور ، لأهله وأحبابه .

وقبل أن يخرج القطب من مكتبه ، كان الوزير يفكر بعمق ، بحثا عن الثغرة القانونية التى يعطل بها تنفيذ إزالة الأدوار المخالفة ، بينما يده تضغط على الجرس لجمع مستشاريه .

(٣٨)

كان الانفعال مسيطرًا على ملامح إيهاب مكاوى ، بينما الكلام يتدافع من فمه متوترًا .

دخل العسكرى ووضع أكواب الليمون أمامهم ، فبادر المأمور ياسر الشاهد بتقديم كوب إلى إيهاب مكاوى ، وهو يهدئه ، ويطمئنه إلى أن الأمور ستتضح ، وأن صاحب الحق لابد أن يحصل على حقه . ثم قدم كوبًا إلى الحاج قطب ، وأخذ عباس كوبه .. ظل الحاج قطب هادئًا ، يقطر حبات المسبحة من بين إصبعيه ، وعيناه مرخيتان .

وأعاد إيهاب مكاوى كلامه بغير انفعال ، كما طلب المأمور .

قال إن أخاه الدكتور عاصم مكاوى اشترى أرض الأجردوى من ورثته ، منذ عشر سنوات ، وأنه سجل عقدها بالشهر العقارى ، وأقام سورا حولها ، ودق فيها يافطة كبيره باسمه ، وزرع خفيرا مقيمًا على باب السور ، فماذا كان يفعل أكثر من ذلك ؟ وعاد الانفعال يتسرب إلى أعصاب إيهاب مكاوى ويثيرها ، بينما يتساءل بعيون لاتستقر .

– معقول ياناس ، اسألوا الجيران ، اسألوا الخفير ، وارجعوا للشهر العقارى :

سأله المأمور عن الدكتور عاصم مكاوى ، صاحب الأرض ، أين هو ؟

قال إيهاب أنه يقيم حاليًا فى أمريكا ، سافر من سنوات للمشاركة فى مشروع فضائى كبير ، بناء على تكليف من الدولة ، وأنه لايعرف أين يحفظ أخوه بأوراق الملكية .

فكر المأمور لحظات ، ثم راح يتكلم فى رزانه .

كان مدخله لرأس إيهاب أنه وصفه بالرجل المتحضر ، الذى يعرف جيدًا الطرق القانونية لإثبات الحقوق . ثم ناوله العقد الذى أمامه ، وطلب منه أن يلقى عليه نظرة .

– هذا العقد يعطى حق التملك للسيدة انشراح إبراهيم الأنصارى ، بصفتها مشترية للأرض من ورثة الأجرودى ، والعقد كما ترى مسجل بالشهر العقارى منذ عشر سنوات .. فما رأيك ؟

تغير وجه إيهاب مكاوى ، وبدا يتشرب بحمرة الغضب ، وهو يتطلع إلى العقد ، ولا يصدق ما يراه .

– مستحيل .

أشفق عباس على الرجل الموروط ، وعيناه تختلسان النظر إلى سكون الحاج قطب وتلبسته حالة الاندماج التام ، فى شخصية صاحب الحق المفترى عليه ، المظلوم كل الظلم وتضايق عباس .. أحس أنه مشارك بشكل فعلى فى ارتكاب الجريمة ، لأنه يعرف ويسكت ، يعين الظالم على طغيانه .. وأحس أن ضميره الذى استمرأ الخمول والتهاون زمنا عاد ينشط ويتبلور فى صدره ، يوجعه يتململ ويؤكد وجوده ، منذ أن ضم كف فايزة ، واستنجدت رعشة الظلم المهيضة بكفيه .

قال ياسر الشاهد أن سيبادر بإرسال المحضر إلى وكيل النيابة ، لاتخاذ اللازم ، ونصح إيهاب مكاوى أن يتصل فورًا بأخيه ، ليتأكد من بيانات قطعة أرضه، وليثبت حقه مستنديا فيما يمتلك .

فكر عباس أن يستطيع أن ينهى هذه المهزلة بكلمة منه .

يكفى أن يقول أن السيدة انشراح إبراهيم الأنصارى ، لم تكن على ذمة الحاج قطب حين تم توثيق هذا العقد ، وأنها كانت على ذمة الأسيوطى ، السائق الفقير ، فمن أين كان لها أن تأتى بثمن هذه الأرض ؟

وتعجب .. كيف لم ينتبه الحاج قطب لهذه السقطة ، ولم يحسب حسابها . !

ولكن عاد يراجع نفسه ، ويستنكر فكرته .

فمعنى أن أم فايزة اشترت الأرض وهى فى كنف الأسيوطى زوجها ، لكان ذلك إثباتا ماديا لتهمة الرجل فى تجارة المخدرات .

راح إيهاب مكاوى يرجو ياسر الشاهد أن يوقف العمل بالأرض ، حتى يأتى أخوه بمستنداته .. فنطق الحاج قطب أخيرا فى حسم ، وبدون أن يرفع عينيه .

– الأرض أرضى ، وعلى المتضرر أن يثبت عكس ذلك ، ثم هل تتحمل أنت خسارة تعطيل العمل ؟

لم يعلق ياسر الشاهد ، وهز رأسه مؤيدًا كلام الحاج قطب ، وموحيًا لإيهاب مكاوى بأن الكرة أصبحت فى ملعبه ، وأن عليه أن يتصرف فيها .

(٣٩)

انتبه فهمى عرفات وحط على وجهه ملامح دهشة متقنة .

– قل الموضوع من أوله ، وماذا قال لك الموظف بالضبط ؟

أعاد إيهاب مكاوى كلامه بينما يجتر صبره ، قال إنه ذهب بالأمس إلى أرشيف المصلحة وقابل الموظف المختص زكريا عبد الدايم ، ليحصل على بعض البيانات الخاصة بأرض الأجرودى والتى اشتراها أخوه الدكتور عاصم مكاوى ، وسجلها هنا منذ عشر سنوات ، وأن زكريا بحث عن سجل القيد ولم يجده ، فوعده أن يجهز له البيانات المطلوبة غدا .

ولما جاءه اليوم ، وجده مايزال يبحث عن السجل الضائع

فى حماس التقط فهمى عرفات سماعة التليفون ، وطلب زكريا وهو يتساءل مستنكرًا .

– هل قال لك أن السجل ضاع ، سجل القيد ضاع ؟

دخل زكريا مكتب أمين عام السجل المدنى بوجه متغير .

وقبل أن يلقى السلام باغته بعاصفة من الأسئلة المتلاحقة ، بينما يتململ فى كرسيه ، ويهزه متعصبًا بكل أطرافه .

– أين سجل القيد يا أستاذ ؟ هل ضاع حقًا ؟

ومتى ضاع ، وكيف ، ومن المتسبب فى هذه الجناية ؟

ثم لماذا لم تخبرنى فى حينه ؟

تجمد زكريا فى مكانه مذهولاً .. جناية . ! ؟

وأحس بفراغ هائل يتمدد فى رأسه ، تتخبط فيه التساؤلات ويتردد صداها مفزوعًا وتكلم فمه تلقائيًا ، حاول أن يسعفه فى ورطته حتى يتماسك ويستعد لاحتواء الموقف .

قال إن سجل القيد لايمكن أن يضيع ، وكيف يضيع وهو محفوظ فى دواليب مقفلة وأنه سيبحث عنه ويجده ، لابد أن يجده .

تقرب فهمى عرفات إلى إيهاب مكاوى ، ملاطفا ومطمئنا

إعطنا الفرصة يومين أو ثلاثة ، وسأعطيك كل شىء بنفسى ثم قام وأخذه إلى باب الحجرة ، مودعًا فى حرارة .

وحين عاد إلى مكتبه ، بدا وجهه مسطحًا ، وانثال صوته ناعمًا على هواء التكييف ، يلامس رأس زكريا ويتمسح رأس زكريا ويتمسح به .

– اقعد يابنى نحن الآن بمفردنا .. وأنا الوحيد الذى يمكنه أن يحميك .. قل لى بصراحة .. من الذى ورطك فى هذه المشكلة ؟ !

(٤٠)

بدا وجه الحاج قطب متأثرًا ، ينظر فى إشفاق إلى الناس ، ثم يرخى عينيه ويتنهد بعمق . !

قال إنه مضطر أن يصرح لهم بحقيقة الموقف ، لأنهم أهله ، وأصحابه ، وأحبابه ، وفوق ذلك كله ، فإنهم أصحاب المصلحة الحقيقية فى هذا المشروع الخيرى .

كانت الصالتان مملوءتين عن آخرهما وكان الباب الفاصل بينهما مفتوحًا ، لكى يصل كلام الحاج قطب إلى الجميع ، رجالاً ونساءً .

أشار رجل ممتلئ إلى المخبرين الجالسين فى الخلف فتبعاه إلى المطبخ . وتقدم بركات عبد الهادى بكرسيه قليلاً لكى يرى وجه الحاج قطب ، عن قرب .

بينما هم أنور بالمساعدة فى تقديم المشروبات والسجائر ، ليبدى ولاءً ملحوظًا للمكان وصاحبه ، فيكبر فى عينى الحاج ، وينال مزيدًا من الخير والرضى .

قال الحاج قطب أنه تولى إقامة المشروع من البداية ، وبمفرده ، وأنه بذل فى سبيله كل إمكانياته ، المادية والشخصية ، لوجه الله ، ولخدمة أهل الحى .. ولكن للأسف ظهر بعض المغرضين ، الحاقدين من أعداء العمل الخيرى ، فأشاعوا الشائعات ، ودبروا الفتن ، وروجوا لها بأخس الطرق ، لكى ينالوا من المشروع ويصيبوه فى مقتل ! لذلك فإنه يحب أن يطمئن الجميع على سلامة أرضهم ومشروعهم . وحتى يقطع الشك باليقين ، فإنه اتخذ الإجراءات القانونية لإشهار « جمعية الانشراح » المكونة منهم كلهم ، ليتولوا بأنفسهم إقامة المشروع . وإدارته ،

والاستفادة منه ، وأنه جعل قيمة السهم فى هذه الجمعية جنيهًا واحدًا ، ليعطى الفرصة للفقير قبل الغنى ، فى أن يتملك ، وأن يدير ، وأن يكسب .

تحمس رجل وانتفض يهتف بأصالة الحاج قطب وكرم أخلاقه .. وانتفض آخر يشيد بنضاله ضد الظلم والظلمة .

رفع الحاج قطب يده فى مواجهة الجميع ، وراح يستغفر الله بصوت مسموع ، ثم رجاهم فى خشوع أن يكفوا عن الهتافات ، ويعملوا فى صمت ، وأن يكون ولاءهم للمشروع بمحاربة الشائعات المغرضة ، والمساهمة فى رأس ماله ، كل حسب طاقته .

بانت الفرحة عى وجه أم ياسر ، وقالت لجارتها أنها ستشترك بعشرين سهمًا لأن الكلام دخل دماغها .

كان عباس يراقب المسرحية وهو ساهم ، مأخوذ بطريقة الأداء وبتأثير الكلام على الوجوه .. وفى نفسه شهد للرجل بقدرته المستحيلة على قلب الباطل إلى الحق ، وعلى تحويل الضربات الموجهة إليه ، إلى ضربات لصالحه !

قال الحاج قطب إن الأسهم جاهزة للتوزيع ، وأن لكل منهم أن يأخذ ما يكفيه .

ثم مد هامته وقال فى سماحة لامست الأعطاف .. أنه قد أجل تسديد قيمة الأسهم حتى يستعد الجميع ويسددوا على راحتهم .

صاحت امرأة يفرح وجهها .

– الله يعمر بيتك ياحاج

قام الحاج ومشى إلى مكتبه فى رزانة .

فكر بركات عبد الهادى أن يلحق به ، ليطمئن على موضوعه ، ثم أرجأ ذلك حتى يروق الجو قليلاً .

قامت فايزة من كرسيها المنزوى واتجهت إلى الباب الخلفى ، وأسرع عباس ليلحق بها .

تراخى الحاج قطب فى الفوتيه لحظات ، يشد نفسين من الشيشة ، ويجدد نشاطه وصفاء ذهنه .. وفى نفس الوقت كانت أذنه واعية ، تنتقى من الكلمات ما يدخل المزاج ، وتطيح بعيدًا بكل مافيه وجع للدماغ ، وما إن اكتفى بالمفيد ، رفع الحاج يده ليسكت رمزى القرموطى .. ثم تساءل فى حسم وهو مقفل العينين .

– الخلاصة .. هلى وقع مدكور .. ؟

هم رمزى القرموطى بأن يلف ويدور بالكلام ، فأسكته مرة ثانية ، وأصر على تساؤله بطريقة حاسمة .

اعترف القرموطى بأن مدكور لم يقع بعد !

فتح الحاج قطب عينيه وحاصر وجه القرموطى فى قسوة

– مدكور رجل مجرم ، يغش فى المبانى ، ويخالف قوانين الإسكان ، وأنت المسئول ، أنت رئيس الحى ، فماذا تنتظر ؟

لم يسخن الدم فى عروق القرموطى ، ولم تأخذه النخوة للدفاع عن بقايا الكرامة ، كرامة رئيس الحى ، التى اعتلاها الحاج قطب وراح يهز رجليه فى صفاقة .. وكل مافعله أن أبتسم متزلفا ، ليمتص الموقف ، وأى موقف ، مادام صاحبه قادرا على دفع الثمن المناسب !

(٤١)

– كانت الرحلة مرهقة لرأس فايزة أكثر مما يحتمل . !

فقد رأى الكثير ، وسمع الكثير ، حتى امتلأ وثقل عليها .

أسندته إلى حافة السرير ، وأغلقت له منفذى الضوء ، لعله يتحذر ويروح فى غفوة بعيدة ، تقطع صلته بها ، فتريحها منه بعض الوقت !

ولكنه ظل منتبها ، يعاند ، ويجتر محتواه بصوت متواتر ، لايتسرب من أذنيه .. ثم يعيد الاجترار فى دأب مخلص ، لايهمل شيئا ، ولايعفو عن شىء ..

وعاد يتراءى لها وجه الحاج قطب خاشعا فى تواضع ، يحنو على أحلام البسطاء ويسحرها ، يحيلها إلى واقع متجسد ، تكاد تتلمسه العيون والقلوب وعاد صوته يتردد فى أذنيها ، وهو ينثال رطبًا ، بلسمًا على الجروح اللاهثة ، يرويها ويشفيها .

كانت المسرحية التى شهدتها فى بداية رحلتها رائعة الحبكة ، أثرت فيها ، وأجبرتها على أن تشهد للبطل الأوحد بالعبقرية الفذة ، ولولا مباغتة وجهه الآخر القبيح لخيالها ، وصحوتها المفاجئة من تأثير سحره ، لأخذها الحماس وصفقت له مع كل المصفقين !

سألها عباس إن كان أرضاها ما رأت وما سمعت ، فبادر لسانها فى تلقائية عاتبته عليها بعد أن قال وانتهى !

– عباس أنت رجلى الوحيد .. وأنا أريد أن أرى كل شىء ، وأن أسمع كل شىء ، كما طلبت منك .

ورأت أجنحة السعادة ترفرف فى عينيه ، تنطلق حائمة حولها ، تهم بخطفها فى تشوق ، لتحط بها فى بؤرة الحلم الموعود .

واستجاب عباس عن طيب خاطر ، أعطى ظهره لكل شيء وراح يواصل بها الرحلة .. فرأته فى صدر الحى شاهقا فخما ، يتطاول على أقزام المبانى ويستحوذ على نواص أربع ، تتوسد أرصفتهاعربات الشبح السوداء اللامعة .

أحست بقلبها ينخطف فى المصعد وهو يأخذها إلى أعلى ، حيث قمة التوحيد والنور ، وترددت وهى تقترب من السور ، كان الهواء يدفعها ، ويقتحم أثوابها ، ويعبث بما تخفيها . !

ولكنها تجرأت وأطلت ، ومن الجوانب الأربعة ، ويدها تلوذ بيد عباس !

ورأت العالم من تحتها صغيرا ، لاهيا فى سذاجة عشوائية .. ولأول مرة تتلذذ بطعم الهواء النقى يقتحم صدرها ويغسله ، ويناوش أحساسيس جديدة ، تتوالد وتسرى فى الضلوع ، تحمسها وتزايدها إصرارا .

قالت لعباس أنها تريد أن تسكن هنا !

واعترض عباس فكرتها فى حسم مفاجئ ، وهو يأخذها إلى المصعد .

لمحت فى عينيه حرصا يحنو عليها ، وتوجسا من أن يكون رفضه قد ضايقها .. فتحرك فضول الأنثى فيها ، يناوش بسلاح الصمت والانكسار ، ويؤكد قدرته على المناورة ، والوصول إلى ما يشتهى .

وكان أن لامسها دفء أنفاسه ، تتمسح بها . وتسوق كلمات الاعتذار ، والبوح بما يعرفه عن خطورة السكن فى هذا البرج .. وإن اعتراضه كان بدافع الخوف عليها، وكيف لايخاف وهى ..

وعاد فضولها إلى سكونه ، متلذذا بما حصل عليه من عباس .

وحين وصلت إلى أرض الأجرودى ، أحست بها تهتز تحت قدميها ، وتئن فى تواتر .. كانت الآلة الضخمة تدكها فى عنف ، والأضواء مبهرة على همة الرجال ، وهدير عربات النقل ، وحشرجة خلاطات الخرسانة !

وهناك قابلتها اليفط الكبيرة ، فاقتربت لتتأكد .. «مشروع الانشراح القومى ».

وضحكت عينا عباس أمامها فى سخرية ، وهى تسأله .. ثم اعترف بأنه لايعرف معنى كلمة القومى ، ولكنه يعرف جيدا معنى كلمة الانشراح ، وأخبرها لأن عقد الأرض باسم أمها .. فاندهشت ، وانتفض بملامحها تساؤل حائر ، يلوذ متوجسا بوجه عباس .. ولكن لماذا يفعل القطب ذلك ؟

وتكلم عباس ، بدا مترددا أمام تساؤلها ، عاجزا عن إرضائها بالإجابة الشافية .. ولكنه أكد لها أن ما يدور فى رأس القطب لا يمكن الوصول إليه بسهولة.

ضغط الألم على عنق فايزة فرفعت رأسها . فوجئت بحسنية راحت فى النوم والكتاب على وجهها ، شالته ومشت إلى حجرة أمها .. حنت إلى أن تلوذ بدفئها حتى يطاوعها النوم ، ولكنها وجدتها نائمة هى الأخرى بجوار الشرفة ، ولم تشعر بها .. فتراخت أمامها على الفوتيه وراحت تتأملها .

أعجبها جمال وجهها وهو مستكين لضوء الأباجورة الخفيف ، رغم مايبدو عليه من علامات إرهاق لحوح .

التفتت إلى المرآة لتقارن بين ملامحها وملامح أمها . اكتشفت أنها تشبهها إلى حد ما بعيد فابتسمت لنفسها ، واطمأنت على بقايا نضارتها حين تبلغ الأربعين وتكون فى سن أمها .

وعاد يشاغلها كلام عباس ، وهما فى رحلة العودة من مشروع الانشراح القومى ، كانت المفاجأة أن يخبرها بهذا السّر ، وأن يؤكد لها حقيقته !

وأشفقت نظرة فايزة على أمها كل الإشفاق ، بينما رأسها يحط على ذكريات مضت ، عرفت الآن سبب مراوغة أمها ، وتهربها من الإجابة الصريحة كلما سألتها عن سبب زيارات القطب المتكرره لبيتهم وخاصة فى غياب أبيها .

وعرفت أيضا لماذا كانت أمها تدعى المرض فى بعض الأحيان وتلوذ بحجرتها لتتجنب مقابلة الرجل ، ولكى لا تثير انتباه أبيها إذا ما دعاها للترحيب به .

والآن وبعد أن صارحها عباس بأن القطب حط أمها فى دماغه ، فجأة وبإصرار عنيد ولم يخرجها أبدًا ، فراح يلاحقها بزياراته وهداياه .. ولكنها كانت تتجاهله ، وتهرب من تلميحاته ، فزاد تعلقه بها وإصراره على محاصرتها .

قال عباس إن القطب قد باح له فى لحظة صفاء ، أن انشراح هى المرأة الوحيدة التى تزن رأسه ، والتى يمكن أن تأتيه بالولد . ولكن كيف يحصل عليها !

قامت فايزة إلى الشباك تبحث عن الهواء النقى ..

كانت الخضرة ممتدة ونائمة ، تعكس شحوب الضوء فى استكانه رطبة .

إذان فالرجل القطب كاد بأبيها ليستفرد بأمها .

كل الشواهد تؤكد أن نيته كانت مبيتة ، للتخلص من الأسيوطى ، وأن الإيقاع به كان مدبرا ومقصودًا . !

وعلى الرغم مما أبداه عباس من عدم الاعتراف بهذه الحقيقة ، ومحاولته إبعادها عن تفكيرها ، إلا أنها أحست بأن القطب يمكن أن يفعلها .. بل أيقنت أنه فعلها بالتأكيد . !

(٤٢)

انذهش زكريا وراح يتطلع إلى مظاهر الثراء المبهر ، التى تملأ القصر ، وإلى الخلق المتزاحمين فى الصالة الكبيرة يتكلمون ويشربون على راحتهم .

سأله أنور مستطلعا .. أرأيت ؟

لم يكن زكريا يتصور أن القطب وصل إلى هذه الدرجة .. وأن كل ما يقال عنه يمكن أن يكون واقعًا ملموسًا !

لم يكن يهتم بثرثرة خاله أنور ، وعلى إلحاحه المتواصل فى أن يأتى معه إلى هنا ، ليرى بعينيه ، وليجرب بنفسه فائدة السعى إلى الرجل ، والتقرب إلى مجلسه .

اعترف الآن أن خاله كان محقا ، وكان واقعيا فى تفكيره .

ولذلك طاوعه وجاء معه ، جاء مضطرًا ، يلوذ بالقطب ، ويتلمس العون منه ! فقد أصبحت المشكلة أكبر من أن يحتملها ، أو أن يتصرف فى حلها بأية طريقة .

أشار عباس لأنور ، فخطف ذراع زكريا متحمسا وهم به .. هيا .

دق أنور باب حجرة المكتب ، ثم دخل فى حذر ساحبا زكريا وراءه .

وكان الحاج قطب مشغولا بأوراقه ، فتركها وراح يرحب بأنور ، ويستطلع وجه زكريا وهيئته .

– الأستاذ زكريا ؟

فبادر أنور مبتسما فى تودد

– ابن أختى ياحاج .. كلمنى كثيرا لكى يراك .. لكن كله بأوانه ياحاج .ورحب الحاج بزكريا ، وأبدى به إهتماما لما عرف أنه يعمل فى السجل المدنى ..

وعندما حانت اللحظة بادر أنور بتشجيع زكريا على الدخول فى الموضوع .

– لاتنكسف يازكريا .. افتح قلبك لعمك الحاج ، وستخرج من هنا مجبور الخاطر بعون الله .

وتكلم زكريا فى تردد ..

والقطب ينظر إليه من تحت عينيه ، ويستحثه بهمهماته المتواترة على أن يواصل كلامه . وبعد لحظات صمت وتفكير ، تساءل القطب فى استعباط مرسوم ، عن مدى أهمية سجل القيد الضائع ، ولماذا لايعملون غيره وتنتهى المشكلة !

وشرح زكريا ما كان يعرفه القطب ..

فالسجل المفقود هو الوثيقة الأصلية الوحيدة ، لإثبات الملكيات فى فترة محددة ، ومن المستحيل عمل سجل غيره لأنها جناية .

أبدى القطب تعاطفًا مخلصًا ، وهو يجر زكريا فى الكلام .

ولكن زكريا أكد له أنه لاشك فى أى زميل ، فعلاقته بهم طيبة ، ولايمكن أن يكيد به أحدهم ليوقعه فى هذه الورطة الكبيرة ..

وقال زكريا فى تأثر ، إن فهمى عرفات أمين عام السجل ، كان قد أعطاه مهلة للبحث عن السجل المفقود ، فاطمأن وراح يبحث عنه فى كل مكان .. ولكنه فوجئ ..

وفى نفس اليوم .. بتحويله إلى النيابة .. لإجراء التحقيق معه !

وامتلأت عينا زكريا بالدموع ، فنكس رأسه .

بان الانفعال واضحًا على وجه الحاج قطب ، وراح يستنكر ويتململ فى كرسيه.

– ماذا جرى للناس ؟ أعوذ بالله .. حتى المسائل الهايفة ، تحقيق ونيابة وكلام فارغ .

ثم رفع سماعة التليفون فى حماس وهو يتساءل .

– قلت لى فهمى إيه ؟

ولاحقه زكريا وهو يجفف عينيه

– فهمى عرفات ، أمين عام السجل المدنى .

كان أنور منسجمًا ، يتابع جدية القطب فى ارتياح ، ثم يسعى بعينيه ليطمئن صدر زكريا ، وليبرهن له على حقيقة طوق النجاة ، الذى ألقاه بين يديه فى الوقت المناسب !

وانتبه زكريا .. أدهشه أن يطلب من أمين عام السجل المدنى أن يأتيه فى قصره .. وأدهشة أكثر أن يستجيب الرجل ، أن يلبى طلبه هكذا فى بساطة .

وبدأ القلق يستكين فى صدر زكريا ، وعندما خدره القطب بالجرعة المؤثرة .

– لا تحمل هما .. كل المسائل ستكون على ما يرام .

ورفرف قلب زكريا فى صدره !

وبدون وعى ، ساقته عواطفه فهب مندفعا وارتمى على القطب ، واحتضن كفه بين يديه ، وراح يقبلها فى عرفان جياش .. بينما تتعثر بلسانه عبارات الشكر المتلاحقة .

بعد أن خرجا إلى الصالة .. همس أنور لزكريا ، والسعادة تملأ عينيه ، أن الحاج قطب مبسوط منه ، وأنه سيدبر له عملا بعد الظهر ، هنا فى مكتبه .

ولما رآه ساهما يفكر ، قال وهو يدفعه ليجلسا .

– يا شيخ . من يطول العمل عند الحاج قطب .

(٤٣)

لم يكن القطب يعرف عن اللواء منصور عبد الجبار أكثر من فتات الأقاويل المتناثرة ، التى لم تحرك شهوة فضوله ، أو حتى تعلق بأذنيه لحظات . !

ولما اضطر لسماع الشكوى ، وبالتفصيل ، من فم عفاف زوجة بركات عبد الهادى ، انتبه ، واستوعب رأسه الكلام ، فتحركت شهيته ، وراح يسأل ، ويستوضح ، والمرأة تتمادى فى ثرثرتها ، وتصف بانفعال ما عمله فيهم منصور وكلب منصور !

وأعجب القطب بشخصية الرجل قبل أن يراه . فقد تخيل هيئته الصخرية ، وفطن لقدرته ، التنمرية ، على المناورة والمشاغبة ، وأيضًا على التبجح والتسلط ، ولذلك دعاه لمقابلته .

وعندما جاءت العين فى العين ، انسجم القطب ، وهنأ حاسته الفذة على سلامة التقدير والتوقع . فقد بدت تركيبة الشخصية ومواهبها الطبيعية والمكتسبة ، مطابقة تماما لما تخليه ، ولما يبحث عنه .. واقتنع بينه وبين نفسه ، أن هذا المنصور سيكون حائط الصد المثالى ، لتلقى الضربات المتلاحقة ، وتشتيتها ، دفاعا عن أرض الأجرودى ، وغيرها مما يخطط للاستيلاء عليه .. كما أنه يمكن أن يستفيد بعلاقته المتشعبة ، وصلته الوثيقة برجال الشرطة ، عندما تحين الانتخابات ، ويدخل فى صراع جمع الأصوات مع منافسيه !

وتم الاتفاق سريعا بين الرجلين .

وكان من الطبيعى أن يتم ، فكل منهما يعرف تماما ما يريد ، ويعرف أقصر الطرق للوصول إليه !

كما لعبت لغة العيون دورها فى تعرية المستور ، وتقييمه ، وتحديد أبعاده من كل الوجوه .

وفهم منصور دوره وتحمس له ، واقتنع أن يكون حائط الصد لأرض الأجرودى ، واعتبرها فرصة لكى ينشط مواهبه ، ولكى يسترد لياقته فى المناورة والمحاصرة ، بعد أن أثقلها الخمول وأثر على حيويتها .

ثم إن الأجر السخى الذى عرضه القطب عليه ، كان كفيلا بإرضاء غروره ، وبإشاعة الزهو فى صدره ، فلا شك أن الرجل يقدره كما ينبغى لأنه يستحق ذلك بالفعل ، ولأنه يعترف بكفاءته المتفردة لهذه المهمة .

واقتنع القطب أيضا بسخاء الطعم الذى قدمه لمنصور . اعتبره تضحية هينة لصيد عنصر فعال ، لضم رجل متميز لقوته المدافعة .

وبعد أن دس منصور مقدم الأتعاب فى جيبه ، وهم بالانصراف ، استوقفه القطب وبدا يتذكر أمرا عابرا .

ثم تكلم فى إيجاز ، فراح منصور يتساءل بدهشة ضاحكة .

– بركات عبد الهادى ؟ جارى ؟

أيشكونى لك .

هز القطب رأسه فى تأثر مفتعل ، فواصل منصور ساخرا

– أما رجل معتوه ، كنت أتسلى !

قال القطب فى حسم ، أنه لايريد أن يخسر إنسانا بعد اليوم ، سواء أكان معتوها أو متزنا ، وأنه يعتمد على رجاله فى مراعاة هذه السياسة والعمل بها .

تطلع منصور إليه لحظات ، بينما يحاول أن يصل سريعا إلى ما وراء الكلام ، ففوجئ بيد القطب تصافح يده ، معلنة انتهاء الزيارة . !

(٤٤)

– فوجئ بركات عبد الهادى بزوجته عفاف تهرول إليه ، وتسحبه من يده وهى تلهث بكل صدرها .

– تعال .. هيا تحرك .

طاوعها بركات وراح معها .. أخذته إلى السطح ، واقتربت به من السور المطل على ڤيللا اللواء منصور عبد الجبار .

– انظر .. ألم أقل لك أن الخوف بالعين .

ولم يعرف بركات إلى ماذا ينظر .. فسألها مستخفًا .

استنكرت عفاف ضعف ملاحظته .

– يارجل استعمل عينيك جيدا ، ألا ترى إلى أين أخذوا الكلب .. ؟

ونظر بركات إلى الحديقة المجاورة ، فرأى الكلب مربوطا فى السور المقابل ، بعيدا عن السور المشترك بينهم وبين منصور عبد الجبار ، وبجواره الكشك الخشبى الذى ينام فيه .. اندهش بركات .

– أهكذا بسرعة ؟

قالت فى حماس يؤكد ذاتها .

– ألم أقل لك ؟

وفوجئنا بمنصور عبدالجبار يخرج من خلف الجراج ويلتقط أعينهما ، ثم ظل يتطلع إليهما لحظات ويبتسم فى مودة . اقترب قليلا من السور وأومأ إلى مكان الكلب برأسه .

– أيعجبك هذا الوضع يا بركات بك ؟

لاحقته عفاف بصوت مسموع .

– قل له أن يضع كمامة على فمه .

وتردد بركات محرجًا ، وهو يبادل الرجل ابتسامته ، ويهمس لعفاف .

– معقول ياعفاف . !

بدا منصور صاغرًا ، ورأسه يهتز بين كتفيه ، مؤكدًا سماعه لصوت عفاف .

– ممكن .. ممكن يابركات بك .. على عينى .

ثم أمسك خرطوم المياه ، المفتوحة على الزرع ، ولوح به فى سعادة

– ألا تبارك لى .. المياه وصلت .

وبتلقائية رفع بركات يده مهنئًا .

– ألف مبروك ياباشا

فشدته عفاف فى غضب لتبعده عن السور .

– وتقول له ياباشا ، ياشيخ أضعت هيبتنا !

وعندما نزلا إلى الصالة كان بركات غاضبًا .

أثاره أن تشده عفاف بهذا الحمق ، وأن تقطع كلامه مع الرجل .

حاول أن ينفذ فى رأسها ليفهمه أن إظهار العداء لمنصور عبد الجبار بالذات ، يفتقد الحكمة والصواب ، وأنه من الأصلح عدم استشارته ، ومعاملته بحذر حتى تنتهى الأزمة .. ومادام الرجل قد أبدى تراجعه عن مضايقتهم ، فلماذا يقطعون عليه هذه المبادرة ؟

وأخفق بركات كالعاده فى اختراق الرأس الصلب !

كانت المكابرة العنيدة تصد منطقه وتحبطه .

– إذا كان القطب قد حط أنفه فى الوحل من أجل خاطرنا ، فتأتى أنت وتقول له ياباشا .

طبعا له الحق أن يفعل بنا أكثر مما فعل !

ونادت على عمرو فى حماس .

أخبرته أنها كلمت القطب عنه ، وأن الرجل رحب به ، وحجز له مكانًا محترمًا فى مشروعه الجديد .. وأن عليه أن يستعد لمقابلته غدا .

وتنهدت عفاف بافتعال ، لتؤكد مدى معاناتها فى تحمل المسئولية ، ومدى جدارتها برفع كيان البيت .

ثم قالت وهى تلقى بنظرات الاستخفاف إلى بركات

– وأنا التى ستذهب معك ياعمرو !

(٤٥)

– ابتسم الحاج قطب وبدت ملامحه متأثرة ، وهو يتطلع إلى وجه وكيل النيابة ، ويحنو عليه فى سعادة أبويه .

– الخالق الناطق الحاج إبراهيم الخشاب ، الله يرحمه !

كان وكيل النيابة مشغولا بأوراق تزحم مكتبه ، ولما سمع اسم أبيه يأتى على لسان القطب ، انتبه ورفع عينيه ..فبادر القطب .

– أنت أحمد ، مسك الختام .. إيه فين أيامك ياخشاب . !

تخاذلت ابتسامة المجاملة على شفتى أحمد الخشاب ، فهز رأسه مستجيبًا .

كان قد سمع عن القطب كلاما متضاربًا ، لكنه لم يره ، ولم يصل فيه إلى رأى خاص .

أخذ القطب راحته على كرسيه ، وقال فى تلقائية لاتتحرج .

– الخشاب كان يعرف أن قهوتى سادة ، وأنت الآن عرفت .

لم يتقبل أحمد الخشاب بجاحه القطب ، لم يعتد على مثلها ممن يجلسون أمامه ، يترقبون فى حذر وتخوف من وكيل النيابة .. ولكن إصبعه امتد إلى الجرس ليستدعى الساعى .. وعندما أخرج صورة العقد ليدخل فى الموضوع ، بادره القطب بصوت مؤثر .

– أنت لا تذكرنى يا مسك الختام .

كنت صغيرا أيامها ، وكان الخشاب يأتى بك فى صلاة العشاء ، فى الحسين فيسطلك هواء المراوح ، فتحط رأسك فى حجر أبيك ورجليك فى حجرى ، وتروح فى سابع نومه .

ولما لاحظ أن أحمد الخشاب يراقبه فى حيادية ، وهو سارح بذاكرته ، مال على المكتب وقال فى تعاطف .

– أبوك هو الذى سماك مسك الختام ، لأنك جئت بعد أربع بنات ، وكان قلبه مشتاقا للولد .. الله يرحمك ياخشاب .

ووارى القطب عينيه ، لكى لايرى أحمد الخشاب دموعه .

على رشفات القهوة المتأنية ، راح القطب يحبك الصور الخيالية المؤثرة ، لصداقته المتينة بالحاج إبراهيم الخشاب ، أيام أن كان يقيم فى البيت الكبير فى الجمالية ، وكيف أنهما كان متلازمين ومتفاهمين إلى أبعد الحدود . !

كان القطب يستعين بكم المعلومات الوفير ، الذى جمعه عن سيرة الأب ، ليقنع الإبن بصدق روايته .

وفعلا فقد استجاب أحمد الخشاب لذكريات والده ، تركها تلاغى دماغه بحذر حنان مفتقد ، لم يلحق منه سوى بقايا خيالات وأمنيات لاتتحقق . !

وضع القطب فنجانه وتنهد متحسرًا .

– كنت صغيرا أنت ، يوم أن مات الخشاب ، يوم أن راح وتركنى وحيدًا . وتمددت صور الخيال فى دماغ القطب ، واستهواه طواعية الحكى واستجابة المتشوق للسماع .

فقال إنه لم يطق فراق صاحبه ، ورحل إلى طنطا حيث أقام زمنًا ، وعندما عاد لم يجد بيت الخشاب ولا أحد من سكانه .

دخل العسكرى ووضع بعض الأوراق على المكتب ، فانتبه وكيل النيابة ونظر إلى ساعته .. فأحس القطب أن خاتمة الكلام قد حان وقتها .

قال وهو يبدى عرفانًا صادقًا ، إنه إذ أصبح من أصحاب المال والجاه ، فإن الفضل فى ذلك يرجع إلى الخشاب ، فهو الذى نصحه ودله على طريق المقاولات وتجارة المبانى .. ولذلك فإن فى رقبته دينا لهذا الصديق لاينساه ..

ثم تنحنح القطب واعتدل فى كرسيه .

– نعود لموضوعنا يابنى .. أنا تحت أمرك .

انتبه وكيل النيابة وبدأ يركز ذهنه فى الأوراق .. قدم العقد إلى القطب ، وقال إن إيهاب مكاوى سلمه بالأمس للنيابة ، كوثيقة إثبات لملكية أخيه عاصم مكاوى لأرض الأجرودى .

نظر القطب إلى العقد باستخفاف .

– هذه صورة يابنى .. أين الأصل ؟

قال وكيل النيابة إن إيهاب عثر على هذه الصورة فى أوراقه ، وأن أخاه الدكتور عاصم مكاوى سيأتى بنفسه ومعه الأصل ، وعموما فإن النيابة قد رجعت إلى أمانة السجل المدنى ، للكشف عن المالك الحقيقى .

بان الغضب على وجه القطب ، فأخرج مسبحته وراح يفرك حباتها .. قال إنه رجل يحرص على سمعته ومكانته بين الناس .. إنه جاء إلى هنا فقط من أجل خاطره ، من أجل أن يلتقى بابن صديقه الحميم .. أما ما دون ذلك فهو لايهمه على الإطلاق ، ثم هب القطب واقفا يحمل انفعاله .

– اسمع يابنى ، الأرض أرضى ، وأنا صاحب الحق ، ومن يجرؤ على أن ينال من حقى أو سمعتى ، فسأعرف كيف أوقفه عند حده .

وأخذ يد وكيل النيابة ليصافحها فى حرارة .

– أعرف أنك هنا لتؤدى واجبك يابنى ، ولكننا سنلتقى قريبا فى ظروف أفضل

ثم ترك المكتب وخرج ..

(٤٦)

وتملاها وهو مأخوذ . !

كانت أمامه جنة فواحة متألقة ، كتلك التى وعدها الرحمن أحباءه وأصفياءه .

ولم تشبع العينان ، ولم تطرفا لحظة .

فى البداية ترددت اليد فى سعيها اللاإرادى ، إشفاقا على بكارة الجنة ، ونضارة مروجها وحياء أعطافها .

ثم لم يلبث القطب أن أقنعها ، أنه يستحق هذه الجنة ، وبكل جدارة .. وإلا فلماذا وهبها الله له ، وزينها بهذا الفن والجمال ؟

وخرجت خاشعة من صدره الدافى .

– تبارك الخلاق فيما خلق .

فارتجف الجمال العارى خجلاً ، ثم استكان فى عفوية مثيرة .

قال وهو يستمتع بلذة الانتظار .

– ماذا تتمنين من دنيانا ؟

هزت كتفيها وبدت حائرة .. فشجعها بحنان عينيه .

– اطلبى ياحلوة ، إياك أن تفلتى الفرصة من يدك

قالت فى انكسار زاد إثارته .

- الستر .. أتمنى الستر .

دخلت الكلمة مزاجه فضحك وملأ الحجرة

- وأنا عندى وعدى ياحلوة .

واقترب هائما ، ينظر ويتأمل ، وملامحه تزف الفرحة بها .. ومد يديه فى جسارة ، فسرت إلى أشيائه رجفة اللمسة الأولى ، فباركها وتلذذ بها .. ثم راح يطرح العود الخيزرانى النابض ، ويمدده فى حرص شديد ، بعرض الفراش ، ويساوى خصلات الشعر الحرير على امتداد الظهر الناعم ، فطالت أطرافها منعطف الخصر النحيل .

وتراجع بظهره .. وعيناه تجوسان فى كل تضاريس الفتنة .. والتقط شنطته فى هدوء ، ثم عاد يتقدم ، ويجلس على السرير .

فتح الشنطة وكانت مملوءة برزم الفلوس .. أخذ منها وحط على جسم الفتاة . بدأ بالرأس وانتهى بالقدمين حتى غطاها كلها .

- أيكفيك هذا الستر ؟

وظلت رزم الفلوس تنبض فى هدوء فوق الظهر .. وهو ينظر إليها سعيدا ، حتى بلغ التشوق مداه .. قال وهو يتأهب لأخذها .

- هل أدخل جنتى ؟

.. وبعد فترة هياج ومجاهدة ، تكسر خلالها الضوء الوردى وارتمت ظلاله فى كل الاتجاهات ، راح يسبح متزنا فى جو الحجرة ، متلذذا باستعادة أنفاسه ، متمسحا بالجسمين الهامدين ، منعكسا على رزم الفلوس المبعثرة فى كل مكان .

وكانت هى مستكينه على ذراعه .

وكان هو يقبلها فى رأسه مندهشا .. من أين يأتى المكشوف بمثل هذا الصنف ؟

سألها عن اسمها فقالت .. أم الخير .

فابتسم وضمها إلى صدره .

– من أين يا أم الخير ؟

قالت إنها من الواحات ، قرية القصر ، وأنها يتيمة الأبوين ، وأن خالها هو الذى باعها للمكشوف .

التفت إليها القطب متعجبا .

– أتقولين باعك ؟

قالت إنه اعترف لها بنفسه ، لأنه مضطر ، فلا يجد ما يصرفه على أولاده ، ولامست دمعتها ذراع القطب وانزلقت عليها . !

– هل يأخذ المكشوف هذه الفلوس ويتركنى أعود ؟

قام عليها القطب وأخذها بقوة فى أحضانه .

– أنا الذى سآخذك .. أترضين ؟

.. وبعد الفجر كان المكشوف يدق الباب فى حذر .. ثم دخل مبتسما ، ومن ورائه بعض النساء ، يتثاءبن ويسترن أشياءهن بغير خجل .

اقترب من القطب وهمس مداعبا وهو يلوح إليهن .

– الطقم كله تحت أمرك .. ولكن ألا تريد المساعدة ؟

جلس القطب فى وسط السرير ، وبدت على وجهه جدية لم تعتدها النساء منه .

وبعد أن رحب بهن ، طلب منهن الجلوس فجلسن .

قال إنه اختارهن بالذات ليوكل إليهن عملا مهما ، ولأنه يحب لهن الخير ، ولأنه متأكد من قيامهن بهذا العمل كما ينبغى ، لذلك فسيكون الأجر مجزيًا .

انتبه المكشوف ، أحس أن بوادر الكلام لا تطمئن . !

لم يكن يعرف لماذا طلب منه القطب أن يأتيه بطقم النساء بعد الفجر ، ظنها إحدى نزواته المجنونة فطاوعه .

قال القطب إنه تنازلا عن رغبة أهل الحي ، وإلحاحهم الشديد عليه ، فقد اضطر لترشيح نفسه لعضوية مجلس الشعب .. ولذلك ، وبعد أن فكر جيدا ، رأى أن يعتمد عليهن كل الاعتماد في حملته الانتخابية فهن أهله وأحبابه ، وعلاقتهن الوثيقة بكثير من الأصوات الهامة والفعالة ، ستكون لصالح الجميع . تبادل النساء نظرات التعجب . !

فلم يكن يبادر إلى أذهانهن مثل هذا المطلب ، من القطب أو من غيره .. ولكن ما إن وجدت كل منهن رزمة الفلوس تلقى في حجرها ، حتى فرحت الوجوه وانتشت ، ورحن يؤكدن بذل كل ما يتمتعن به من مواهب فذة ، لإرضاء القطب وإنجاحه .

وربت المكشوف على كتفه ، مهنئًا ومشجعًا ، رغم استنكار صدره لهذه البادرة الحمقاء من القطب ، والعدوانية في نفس الوقت .

وكان القطب يحس بهذا الاستنكار ، ويعرف جيدا أسبابه وأبعاده .

وعند باب العوامة قال القطب للمكشوف لكي يطمئنه ، أنه رشح نفسه فقط من أجل خاطر الوزير ، وأنه دبر فكرة ترشيح نفسه ليضمن نجاح أخيه في الانتخابات ، ثم عاتبه على ظنه السيء به .

– أحسبتني يمكن أن أنافس أخاك في دائرته ، معقول أواجه الوزير بهذه الصورة . ؟

تاه فكر المكشوف ولم يهتد إلى بر الحقيقة ، إذ كيف يرشح القطب نفسه ليخدم أخاه الوزير ؟

ولم يجد غير استجابة المضطر فابتسم .

قال القطب لينعش رأس المكشوف ، إنه استعد لمزاد أرض النادى ، وأنه ربط مع المنافسين لحبك الشكل القانونى ، وكلها يومان ويدخل ذمة أخيه الوزير اثنى عشر مليونا ، ويدخل ذمته هو مليونان .

ثم تركه القطب ساهمًا وأسرع إلى عربته .

(٤٧)

كان قصر القطب مماوءً لآخره بالرجال والنساء ، مختلف الأعمار والأوساط ، يتزاحمون ويثرثرون على راحتهم ، يحومون حول مائدة مذهلة بطول الصالة ، وعليها أفخر الأصناف من الحلوى والمشروبات والسجائر .. فيملأون الأطباق ويحملون الأكواب ، ثم يترقبون بقية الأصناف الأخرى الواردة ، والتى تحط على المائدة فى سخاء مبهر .

ويدأ المحترفون يستلون أكياسهم النايلون ، ويملأونها بسرعة ، ويدسونها فى مكمنها . !

وفوجىء عباس بالكم الرهيب من الخلق ، يتوافدون سعيا إلى القصر ، فاضطر أن يطلب كمية إضافية من الكراسى ، ويضعها فى الحديقة ، لعلها تخف ضغط الزحام فى الداخل ..

بدا القصر مغمورا بأضواء تخطف الأبصار .. وعند الباب توقفت عربة الشرطة ، تراقب ، وتشارك فى التهام مايخرج إليها من صوان منتقاة .

وكان القطب فى مكتبه ، يلح على المأمور ياسر الشاهد فى التليفون بضرورة حضوره ، ويؤكد له أن تشريفه الليلة لقصره فى منتهى الأهمية ، وأنه لن يندم على هذه الزيارة ..

ولمّا أقنعه أخيرا ، وتأهب للخروج ، عطلته مكالمة معالى الوزير المفاجئة ، وقد بدا صوته متوترا ساخرا .

– مبروك مقدما ياحاج قطب ، بالتوفيق إن شاء الله .

وصل القطب ما يعنيه كلام الوزير ، واستوعبه جيدا ، ثم ابتلعه فى برود ، وراح يؤكد لمعاليه أنها مجرد مناورة انتخابية ، لمنع تشتيت الأصوات ، وتجميعها لصالح معاليه ، وأنه لايجرؤ مطلقا على منافسة معاليه فى دائرته ، بل سينسحب فورا فى الوقت المناسب .

ثم ختم المكالمة بإلقاء طعمه الجديد .. فهو يريد أن يلتقى بمعاليه فورا ، لتصفية باقى حسابات أرض النادى ، التى رسا مزادها عليه .. والأهم من ذلك ، لأنه فوجئ بالأرض تنشق تحت قدميه ، وتخرج سربا هائلا من الأرانب السمان ، وأنه لن يلاحق على تجميعها بمفرده . !

ولما وضع القطب السماعة ، فرد هامته فى استعلاء ، بينما يلقى بنظرة استخفاف إلى التليفون .

– خلاص راحت على معاليك .. كفاك ما أخذت . !

كان عباس مرهقا .. فلم يستكن لحظة طوال اليوم .. كان عليه أن يجمع هؤلاء من يستطيع من المعارف ، ومن رواد القصر ، ومن أهل الحى .. وأن يملأهم بالطعام والشراب ، ثم يضعهم أمام القطب ، ليعلن نبأ ترشيح نفسه لعضوية مجلس الشعب .

ولم يكن هذا النبأ مفاجئا لعباس ، ولا مثيرا لدهشته ، فهو يعرف القطب جيدا ، ويعرف أنه حط موضوع مجلس الشعب هذا فى رأسه ، منذ أن طلع رحلة الحج ، ولذا فإنه لن يتنازل عن مقعد فيه مهما كلفه ذلك .. ولكن الأمر الذى أدهشه حقا ، والذى أثار الحسد فى نفسه على موهبة القطب ، هو كيف استطاع الرجل أن يؤثر على كل هؤلاء الناس ، وبهذه الدرجة ، خلال زمن لايصدق . !

كانت فايزة مستكينة فى ركنها المنزوى ، تختلس عيناها النظرات إلى الوجوه ، ثم تعودان إلى حيث يترك عباس .

وملأ أنور طبقا ممتازا ، ودفعه إلى زكريا وهو يحثه على المواصلة .

- كل يازكريا .. خير ربنا كثير

وشدت عفاف كوع زوجها بركات لكى يلتفت .. ففوجئ بابتسامة اللواء منصور عبد الجبار العريضة تحاصرهما ، بينما يتجه فى همة إلى حجرة القطب .

- أرأيت كيف يحاول أن يسترضينا ؟

- نعم رأيت

لا ولسه .. سأعرف كيف أربيه . !

فى لحظة الذروة خرج القطب إلى الصالة .

فاستبشرت الوجوه ، وتراخى المضغ ، وانسحبت الأقدام .

وبعد لحظات صمت وترقب .. قال القطب كلمته .

وكانت تخرج من القلب ، لأحبائه ، وأهله ، وشركاء أمواله ومستقبله .

اعترف لهم بأن الحقيقة مرة ومؤلمة .. فبعد أن ساد الفساد والتضليل والكذب ، وبعد أن تآمر المسئولون على أرزاق العباد ، وسلبوا أطيبها ، ثم حرموا على الناس حتى حق الشكوى .. فماذا تبقى لهم ؟

وارتفعت يد القطب تعتصر الانفعال ، وهب صوته يغمر المكان .

- حرام .. وحق العباد حرام . !

شبابنا يضيع أمام أعيننا ياناس . !

أبناؤنا فقدوا الأمل فى الوظيفة المجزية ، والمأوى الآدمى ،والقدوة المخلصة ، فراحوا يفرون من البلد ، وقد لايرجعون أبدا إليها .

أما بناتنا ، زهرات عمرنا ، كان الله فى عونهن . !

ثم سكت لحظات ، وبدا يمسح عينيه وهو منكس الرأس ، بينما يتخلص الصدر العريض من تنهيدة أرهقته .

وظلت الوجوه شاخصة ، مشدودة فى تعاطف تلقائى ، إلى حيث يعانى القطب ، أثر ملامسة الجروح الحية ، والمتقيحة فى صدور البسطاء .

رفع القطب رأسه ، وقال فى تأس يسيطر على نبرات صوته وملامح وجهه ، إنه لم يسع أبدا إلى المقاعد العليا ، لأنه يكرهها ، ويكره أهلها .. ولكن للضرورة أحكامها فهو الآن مضطر لأن يعتلى أحد هذه المقاعد من أجل خاطرهم ، من أجل أن يصرخ بصوتهم وينتزع حقهم من فم الأسد .

هب أنور واقفا يصفق فى حماس ، فامتلأت أرجاء القصر بالتصفيق والتأييد ، ولمعت الفرحة بالعيون .

تساءلت عجوز وهى حائرة بوجهها بين الوجوه .

– ياخرابى .. هل سيأتون بالأسد إلى هنا ياولاد ؟

لمح القطب ظهر المأمور ياسر الشاهد ينسل بعيدا عن الأعين ، ويدخل حجرة المكتب ، فاستأذن الناس وذهب إليه .

وهناك أخذه بالأحضان ، وغمره بعبارات الترحاب والعرفان على استجابته لدعوته وأبدى المأمور إعجابه الشديد بنشاط القطب ، وحرصه المخلص على الصالح العام وخدمة أهل الحى . ثم هنأه فى حرارة على قرار ترشيح نفسه لعضوية مجلس الشعب ، وطمأنه بالفوز الأكيد .

بدا التواضع مترددا على كبرياء الملامح ، بينما القطب يعترف بأنه لم يعد يجد نفسه إلا فى هذا الطريق ، والذى اكتشف أخيرا أنه قدره المكتوب ، ولا حيلة له فى التراجع أو إعادة التفكير فيه . !

كـمـا يـعترف أيضـا وبـدون خـجـل ، أنـه رجـل خـام فـى مـوضـوع المعـارك الانتخابية ، وأنه يعتمد كل الاعتماد على خبرة حبيبه المأمور وعلاقاته فى مساندته ، وفى الوقوف إلى جواره ، لما بينهما من صداقة حميمة .

وحرص مشترك على الارتفاع بمستوى الحى وأهله .

وسكت القطب ليستمع لتجاوب المأمور من مناورته ، وليتأكد من قابليته لمزيد من التطويع المفيد ، ولما تأكد ، بدا يتذكر شيئا جعله يعاتب المأمور فى تأثر شديد ، فكيف هان عليه أن يحرمه من القيام بالواجب ، والمشاركة فى حفل الخطوبة الذى أقامه المأمور لولده فى الأسبوع الماضى .

– أهذا كلام ياباشا ، أكنت تغفرها لى ، لو أننى نسيت دعوتك لفرح ابنى . !

تضاحك المأمور وهو يبدى اعتذاره . فالمسألة لم تتجاوز العائلتين ، ثم إن الحاج قطب سيكون الشاهد الأول على عقد القران إن شاء الله .

ولم يقتنع القطب بالاعتذار . !

وظل يتمادى فى موقفه ، آخذا على خاطره من فعلة المأمور .. فهو لن يسامحه حتى يقبل منه هدية العريس ، ولده ، والتى نذرها على نفسه من مدة ، وتعتبر دينا فى رقبته للولد .

ثم سحب من مكتبه ورقة مطوية وقدمها للمأمور .

–هدية العريس ياباشا ، وقسما بالله ، لا أريد أن أسمع منك كلمة واحدة .

فرد المأمور الورقة مستطلعا ، ثم بدت ملامحه تفور وتندهش .

كانت الورقة عقد تمليك شقة ، باسم العريس ، وفى برج التوحيد والنور ..

– الشيخ دردير ، صديق عزيز يا عباس

خرج عباس متثاقلا ..

وظل الشيخ دردير قابضًا بكلتا يديه على عصاه الغليظة ، المزروعة بين فخذيه المنفرجتين ، بينما يزوم من جوفه فى غضب . !

ترك القطب مكتبه وجلس فى مواجهته .

قبض معه على العصا بقوة ، وظل يسأله العفو والسماح وهو يتطلع إليه فى مداهنة .

– من لا يعرفك يجهلك يا مولانا .

كانت اللحية متنافرة الأطراف ، والحاجبان منكفئان على عطب العينين ، وحين راح يطوح الرأس فى تواتر ، تأرجحت الحلقة المعلقة بحلمة الأذن .

– البيوت لأهل الله .. والضيوف ضيوف الله .. وأعوذ بالله من غضب الله .

ثم مد يديه بغتة إلى كوب الليمون الموضوعة على المكتب وتجرعه على مرتين بصوت خشن .

تركت أصابعه المتسخة بصماتها على الزجاج الشفاف ، ولم يطق القطب رائحة ثيابه المتقيحة فتراجع فى كرسيه . !

تجشأ الشيخ دردير مرات متلاحقة ، بينما يحمد الله ويشهق وهو مغمض العينين .

سأله القطب عن حاله ، ومتى جاء إلى القاهرة ، وكيف عرف عنوان قصره ؟

ففوجئ بصوت شخيره يرتفع بالتدريج حتى أصبح مزعجا . !

تطلع إلى فمه المنفرج ، وشعره الملبد النافر من تحت العمامة الكالحة ، ثم هم بالقيام .

شهق الشيخ دردير بكل صدره ، ومسح فمه بكفه ، ثم أمره بالبقاء فى مكانه .

– تكلم .. أنا أسمعك يافرس النبى

ابتلع القطب ضيقه ، لم تعجبه طريقة الكلام .. فطلب فنجان قهوة لعله يعينه على الزيارة المفروضة عليه ، وطلب ينسونا للشيخ .

تساءل الشيخ درديرر وهو يهرش رأسه بأظافره السوداء

كيف حال المال والولد يا عبد الله .

قال القطب إن المال ينمو بفضل الله ، أما الولد ..

وانفرجت ملامح القطب فى تشوق ، فمال على الشيخ وأخبره فى عرفان أنه استجاب لنصيحته الغالية وأخذ انشراح ، فاستقرت بذرته أخيرا فى رحمها ونمت ، وقريبا ستأتيه بالولد .. ثم راح يتشفع ببركات الشيخ وبصيرته المكشوف عنها الحجاب .

ومرة ثانية فوجئ بصوت الشخير يرتفع حتى أصبح مزعجا . !

أمسك العصا وهم أن يهزها ، فشهق الشيخ ومسح فمه بكفه ، ثم نظر من تحت جفنيه وتساءل .

– انشراح من ؟

تراجع القطب متعجبا ..

وأخذ الشيخ كوب الينسون الساخن وتجرعه على مرتين بصوت خشن .. ثم اعترض على رغبة القطب فى أن يأخذه لينام ، والصباح رباح ، يتكلمان فيه على راحتهما .. وقال إنه سيظل على كرسيه حتى يؤذن الفجر فيرحل .

سأله القطب متعجبا ، لماذا يسارع بالرحيل مادام قد جاء لزيارته ؟

فعاد الشيخ يطوح رأسه فى تواتر

– جئت أرى فرس النبى ، ولكنى لم أجده .

ثم مال بجذعه إليه .

– انشراح من يا عبد الله ؟

ارتبك رأس القطب .. فكيف لايجده وهو جالس أمامه ؟

وحاول أن يذكره بنصيحته له ، وهما جالسان فى رحاب السيد البدوى .

– ألم تقل لى خذ انشراح تأتيك بالولد ؟

هرش صدره فى تكاسل ، ثم راح يدور بالعصا بين فخذيه فغاص طرفها فى ليونة السجادة

– أنا قلت ؟

– نعم قلت

– أنت فعلت ؟

– نعم فعلت

– أى انشراح ؟

– التى وجدتها .. والتى ...

وتردد القطب فسكت ، لم يرحه تلاحق الأسئلة المصوبة إليه ، ولا رائحة الرجل ، ولا إصراره على أن يظل فى مقعده حتى أذان الفجر . ولكنه كان لايملك غير الصبر ، يتذرع به مجبرا حتى يأتى الولد وتنتهى المسألة على خير .. وإلا فقد يغضب عليه هذا الجلف فيحدث مالايحمد عقباه . !

قال الشيخ مستحثا

– والتى ماذا يا عبد الله

ثم لاحقه قبل أن يجيب

- وهل أخذت ؟

- سآخذ إن شاء الله

أراح الشيخ جبهته على رأس عصاه ، وبدا صوته يغالب النعاس

- أعط قبل أن تأخذ يافرس النبى

قام القطب إلى درج مكتبه وأخرج عدة رزم ، وضعها فى كيس ومدها للشيخ فى تودد .

- خذ يامولانا .. مد يدك وخذ

لم يمد الشيخ يده ، ولم يفتح عينيه .. وتساءل وهو يتمايل برأسه المرتكز على عصاه

- آخذ ماذا يافرس النبى . ؟

- أبدا يامولانا .. مبلغ بسيط .. وحين يتم كرم الله فسأعطيك الكثير رفع الشيخ رأسه وتطلع إلى القطب باتساع عينيه ، ثم ابتسم ساخرا

- لاتكلمنى حتى يؤذن الفجر

ثم ألقى برأسه على ظهر المقعد ، واحتضن عصاه بين ذراعيه ، وارتفع صوت شخيره بالتدريج حتى ملأ الحجرة . !

(٤٩)

كان القطب يتطلع إلى الصورة فى تأثر واضح . !

يقربها من عينيه وهو سارح فى تشوق ، بينما يجيش بالصدر صهد دافىء ، وتتهدل الملامح منسلخة عن جهامتها وتجبرها .

كانت صورة أخيه عبد التواب ، الأخ الأكبر والوحيد ، بعد أن مات الآخرون ، أكلهم القدر فى حوادث متلاحقة ، الواحد تلو الآخر ، اجتثهم فى غير رحمة من شجرة العائلة ، ليبقى هو البرعم الوحيد فى شجرة أبيه . !

حرك القطب جمرات الشيشة بأصابعه ، وشد نفسا متراخيا .

ومن يدرى .. فقد يباغته القدر ويأكله هو أيضا ، فى أى لحظة ، وكما أكل كل إخوته .

معقول يأكله قبل أن يرى الولد ، ويضمه إلى أحضانه ، ويتأكد أن يحمل ملامح أبيه ، أو جده ، أو ملامح عمه عبد التواب . !

معقول يأكله قبل أن يعتلى مقعده فى مجلس الشعب ، ويتمكن منه ، فيقطع بذلك ألسنة أهل بلدته التى تطاولت على عائلة فرس النبى ، وحاصرت أباه حتى مات مقهورا . !

وتراءى له من خلال الدخان وجه عبد التواب ، منطرحا على ذراعه ، والدماء تغرغر فى حلقة ، وتنزف من أنفه وفمه ، والعين المذعورة تتلهف ، والعين المكلومة تقاوم ، ثم تنطفىء . !

آه لو عرف من الذى أطلق عياره على أخيه عبد التواب ، ولماذا فعلها ؟ عبد التواب كان قلبه نقيا كالحليب ، وكلامه حلوا كالشهد ، كان عطوفا وحنونا ، ملاذه الأخير كلما ضاقت به الدنيا وتكالبت عليه .

ويومها أحس أن العيار كان يقصده هو ، كان موجها إليه من عدو يتربص به ، ولكن حركة عبد التواب المفاجئة جعلته يتلقى العيار فى مقتل ، وينهار على صدره مهيضا . !

طوح القطب ذراعه ليشتت تهويمات الدخان من أمامه ، وألقى بمبسم الشيشة على الترابيزة . فتح الصندوق الصغير والتقط خاتم عبد التواب وساعته ، كان الخاتم كبيرا من الفضة ، له فص غريب الشكل ، تماما كخاتم القطب ، والخواتم التى يهديها للمقربين إليه ، والساعة أيضا من الفضة ، ساعة جيب أثرية ، لها كتينة طويلة ، ومنقوش على طرفها من الداخل اسم الجد الأكبر فرس النبى ، انتقلت من الجد إلى الأب ، وبعده استقرت على صدر عبد التواب .

فتح القطب ظرف الساعة من الخلف والتقط فى حرص وريقات الحجاب المثلث ، كانت صفراء متهرئة تفوح منها رائحة بخور معتق .. وعادت العين الحنونة تحتضن العين الحائرة وتطيب خاطرها ، بينما الصوت يتلمس حلق الأذن .

– كله بأوانه ياقطب ياخويا ، الرزق والولد بيد الله .. اسمع .. زر السيد البدوى ، وابحث عن الشيخ دردير وكلمه ، افتح له قلبك ، ومن يعرف ، فعلى العبد أن يأخذ بالأسباب .

وقتها لم يعجبه كلام عبد التواب ، فلم يطاوعه ، يعرف أنه متواكل وعلى نياته ، ويمكن التأثير عليه بسهولة ، وخاصة إذا وقع فى يد أحد دراويش الموالد أو مدعيى الكرامات والشفاعات .. ولكن بعد أن مات عبد التواب على ذراعه ، وبسببه ظلت عقدة الذنب تطارده وتؤنبه ، فراح يسترضى روحه بكل الوسائل .. فواظب على إقامة ختمة المولد النبوى بنفس السخاء وفى نفس المكان الذى كان يقيمها فيه

عبد التواب . اهتم بزوجته وابنته الوحيدة ، ورصد لهما مايكفل معيشة طيبة . زار السيد البدوى عدة مرات حتى عثر على الشيخ دردير ، وباح له بمشكلته . وعلى الرغم من أنه لم يقنع بجو هذا الشيخ ، ولم يستوعب الكثير من لغته وتهويماته ، إلا أنه عمل بنصيحته ، استولى على انشراح الوحيدة التى عرفها ، فتزوجها لكى تأتيه بالولد ، وفعلا ستأتى بالولد .

ابتسم القطب ساخرا وهو يعيد وريقات الحجاب فى ظرف الساعة .. الرجل الملتاث عاد بالأمس يتنصل من نصيحته ، يشككه فى المرأة التى اختارها له وحددها بالاسم ، وبعد أن استجاب بطنها لبذرته وظهرت البشائر . !

عاد القطب يتطلع إلى صورة عبد التواب فى عرفان ، فلولاه ما التقى بالشيخ دردير وما تزوج انشراح ، أم الولد المرتقب . !

وخايله وجه عباس عندما التقى به لأول مرة ، فأدهشه ذلك التشابه الغريب بينه وبين وجه عبد التواب ، ومن يومها وجد نفسه متعلقا به ، لايملك إلا أن يقربه إليه ويرعاه ، إكراما لوجه أخيه المفتقد . !

(٥٠)

انتعشت ملامح القطب وسرت فيها حموة التشفي .. ثم مالبثت أن امتصت رعونتها وتبلدت . سيطر القطب عليها قبل أن تبوح بمدى حرصه على الإيقاع بالمهندس مدكور ، وقبل أن يتصيد رمزى القرموطى فرصته لينتفخ ويأخذ حجما أكبر من حجمه . !

تساءل القطب فى تثاقل متزن .

فراح القرموطى يشرح له بالتفصيل ، مباهيا بقدراته الفذة فى السيطرة على أمور الحى ، كيف أنه ظل يراقب وينبش وراءه بكل الطرق ، حتى أوقعه أخيرا فى قضية محكمة ، جريمة تعريض الأرواح للخطر ، أثبت عليه تعمد استخدام الخرسانة المضروبة فى هيكل برج يشرف على إقامته .

ثم قال فى زهو يتمسح باسترضاء القطب .. إنه قام بمهمته على أكمل وجه ، وأن المذكور أعلاه أصبح فى خبر كان . !

ارتاح صدر القطب فتنهد ، وطمأن القرموطى أن مكافأته محفوظة .. ثم ضغط على « الدكتافون » وسمح لمنصور عبد الجبار أن يدخل .

انتبه القرموطى ، وبدا كأن الفكرة حطت عليه لتوها ، وأنه يبادر بها مخلصا قبل دخول الرجل . !

ومال على القطب هامسا أن يوكل قيادة حملته الانتخابية لمنصور عبد الجبار ، فهو رجل خطير فى مثل هذه الأمور .

ثم قام لينصرف .

أخذ القطب الجريدة من يد منصور ليقرأ الخبر بنفسه .

- معقول .. لاحول ولا قوة إلا بالله

قال منصور فى برود وهو ينفخ الدخان إلى أعلى

- أعمار .. جاء من أمريكا ليموت فى بلده

ثم تراخى فى مقعده وقال بصوت متلون النبرات

- عموما .. أراح واستراح

تطلع إليه القطب متوجسًا .. أحس أنه يناور فى خبث ، ثم عادت عيناه إلى الجريدة .

المسألة تبدو ضربة حظ مفاجئة ، هدية من السماء جاءته فى وقتها ، يموت الرجل قبل أن يصل إلى النيابة ، أو حتى إلى بيته ، فيوفر عليه مزيدا من المشاكل ووجع الدماغ .

وانشرح صدر القطب ، فحمد العاطى على هديته ورضائه .

قال منصور وهو يضع قناع التأثر على وجهه .

- شىء بشع ، الرجل انسحق هو وحقيبة أوراقه تحت عجلات عربة الزلط .

ثم هرس عقب سيجارته فى الطفاية .

- أه .. قضاء وقدر . !

قال القطب ليقطع خط الرجعة على تلميحات منصور السمجة ، بينما يده تبحث فى درج مكتبه عن دفتر الشيكات .

- عموما موت الدكتور عاصم مكاوى لايفيد قضيتنا فى شىء .

لأن أرض الأجرودى أرضنا ، وأوراقها تحت يدى ، كل ماهناك أن ربنا قصر علينا طريق المشاكسة ووجع الدماغ .

ثم باغته بالسؤال عن سير العمل ، وما تم إنجازه على أرض الأجرودى .. وقبل أن يهم منصور بالكلام ، وقع القطب على الشيك ومده إليه .

– دفعه تحت حساب المصروفات ، من الآن أنت المسئول عن تغطية حملتى الانتخابية .

تطلع منصور إلى الشيك فبهره الرقم ، وفهم أن القطب أراد أن يسوى المسائل المعلقة فى ذكاء مدروس .

ظل القطب وحيدا فى الحجرة ، ورأسه يجتر ملابسات الحادث ويقلب أبعادها .

هل حقا مات الرجل قضاء وقدرا ، أم أنها عملية مقصودة ومدبرة ؟

ثم من الذى دبرها .. ولماذا ؟

من صاحب المصلحة غيرى فى القضاء على عاصم مكاوى ؟

هل تطوع لها أحد الثعالب لينال رضائى ومكافأتى .. ولكن من يعرف الحقيقة ومن يجرؤ ؟

هل فعلها فهمى عرفات ؟

هل هزته ثورة مرؤوسه زكريا ، واتهاماته الخطيرة له ، حين أحاله للنيابة بتهمة سرقة سجل القيد ؟

ولكن هل يمكن أن تصل الأمور لهذا الحد ، للقتل ، وبهذه الطريقة ! ؟

(٥١)

بدا التوجس يطفو ويتسع فى عينى الوزير . !

لم يقتنع بكلام القطب ولم يدخل دماغه .

كان متأكدًا أن الرجل يمكر به ، ويتأهب فى خبث لسحب البساط من تحت قدميه ليوقعه . !

كل الظواهر توحى بذلك وتؤكده .. حماسه المتزايد فى تلبية خدمات أهل الحى ، عيون رجاله وألسنتهم المزروعة فى كل مكان ، وكل تجمع ، الأموال السخية التى يبعثرها على الخلق ، المشاريع الوهمية التى يروج لها .. معقول يفعل كل ذلك من أجل سواد عينيه ، وبدافع الإخلاص والولاء كما يدعى . !

ثم منذ متى بينهما هذا الإخلاص والولاء ؟

ارتشف القطب من كوب الليمون فى تمهل .. قصد أن يترك الوزير ليراود نفسه على هواها ، كان لابد أن يذعن ، ولو غصبا ، وإلا فتح على نفسه أبواب جهنم . !

قال الوزير وهو يضع ابتسامة مترددة على وجهه .

– أتعدنى أن تنسحب فى الوقت المناسب . ؟

ورد القطب فى جدية متثاقلة .

– وتفوز معاليك بالتزكية .. وألف مبروك مقدما .

وفتح القطب حقيبته ، وأخرج أوراقه ، وفردها أمام الوزير

– بيضة الديك ، ها هو إثبات حسن النوايا

ثم راح يشرح للوزير تفاصيل العملية العبقرية ، التى درسها واستعد لها بكل إمكانياته .

حديقة أبو عافيه على أطراف المرج ، مائه وخمسون فدانا من الفواكه تملكها الشركة الأهلية للإنتاج الزراعى ، شركة قطاع عام ، أقنع رئيسها أن يبادر ببيعها ، تفاديًا لخسائرها المتلاحقة ، وتخلصا من مسئولية إهدار المال العام . السبت القادم سيدخل المزاد الصورى خمسة من كبار الأسماء ، يمثلون معالى الوزير ، والحاج قطب ، وثلاثة آخرين . مهمة هذا المزاد الصورى أن يخلص الأرض من يد الحكومة بأقل سعر ، على اعتبار أنها أرض زراعية ، وستستخدم لنفس الغرض .

ثم بعدها نعقد المزاد الحقيقى فيما بينهم هم الخمسة ، والقادر يشيل . !

عبث الوزير بشاربه بينما يغرق فى التفكير .. فبادره القطب مطمئنا

– لا تقلق .. كله فى السليم .

ثم إن العقد الذى جهزناه لايخر نقطة ماء واحدة .

ودخل القطب فى التفاصيل ليلهب حماس الوزير ويسيل لعابه .

أخبره أنهم اتفقوا على حد أقصى لشراء الفدان من الشركة بربع مليون ، بما فيه الإكراميات طبعا ، وحسبوا مصاريف تجهيزه لأرض مبانى مائة ألف .

فإذا كان متر أرض المبانى فى هذه المنطقة يساوى حاليا خمسمائة ، فهل تتخيل كم يكون المكسب .

وتمدد القطب فى مقعده منتشيا

– ألم أقل لك إنها بيضة الديك ؟

سرح الوزير لحظات مع الأرقام فأدهشته ، واقتنع أنها بالفعل بيضة الديك .

ولكن مالبث أن راوده التردد وسيطر عليه . !

اشتم أنفه المدرب خطورة المغامرة ، ووعورة الخوض فيها إلى بر الأمان ، فاللعبة ليست هينة كما تبدو .. وإلا فلماذا يفعلها القطب بمفرده ؟

لماذا آثر أن يستعين به هذه المرة بالذات ؟

أن يبوح له بسر اللعبة ويشركه فى دور البطولة ؟

لابد أنه يدبر شيئا خطيرا ، شيئا يفوق تلك الملايين التى يساوم عليها . !

انتبه إلى القطب وهو يتكلم فى ثقة القابض على إمكانياته .

– تجفيف الترع وردمها ، تقطيع أشجار الفاكهة وتسوية الأرض أسبوع واحد بمشيئة الرحمن ، نزيل كل معالم الحديقة ويصبح كله فى السليم .

وفوجئ به يلتقط يده فى حماس ويحثه على قراءة الفاتحة . !

(٥٢)

استطاعت فايزة أخيرا أن تلين دماغ أمها انشراح ، أن تخفف من مخاوفها وترددها فتجعلها توافق على طلب عباس ، فى أن يذهب لأبيها الأسيوطى ويكلمه ، ويطلب يدها منه ويحصل على موافقته ورضاه .

ففى البداية فوجئت انشراح بما يرمى إليه كلام البنت ، بما يوحى إليه من تعاطف صريح مع عباس ، لم تكن تتوقعه . !

ولما جرتها فى الكلام عرفت أنها تميل إليه ، وأنها سمحت له أن يتقدم ليطلب يدها ، فثارت عليها وحذرتها ، إن هى تمادت فى هذا الموضوع أو حتى إن فكرت فيه ، لأن البنت كانت تعرف مخاوف أمها ، وأسباب هذه المخاوف ، وتلتمس لأمها الأعذار ، لذا أخذتها بالصبر والهوادة ، وراحت تبوح لها أن الظروف هى التى اضطرتها لأن تقترب من عباس ، وأن تتعرف على شخصيته ومعدنه ، فتأكدت أنه شاب نقى ومخلص ، وأنه حين وقع تحت جناح القطب ، وقع مضطرا ومتأزما .

– صدقينى يا أمى ، عباس ، ابن حلال ، ولا يرضى أبدا عن أفعال القطب وألاعيبه .

واستمرت فايزة تلح وتستعطف ، وتؤكد لأمها أن عباس بدا يبنى مستقبله بطريقة شريفة ونظيفة ، وأنه يقوم ببعض أعمال المقاولات لحسابه الخاص ، وبمجرد أن يقف على رجليه سيترك القطب ويستقل بذاته .

– إفهمينى يا أمى ، عباس يعرف ظروفنا وقلبه علينا ، هو الوحيد الذى يمكنه أن يساعدنا ، أن يحمينا من غدر القطب .

ولما بدا التوجس على وجه انشراح ، وراحت تتساءل ، إن كان عباس قد فاتح القطب فى هذا الموضوع وأخذ رأيه ، وإن كان قد وافق ، استنكرت فايزة تخوفها ، وأكدت لها أن عباس يعرف كيف يتصرف مع القطب ، ثم إن القطب لاشأن له فى هذه المسألة ، ولن يستطيع أن يفعل شيئا ، إذا لم يأت هذا الزواج على مزاجه .

ظلت انشراح مترددة ، تراود العواقب بقلب قليل الحيلة ، وعين ترفرف على البنت وتحنو عليها ، تخاف أن يجرفها التيار إلى دوامة عباس ، فتفلت من يديها وتروح ، تنجرف ، كما جرفتها هى دوامة القطب وابتلعتها . !

فمن يدرى ما يخبئه هذا العباس لهم . ؟

وقد يطلع أمكر من القطب وأخس .. قد يغير جلده ويظهر على حقيقته بعد أن تقع الفأس فى الرأس ، فتضيع البنت ولا ترجع . !

القطب .. الحاج قطب .. اتضح أنه تاجر فى المخدرات ، وأكل من حرام ، وغدر بالأسيوطى ، حبيبه وأمين سره كما كان يدعى ، وتزوج الكثيرات قبلها .

وعباس هذا عاشره زمنا واختلط به ، ولابد أنه تأثر بأفعاله وشرب خصاله . !

ويريد الآن أن يبدأ بالبنت ، ويجرب عليها حيل سيده وخبثه ، وإلا فكيف استطاع بهذه السرعة أن يطوى رأسها ويستميله إليه . !

أشفقت فايزة على تردد أمها فأخذتها فى أحضانها ، اضطرت أن تبوح بما أسره عباس لها ، عن فعلة القطب الأخيرة ، حتى تبرهن على إخلاص عباس لهم ، وتكشف دناءة القطب لأمها ، تثبت لها أنه لايبقى على كرامة أحد ، ولا يحس مشاعر أحد . !

وراحت تستحثها على أن تنتبه لإثبات وجودها ، ولاتتغافل عن حماية حقوقها ، كزوجة شرعية لهذا المخادع .

انكفأ رأس انشراح ممتلئا بالمرارة ، وهدمت فى الصدر أشباح أحاسيس ظلت حائرة ، تلح وتحذر فى جسارة ، تؤكد حقيقتها وتعبث بكرامة الأنثى ، تسخر منها .. همدت فى قاع الصدر ، كتلة صماء شامتة ، مسنونة الأطراف . !

أخذت انشراح رأس البنت بين يديها ونظرت فيه ، أوحت له بالموافقة على أن يبادر عباس إلى أبيها الأسيوطى .. ويكلمه . !

(٥٣)

فوجئ المكشوف بثورة أخيه الوزير تهب عاتية عليه ، تحاصره بالأسئلة المتلاحقة والتوبيخ المستفز ، بينما معاليه يهتز بكرسيه الفخم ، ويضرب صدر مكتبه فى عصبية .

– كسر عينك القطب ، اشتراك وجرك وراءه .

أنت تقف أمامى يا مكشوف ؟

تتنكر لأخيك على آخر الزمن وتشمت به الأعداء ؟

طيب يا مكشوف ، حسابنا فيما بعد .

تطلع المكشوف لأخيه وهو ساهم ؟

تجمد لسانه وفارت دماء وجهه .. لم يكن يتوقع أن تصل الأمور لهذا الحد .

لأن يتطاول عليه أخوه الأصغر ويهينه بهذه الطريقة ؟

لم يفعلها من قبل ، مهما اعترضهما من خلاف أو سوء تفاهم .

لايهم .. كل الأمور واردة ، ومحسوبة ؟

وتماسك المكشوف بسرعة وابتسم فى برود ، ارتشف القطرات الأخيرة من فنجانه بصوت ممطوط ، ثم هم بالقيام .

– نتكلم بعد أن تهدأ .

ترك الوزير كرسيه ، أسرع ليواجه المكشوف فى الكرسى المقابل ، ويشده لكى يبقى مكانه .

– أى كلام يا مكشوف ، هل بقى كلام يقال ؟

تميعت ابتسامة المكشوف ، وراحت عيناه تخطفان نظرات الترقب من تحت الجفنين .. كان قد اخفى على الوزير مسألة إغراء القطب لنساء الكازينو ، وسخاء عطائه لهن ، ليستفيد بإمكانياتهن فى حملته الانتخابية ، فهو لم ير يومها جدية واضحة فى كلام القطب ، أو على ملامح وجهه ، فظنها إحدى نزواته الاستعراضية أمام نساء الكازينو ، أو على الأكثر تكون مداعبة للوزير ، قبل أن يدخل معه فى صفقة جديدة .

ولكن يبدو أن الجو قد تعكر بينهما ، وأن أخاه أحس بغدر القطب ، تأكد أنه سيأكله فى المعركة الانتخابية ، لو أنه استمر فى لعبته ، ولم ينسحب من المعركة قبل فوات الأوان . !

قال الوزير فى حسم وهو يحاصر وجه المكشوف .

– أغلق الكازينو اليوم وسرح نساءك

بدا التعجب على المكشوف ، ساخرا من الكلام وطريقته ، ثم عاد يهم بالوقوف ليتجنب الرد عليه

– قلت نتكلم بعد أن تهدأ

انتفض الوزير ودفعه إلى الكرسى ، وهو يزعق فيه

– سننتهى الآن

طاوع المكشوف حركة أخيه فى بلادة ، ثم همس له محذرا

– نحن فى مكتب معالى الوزير . !

انتبه الوزير ومسه تحذير المكشوف ، ثم مالبث أن استخف به وعاود

- أغلقه الآن ، بعد الهوجة أنت حر .

تساءل المكشوف وهو يبرم سيجارته فى تكاسل

- ولماذا أغلقه ؟

ثم ما دخل الكازينو المحترم فى مسألة الانتخابات ؟

راح الوزير يستحلب صبره ، وهو يجاهد مكر أخيه .. فاعترف بأن القطب قد غرر به ، استدرجه بحيله إلى الموقف الصعب ، وعده أن ينسحب عن منافسته فى الوقت المناسب ولم يفعلها ، ومعنى ذلك أنه أسفر عن نواياه الدنيئة عن إصراره فى خلعه عن دائرته الانتخابية والاستيلاء عليها ، وبكل الطرق غير المشروعة ، ومن ضمنها عقد اجتماعات مشبوهة فى الكازينو ، للتأثير على رواده وتجنيد عاهراته .

تضاحك المكشوف ساخرا .

- عقد اجتماعات مشبوهة فى الكازينو ؟

هز الوزير رأسه مؤكدا ، ثم تساءل .

- أعرف ماذا يعنى سقوطى فى الانتخابات ؟

أبدى المكشوف توجسا مفتعلا ، فواصل الوزير وهو يبتلع خبث أخيه ، أن سقوطه فى كسب ثقة دائرته ، يعنى أن يهتز به كرسى الوزارة ويطيح به فى أقرب فرصة ، فيخسر كل شىء ؟

قال المكشوف فى استخفاف ، بينما يدفع بعود الكبريت أحشاء السيجارة إلى جوفها ، بعد أن رطبها بزيت الحشيش النقى

– معالى الوزير يقدر البلاء قبل وقوعه . راح الوزير يجتر انفعاله وعينه على سيجارة المكشوف .. قال إن القطب مقامر محترف وخسيس ، جمع كل أوراق اللعبة فى يده ، ولم يترك له سوى الهزيمة المهينة ، أو أن يقلب الترابيزة عليه ويحطمه .

قال المكشوف وهو ينفخ دخان السيجارة فى تلذذ

– ولماذا لا تفعلها ؟

قام الوزير وفتح شبابيك الحجرة ، وأدار مروحة التكييف على آخرها لتطرد الدخان ، ثم ارتمى على الكرسى منهزما .

– المصيبة أنها ستصيبنى فى مقتل قبل أن تمس شعره من هذا الأفاق .. ألم أقل لك إنه مقامر محترف . !

ظل المكشوف غارقا فى كرسيه ، يتلذذ بسيجارته ، ويتلذذ أيضا برد اعتباره ، وهو يضع معالى الوزير على الصفيح الساخن ، فيوقفه عند حده ، ويلجم غطرسته وتطاوله عليه .

قال وقد استهوته سخونة المشاغبة

– ولكنك معالى الوزير ، وكلمتك ستكون الأعلى والأصدق

أخذ الوزير سيجارة المكشوف وشد منها نفسا عميقا .. فتخدرت الملامح وبدت متهدلة ، وظلت الهواجس ترعى فى الدماغ وتقلقه .

هل يبوح للمكشوف بصفقته الأخيرة مع القطب فيشركه فى التفكير والتدبر ، أم ينتظر لعل الأمور تسير كما يشتهى . ؟

العملية الكبيرة ، بيضة الديك كما قال الملعون ، ابتلعت كل رصيده وتركته عاريا ، لذلك آثر أن يخفى الأمر عن المكشوف ، ينساه هذه المرة ، ويستحوذ على أرباح العملية بمفرده . فمن حقه أن يكون لنفسه رصيدا معقولا ، يسنده وقت الشدة ،

ويعينه على غدر كرسى الوزارة ، ثم إنه لم يبخل على المكشوف بشيء ، أعطاه الكثير وسهل له الأكثر ، فماذا يريد ؟

انتبه إلى أخيه وهو يأخذ منه السيجارة

– أين ذهب معالى الوزير ؟

قام الوزير وتمشى فى الحجرة ، تجاهل التليفون ولم يرفع السماعة .. يبدو أن المكشوف يعرف موضوع صديقه أبو عافية ، عيناه تلمعان فى خبث ، تؤكدان إصرارهما الدائب على ملاحقة ظله ونبش أسراره ، خاصة تلك التى تدور فى فلك القطب . !

هل يجره فى الكلام ليجس نبضه ويستطلع نيته ؟

أم من الأفضل أن يبادر هو فيقطع عليه طريق المناورة السمجة ؟

وبعد عدة خطوات متأنية حسمها الوزير مع نفسه .. فعاد إلى كرسيه فى هدوء ، أيقن أن التخوف من القطب يهدده ويثقله ، وأنه يعجز عن حمله بمفرده ، كما يعجز عن التخلص منه أو إغفاله . وأن الملاذ الوحيد لأزمته هو المكشوف ، ولا مخلوق سواه . !

(٥٤)

انتهى منصور عبد الجبار من كلامه ، أخذ راحته فى إثبات ذاته ، واستعراض إمكانيته الخارقة فى إدارة دفة العمل بموقع أرض الأجرودى ، فلولا خبرته وحسمه ، لما انتهى صب الهيكل الخرسانى فى هذه الفترة المذهلة . !

ثم انتظر أن يتلقى عبارات الإعجاب والثناء من القطب ، ولكنه فوجئ به منشغلا عنه ، يداعب مسبحته ويقلب أوراق النتيجة وهو شارد . !

فكر أن ينسحب ، آثر أن يؤجل باقى ماعنده حتى يروق القطب ، وينعدل مزاجه ، فينتبه إلى كلامه ويلاغيه .

وقبل أن يتحرك رصده القطب وأمره أن يجلس .

ثم باغته بتساؤله عن أخبار الحملة الانتخابية ، وماذا فعل إلى الآن ؟

عاد منصور يفرد قامته ويتأهب ، وجدها فرصة لغزو دماغ القطب ومناوشة وتره الحساس ، بعد أن لاح الطريق إليه .

قال فى حسم لايشوبه شك .

– ستنجح ياحاج .. إطمئن

نقر القطب زجاج المكتب بطرف أصابعه ، لم يكن مستعدا لإضاعة الوقت فى كلام عائم ، أو إعطاء الفرصة لهذا الثعلب أن يدغدغ حواسه ويربط رأسه .

– هات المفيد يامنصور

أبدى منصور دهشته واستياءه . !

أزعجه أن يتشكك القطب فى إمكانياته ، أن يراجعه خطوات خطته الخاصة ، بهذا القلق وهذه الاستهانة . !

– هل سبق أن خاض الحاج حرب الانتخابات ؟

تأفف القطب معلنا نفاذ صبره ، من مراوغة منصور ، ومن استهانته بحساسية الموقف وخطورته . !

أخذ فى عينيه وضغط عليه فلم يتركه .

– هات المفيد .

طاوع منصور فهز رأسه ممتثلا ، وإن تنافرت على ملامحه بوادر إبتسامة مفتعلة مع رفض مكبوح لضغط القطب وملاحقته . !

كان يريد أن يشعره بالأمن ، بل يتركه ليستوى على نار هادئة ، فيستنزف منه على قدر ما يستطيع .

ولكن بدا أن الرجل منبه له أكثر مما توقع . !

أدلى منصور بجزء من خطته ، وفى حرص شديد واعتزاز راح يمن به على القطب .

قال إنه اتصل بمكاتب سجلات وزارة الصحة ، وحصل على عشرة آلاف صوت من عالم الأموات ، حديثى الوفاة ، وغدا ستصله بطاقاتهم الانتخابية .

كما حصل من نفس المكاتب على عشرة آلاف صوت ممن بلغوا سن الانتخاب قبل يوم التصويت ، وبطاقتهم تحت يده .. وأنه جمع أكثر من خمسة آلاف صوت من فئة ربات البيوت ، اللاتى لم يستخرجن أصلا بطاقات شخصية ، واتفق مع عشرين امرأة مأجورة ، لينتحلن هذه الأسماء ويتواترن بها على اللجان . ثم باغته منصور وعيناه ترصدان رد الفعل على وجهه .

– أيرضيك هذا العدد بصفة مبدئية .

ترسب الكلام فى صدر القطب رطبا منعشا ، أحس أنه وقع بالفعل على الرجل المناسب في الوقت المناسب .. وفكر .. إن كان هذا الداهية حصل له على خمسة وعشرين ألفًا من الأصوات غير المتاحة ، فكم يمكنه أن يحصل عليه من الأصوات المتاحة . ! ؟

هدأت لهجة القطب وبدت متوددة ، تسترضى غرور منصور وتستحث همته ، قال إن منافسه الوزير نزل بكل ثقله هذه المرة ، وأن معاليه يعتبرها حربا ضارية بينهما ، لذلك لن يتورع عن استخدام أخس السبل للاحتفاظ بماء وجهه وإثبات جدارته بكرسى السلطة .

قال منصور وهو يحك مؤخرة رأسه ويرخى عينيه

– – عجيبه .. حسبت أنكما صديقان متفاهمان ، وأن الأمور بينكما مستقرة ، ومحسوبة جيدا

التقط القطب بسرعة طرف خيط التلميحات الخبيثة ، الذى ألقاه إليه منصور ، مؤكدا أنه لايلعب ، وأنه مازال يستغل إمكانيات منصبه السابق كل الاستغلال ، ويطوعها لصالحه ، وعلى هواه .

قال القطب مبديا عدم الاهتمام

– مجرد مصالح وانتهت

ثم راح يؤكد لمنصور أن الصداقة فى نظره شيء خطير ، لذلك فهو لايصادق إلا من يكون أهلا لثقته ، بئرا لأسراره ، من يكون رجلا حقيقيا عند الشدائد .. وفى المقابل فإنه لايتردد عن التضحية حتى بعينيه لإرضاء هذا الصديق .

هز منصور رأسه فى تأثر ، بينما تسخر نفسه فى مكمنها من لزاجة الكلام وكذب اللسان . !

واصل القطب ، ويده تسحب مظروفا منتفخا من الدرج ، وتضعه تحت عينى منصور ، اعترف بأنه أحس ببوادر الصداقة تشده إلى منصور ، منذ اللقاء الأول بينهما ، وأن هذه الصداقة ستنمو بسرعة رهيبة ، وتفتح أبواب الخير لهما على مصرعيها .

ثم باح له بأن فوزه فى الانتخابات يعتبر مسألة حياة أو موت ، لأنها تتعلق بسمعته وكرامته ، فإن خسرها ، لن يبقى له شىء يعيش من أجله . !

لذلك فهو لايتردد عن التضحية بكل ماله ، إذا اقتضى الأمر ، للحصول على هذا الفوز .. ثم دفع المظروف إليه

– خذ وتصرف كما ترى

تطلع منصور إلى المظروف ووزنه ، خمن مقدار المبلغ فلم يملأ عينه .

وفى تلقائية نشطه تطوعت ملامحه ، أبدت وجه الصديق الشهم الأبى

– خيرك سابق ياحاج ، المسائل فى بيتها .

تاه القطب لحظات فى مناوشة منصور ، غير المتوقعة ، لم يسعفه ذكاؤه أن يستنكه ماوراءها .. ولكنه استبعد أن يكون عن تعفف حقيقى ، حط عليه فجأة ليطهر جوفه ، أو من ابتلاعه طعم الصداقة الزائفة ، الذى أدناه من فمه . !

سحب المظروف بيد مضطره ، احتراما لرغبة صديقه منصور

– ليكن .. عموما اعتبرنى جاهزا فى أى لحظة ، وبكل ماتريد .

قام منصور لينصرف .. وعند الباب توقف ، بدا أنه تذكر شيئا فعاد

– على فكره ياحاج ، عثرنا على أوراق تخص أرض الأجرودى ، أرضك يعنى ، للأسف نسيت أن أحضرها لك .

– أى أوراق ؟

أبدى منصور استهانة مفتعلة .

– مجرد عقود قديمة ، باسم الدكتور عاصم مكاوى

تفزعت تساؤلات متلاحقة فى رأس القطب .

فمن الذى عثر على الأوراق ؟

وكيف وصلت إلى منصور ، ولماذا منصور بالذات ؟

ثم لماذا يدعى منصور أنه نسيها ، وهل له علاقة بالحادث ؟

استأذن عباس ودخل متعجلا ، همس للقطب بأن سيادة المحافظ على التليفون .

امتدت يد القطب لترفع السماعة ، بينما عيناه ترصدان وجه منصور . !

(٥٥)

رفض الأسيوطى أن يزوج ابنته فايزة لعباس .

ثار عليه وحذره إن هو خاض فى هذا الموضوع مرة أخرى ، أو إن استغل ظروف غيابه وتحايل ليؤثر على البنت وأمها .. ثم قطع الزيارة ساخطا ، لاعنا القطب وأذنابه وكل من يتعامل معه .

وانسحب عباس من السجن متأزمًا .

حز فى نفسه أن يرده الأسيوطى بهذه الطريقة ، وأن يباغته برفض متسرع يحرمه فرصة الأخذ والعطاء فى الكلام .

كان فى نيته أن يتقرب إليه ، ويبوح بما يكنه له ولأسرته وتعاطف صادق لمحنته ، ورغبة ملحة فى التخفيف عنه واسترضائه ، وفى نفس الوقت يعلن رفضه لسلوك القطب ، وأفعاله ، ويعترف عن اقتناع باستحالة المواصلة فى خدمته ، والخنوع تحت جناحه .. بعد أن عرف عنه ما عرف ، وابتلع مما لا يرضيه الكثير .

ارتبك التفكير فى رأس عباس ، وهو يواجه رفضا لم يتوقعه ، ولم يحسب حسابه وعلى الرغم من أنه التمس العذر لموقف الأسيوطى ، ولاعتراضه طريق سعيه المشروع لحبيبة القلب ، إلا أنه استبعد أن يأخذه الرجل هكذا بجريرة القطب ، ولدرجة أن يطيحه بجذوة طائشة من غضبه ، متناسيًا بذلك ما كان بينهما من تفاهم وتودد ، ومتجاهلا كونه لا حول له ولاقوة ، فيما يفعل القطب برجاله أو بغيرهم .

فى طريق العودة من المعهد كان عباس مترددًا .

هل يخبر فايزة برفض أبيها لزواجه منها .. أم ينتظر ؟

وإذا حاول الانتظار ، فهل يصبر عليه .. وإلى متى ؟

ثم هل يمكن أن يغير الانتظار موقف الأسيوطى منه ؟

فاجأته فايزة بسؤالها الغاضب ، لماذا لم يخبرها بزواج القطب الجديد ؟

قال عباس أنه آثر أن لا ينكد عليهم ، ثم إن المسألة قد تكون مجرد نزوة عابرة من نزوات القطب ، ثم تنتهى سريعًا .

سرح عباس لحظات ثم سألها كيف عرفت بهذا الخبر ؟

قالت إن القطب لم يدخل البيت منذ ثلاثة أيام ، ولأنه لم يفعلها من قبل ، فقد ذهبت إلى القصر لتستطلع وهناك لم يعص عليها اكتشاف الخبر السعيد !

وعاد عباس يسألها إن كانت قد أخبرت أمها ؟

فبدى عليها الانفعال والحسرة .. وكيف لا تخبرها ؟

أتتركها لتكون آخر من يعلم ؟

أليس من حقها أن تعرف ، لتنتبه لنفسها وتحطاط ، قبل أن تهدمها أرجل القطب ؟

حاول عباس أن يطيب خاطرها ، طمأنها بأنه يرتب الأمور كما ينبغى ، وأنه حريص على حقوقهم ، وراحتهم ، ولن يغفل عن ذلك لحظة .

وقبل أن ينزلا من العربة أخبرته فايزة بأن أمها تريد أن تراه .

أحس عباس أن انشراح تقاوم الانفعال والحزن ، تحاول أن تتستر على كرامتها المجروحة ، لتبدو طبيعيه أمامه ، وكأن موضوع زواج القطب لم يشغلها ، أو يؤثر عليها .

قالت إن كلام فايزة عنه ، وتقربه المخلص إليهم ، جعلها ترتاح إليه ، وتطمئن على أسرارهم معه .. ولذلك فهى تريد أن تشاوره فى موضوع يهمها .

ثم سكتت انشراح ، فبدا التحرج يطفو على ملامحها ويربكها !

ظن عباس أن الأمر يتعلق بموضوع زواج القطب ، وأنها تريد أن تستطلع منه بعض الأخبار عما حدث ، وكيف ، ولماذا ؟

ففكر فى سلامة نية أن يسهل عليها الموقف ، فيبادر هو ويخبرها بما ينقذها من تردد الخجل .

قال فى أسف .. إن القطب فاجأه بالخبر يوم الفرح .. وأنها تدعى أم الخير ، ولم تتزوج من قبل ، وأنهما يقيمان حاليا ..

قاطعته انشراح فى مرارة ، وهى منكسة الرأس .

– يابنى اعمل معروف أنا لم أطلبك لكى أعرف أخبار الحاج أو غيره ، كل واحد حر فى أعماله ، أنا طلبتك لموضوع آخر .

ثم استجمعت شجاعتها وهمت باللسان فى غير تردد

– أريد أن أرى عمك الأسيوطى ، ولو لدقيقة واحدة .

فوجئ عباس بطلبها ، وبتوسل الملامح يستطلع فى تعفف ، يتمسح به حذرا ثم يتوارى .. وهى لا تكاد تستقر على مقعدها ..

– البنت لا توافق ، تقول إن الزيارة تفتح علينا مشاكل كبيرة .

وأنا محتاجة لكى أراه

فكر عباس فى طلبها فساوره القلق !

لو أن القطب عرف فستكون المشكلة ، ولن يغفرها له .. وقد يضطره إلى الانفصال عنه قبل الأوان ، قبل أن يتم استعداده لهذا الانفصال .

ثم أخذه التفكير إلى موضوعه ، إلى مشكلة زواجه المرفوض من فايزة .. فلاح له الأمل . قد تستطيع الأم أن تؤثر على الأسيوطى . تستهديه وتفهمه حقيقة الموقف حتى يقتنع ويوافق .

فلابد أن يوافق ... ولابد أن تكون فايزة من نصيبه .

وهم عباس بأن يخبرها برفض الأسيوطى ، ويرجوها أن تتوسط له ، أن تسترضيه بكل السبل ، ثم تزف إليه البشرى .. لكنه أمسك عن الكلام ، خاف أن تعتبرها مساومة فيجرح مشاعرها .

قال فى استجابة متوددة .

– على عينى .. سأتدبر الأمر وآخذك بنفسى .

دخلت فايزة لتضع الصينية ، فبدت ملامحها غاضبة !

سمعت أذناها ما قاله عباس فعرفت أنه طاوع أمها .

طلب منها عباس أن تجلس ، حاول أن يعرف سبب اعتراضها على زيارة أمها لأبيها ، ولكنها تركت الصينية وأسرعت فى عصبية .

واحتار عباس .. هل يستأذن الأم ليلحق بفايزة .. أم ينتظر ؟

(٥٦)

فوجئ عباس بكلام القطب يحاصره ، ويضغط عليه ، فتلجم لسانه وتنكست عيناه .. عجز أن يجد مبررًا منطقيًا يسوقه ، ليدافع عن نفسه .

وعلى الرغم من أن القطب بدا مترفقا به ، لا يثور ولا يتوعد ، إلا أن طريقته الساخرة فى الكلام ، وهدوءه البارد المفتعل ، جعلاه يتوجس منه شرًا ، يتوقع هجوم العاصفة فى أقرب لحظة !

– أتحسبنى نائمًا على أذنى يا عباس ؟

خسارة .. خيبت ظنى فيك .. ليس لأنك فعلت ما فعلت ، ولكن لأنك تجرأت على حدود فراستى ، واستهنت بإمكانياتى .

حاول عباس أن يتماسك ، وأن يمتص لحظة المواجهة مع القطب ، والتى باغتته قبل أن يستعد لها .

رن جرس التليفون فأخذ القطب السماعة .

– نعم ؟

وجاءه الصوت مغليا فى الصدر

– فعلتها يا قطب ؟

تميعت الابتسامة على شفتى القطب ، بينما يتشرب وجهه ملامح استغباء مدرب .

– معالى الوزير ؟ ... خير إن شاء الله . !

ولاحت فرصة الانسحاب لعباس ، فهدأت الدماء فى عروقه واطمأنت .. وبدأت قدماه تنسلان إلى الخلف فى هدوء .

قال القطب وهو يحك ذقنه متلذذًا

– الموقف كان أكبر منى يا معالى الوزير .

المحافظ حطنى فى « خانة اليك » يا معالى الوزير ، ثم لاتنسى أننى رجل ضعيف ، قليل الحيلة .

تطاير الصوت الغاضب ، وداهم أذنى عباس ، فأربك تراجعه

– تأتينى فورًا ، فاهم ياقطب .

وضع القطب السماعة فى تراخ .. قال ساخرًا يشهد عباس على تطاول الوزير .

– الوزير يهدد القطب .. أرأيت ؟

وتقدم عباس مضطرا ، رأى عينى القطب تقبضان عليه ، وتنتظران تعليقه .

تساءل وهو يبدى دهشته واستنكاره .

– معالى الوزير ؟ معقول يا حاج ؟

أخذ القطب الجريدة بين يديه ، وتطلع اليها وهو يزهو بصدره فى شموخ .

– ولكنى أكلته !

تصيد عباس الفرصة ليداهن غرور القطب ، فيسترضيه ، ويؤكد ولاءه الدائم وحرصه الشديد على ارتفاع مكانته يوما بعد يوم .. ثم من يكون هذا الرجل الذى يحاول أن يتجرأ على القطب ، أو حتى يرفع عينيه فى مواجهته ..

انسجم القطب من نفسه ، فراودته الرغبة أن يفكر بصوت عال . وأن يحكى كيف أكل الوزير بكل بساطة ، يستعرض مكره وذكاءه ويتلذذ ببريقهما ، أمام نفسه ،

وعلى مرأى من عباس وسذاجته ، وبعد أن اعتصره ، واستثار قلقه وتخوفه ، فضمن عطاءه المحسوب للمعركة الانتخابية .

ولكنه انتبه لساعته فجأة !

فالوقت يمر سريعًا ودقات المعركة الحاسمة تلاحق أذنيه وتملؤهما .

انفتح الباب ودخل أنور مهرولاً ، ومن خلفه رجل يعجز عن منعه .

– إلحقنى يا حاج ، إعمل معروف يا حاج ، زكريا راح فى شربة ميه يا حاج .

تلقاه القطب فى أحضانه وحمياته ، وراح يربت على ظهره فى مودة ، ويحط فى أذنيه كلاما حلوًا مهدئًا .

ولما أخبره أنور أن زكريا ابن أخته قد وقع ولبسته التهمة ظلمًا ، أبدى القطب انزعاجا هائلاً ودهشة .

– عملها فهمى عرفات الكلب

تساقطت دموع أنور على يدى القطب ، وهو يتوسل بحرقه

– مستقبل الولد ضاع يا حاج ، ربنا يبارك لك يا حاج

أمسكه القطب من كتفيه وهو متأثر

– جئتنى فى وقت مزنوق جدًا

عمومًا اطمئن ، كلها يومين وتنتهى زوبعة الانتخابات

ثم أخذ كفه بين يديه وضغطها فى استثاره .

– المهم همتك معى الآن ، لابد أن نصل إلى مقعد مجلس الشعب ، لنعرف كيف نطهر البلد من تلك الحشرات الوضيعة ، من فهمى عرفات وأمثاله .

– وزكريا يا حاج .

– لن يمسه مخلوق وأنا موجود

سرى الحماس إلى صدر أنور ، فراح يقسم أنه سيفعل المستحيل ، ليناصر القطب فى تجميع الأصوات ، وفى إعلاء كلمة الحق .

لم يجد عباس سوى أن يبتلع إشفاقه على أنور وابن أخته ، وأن يبتلع معه غيظه المرير من القطب .

نقر منصور الباب واستطلع وجه القطب .. هلى يدخل . ؟

أشار القطب لعباس ، فأخذ أنور ودعواته المتلاحقة إلى الخارج .

بدا منصور متوثبًا ، يلتمع الإعجاب فى عينيه وهو يومئ إلي الجريدة .

– ضربة معلم .. أكلت الوزير يا رجل .

قابل القطب إعجابه بتثاقل الواثق من عقبريته المتفردة .

قال إن المسألة لا تحتاج سوى مخ نظيف صاح وتحرك سريع .. وهذان متوافران والحمد لله .. ثم إنه فى النهاية لا يصح إلا الصحيح !

تساءل منصور ليداعب نشوة القطب فى مكمنها .

– معقول يقدم استقالته قبل الانتخابات . ؟

طوح القطب يده لا مباليا

قبل الانتخابات بعد الانتخابات لا تفرق .

ثم استدرك بعد أن سرح قليلا مع نفسه وراح يحذر منصور من الاستهانة بهياج الثور المذبوح لأنه لا يعى إلى أين يوجه ضربته ، ومن يصيب بها .. وتجاوب معه منصور بكل حماسه ، قال إنه أبرع من يتعامل مع مثل هذه الثيران الهائجة ، لأن المواجهة أصبحت على أرض ملعبه ، وفى مجال قبضته ، ثم مال على القطب

ليذكره بالمفيد .. فلم يبق على دخول المعركة سوى يوم واحد .. من ناحيته فقد أمسك عن الطعام والشراب والنوم ، ليتفرغ لمطاردة الأصوات اللابدة فى جحورها ، ويحثها على الخروج .

ومال منصور أكثر ليهمس بصوته المجروش ، نافخا القطب آخر خبطاته الفذة والتى لا يقدر عليها سواه فقد استعان بإمكانياته للتعرف على أعضاء لجنة القسم ، لجنة الانتخبات الرئيسية ، وتفاهم مع بعضهم بالفعل ، ودبر له لقاءً معهم ، ليتم التفاهم بطريقة عملية .

دخل عباس وهمس فى أذن القطب فتطلع إليه متسائلا ، ثم أومأ إليه برأسه .

هم منصور أن يواصل كلامه ولكن القطب لاحقه ، طلب منه أن ينتظره قليلاً فى الحجرة المجاورة .

بدا المكشوف متوترًا وهو يجامل ترحيب القطب بابتسامة مستعصية .. وعندما وصلا إلى المنطقة الساخنة فى الموضوع ، أبدى القطب تأثره الشديد لما حدث ، فلم يكن يتوقع أبدًا أن يحاصره المحافظ بهذا الشكل ، وأن يتسبب فى إحراج الموقف بينه وبين أخيه لهذه الدرجة .. ثم تساءل مستنكرًا .

– لا أعرف من الذى هيج المحافظ علينا هكذا . ؟

بدت المراوغة تنكسر فى عينى المكشوف ، وتتلمس طريقا ممكنا إلى رأس القطب ، رافعة راية المهادنة لمشكلة الوزير ، ومعلنة ولاءها وخضوعها لمقتضيات الأمر الواقع .. قال فى بساطة

– أيا كان ما حدث ، فلا يمكن التراجع .

ارتاح القطب لتعليق المكشوف . أحس به يطوع ضميره ويستعد به ، قبل أن يبدى تنكرًا لأخيه الوزير ، وأن يضع مصلحته الشخصية فوق كل اعتبار .

قال القطب إن معالى الوزير سيظل أخاه وحبيبه ، ومن جهته هو فقد عمل المستحيل لكى تمر عملية أرض أبو عافية بسلام ، أرضى كل الأطراف فى سخاء غير معقول ، بما فيهم أصحاب الأراضى المجاورة للحديقة ، أدار العمل بسرعة مذهلة ، فاقتلع الأشجار وهدم الأسوار وملأ الأرض بالرمال والزلط والأسمنت .. ولكن للأسف !

وخبط القطب كفا على كف .. لا شك أن المحافظ يكن حقدًا دفنيا لأخيه الوزير، لابد أنه يتربص به ليورطه ويلوث سمعته .. وإلا فلماذا يتصيد بعض شكاوى المغرضين ليشن عليهم هذه الحرب المسعورة ، وليثير ضدهم الرأى العام بهذا الشكل . ؟

لماذا يتهمهم بتدمير الأرض الزراعية ، واستغلال النفوذ لكسب غير مشروع ؟

ثم أين هو القانون الذى يدينهم . ؟

ومن الذى يعمل بهذا القانون . ؟

إذا كانت الشركة التى باعت لهم الأرض ، وهى شركة حكومية ، لم تلزمهم بطريقة استغلال هذه الأرض ، لم تضع فى العقد شرطا صريحا يمنعهم من إقامة المبانى عليها ، لأنه كان منتبها لهذا الشرط الخطير ، وضحى بالكثير ليتجنب إثارته ومشكلاته .

ثم جذب القطب الجريدة وألقاها أمامه وهو يشيع الانفعال على هيئته .

– *كنت مضطرًا .. هذا الكلام قلته تحت ضغط شديد من المحافظ ، الملعون أبلغ* الجهات العليا ، وأجبرونى على أن أعترف أمام الصحافة بمن هم وراء العملية .. وإلا !

وسكت القطب ليلتقط الأنفاس ، وليستشعر وقع كلامه على المكشوف ، بينما أخذ المكشوف قهوته وأراح ظهره إلى المقعد .

كان يعرف جيدا حقيقة ما حدث فى مكتب المحافظ . !

فالقطب هو الذى استغل فرصة غضب المحافظ ليتمادى فى استثارته ، ليشعل طرف الفتيل ويظل ينفخ فيه حتى ينسف الوزير ، ويفر هو ببراءة ساحقة !

والقطب هو الذى حرك الصحافة ، ليدلى لهم بأقواله ويطلعهم على مستنداته ، فمن جهة يطعن الوزير فى مقتل ، ومن جة أخرى يقطع على المحافظ خط الرجعة إن هو تراخى فى اتخاذ الإجراءات الرسمية . !

وكان المكشوف يعرف أيضًا أن أخاه قد خسر المعركة . وأن الحكومة لن تتركه يفلت بفعلته هذه المرة . !

وضع الفنجان فى تراخ وهو يحس بمرارة القهوة تتسرب فى حلقه ، وبعيون القطب المنكسة تختلس النظرات إليه ، توحى بأن الدور قد أصبح عليه ، وأنه على وشك السقوط ، بعد أن تعرى ظهره وفقد حاميه . !

قال المكشوف وهو يبدى ارتياحًا .

– عموما يا حاج الخيرة فيما اختار الله ، ومن يعرف . ؟

أيده القطب فى حكمته ، وأثنى على تعقله وذكائه ، وأبدى استعدادًا مخلصًا بأن يفعل المستحيل ليخفف الخسائر عن أخيه معالى الوزير ، وأن يدافع عن سمعته بأعز ما يمتلك . !

ثم تساءل وهو يشد على يد المكشوف فى تودد

– أكان من الأفضل أن تخسرنا نحن الاثنين أم أن يتبقى لك واحد منا ؟.

هز المكشوف رأسه متفهما ، ثم راح يطمئن القطب ويعده بالوقوف بجانبه فى الانتخابات ، وبكل إمكانياته . !

(٥٧)

بدا القطب متوجسا من كلام منصور ، عجز رأسه أن يضمه أو أن يلفظه ... ولأول مرة يشعر أن الرجل يجره إلى كهف مظلم ، ويتركه تائها حائرًا ، بينما يراقب تخبطه بابتسامته السمجة . !

فكر أن يهجم عليه ويخنقه ، ليعتصر الحقيقة من جوفه . !

ولكنه عاد يستمهل تماسكه قبل أن يفلت منه ، وفكر أن يتيح لنفسه فرصة المناورة ، لعله يهتدى إلى شعاع ضوء يخرجه من هذا المأزق .

قال وهو يتطلع إلى العقد ويتأمل بعض كلماته .

– إحك لى مرة أخرى ، وماذا حدث بالضبط . !

تهاون منصور فى برود ، وهو يبدى تعاطفا مع ظروف القطب الحرجة ، ونصحه أن يركز مشغوليته فيما هو أهم من موضوع أرض الأجرودى .. قال مطمئنا القطب .

– بعد نجاحك إن شاء الله سأشبعك حكيا ، لا تقلق يا حاج .

ثم قال وهو يتململ ، إنه يواجه حركات عيال من المأمور ياسر الشاهد ، فقد خيب هذا النذل ظنه فيه . !

– لا أعرف ماذا جرى للناس يا حاج . !

هذا الرجل بالذات كان لا يجرؤ أن يرفع عينيه فى مواجهتى ، من كثرة ما غمرته به من خدمات .. والآن أفاجأ بهذا الناكر للجميل يتنصل عن معاونتى ،

يبدى تعففا ونزاهة فى موضوع الانتخابات ، ويلوذ بعبارات الشرف والوطنية الصالحة . أتتصور يا حاج . ؟

تساءل القطب ورأسه مشغولا بالعقد ، الجاثم تحت عينيه .

– ماذا تريد منه . ؟

قال منصور ويده تحك ذقنه فى خشونة .

– هو المشرف على اللجنة المركزية ، واستقطابه يسهل لنا الحركة ، ويهيئ لنا حرية التصرف .

باغته القطب بنظرة متأنية .

– دعه لى .

دق جرس التليفون .. فهم منصور ومال على القطب ، قبل أن ينشغل بالمكالمة .

– لا تنس اجتماع العاشرة ، اللمسات الأخيرة فى منتهى الأهمية ، سلام . !

وأسرع إلى الخارج فى حماس .

كان المتكلم غليظ الصوت ، فاجأ القطب بطريقة مستفزة

– أنت فرس النبى .. انطق . أنت فرس النبى . ؟

تساءل القطب مستنكرًا

– من أنت . ؟

رد الصوت الغليظ مقتحمًا أذنه فى تثاقل .

– صديق صديقك يبقى صديقك ، ومحسوبك يبقى صديق أبو العينين ، مفهوم يا أبو الأفراس . ؟

توتر القطب وهو يسمع اسم أبو العنين ، ثم مالبث أن استجمع تركيزه وزعق في حسم

– أبو العنين من . ؟

طلباتك بالضبط . ؟

ضحك الصوت الغليظ ساخرًا .

– ألا تعرف أبو العنين يا حاج قطب .. على راحتك .. عمومًا لا يضر .. خذ المفيد .. معى أمانة لك ، من صديقنا أبو العينين .. وأنا رجل أمين ، هوايته أن يؤدى الأمانات إلى أصحابها .. ما قولك يا حاج . ؟

وقبل أن ينفعل القطب ويثور ، باغته الصوت الغليظ بضحكة متدفقة ، قبل أن يصعق السماعة ليقطع الاتصال ؟

تزاحمت التساؤلات المتوترة فى رأس القطب ، عاجزين عن صيد الإجابات الشافية ، متكالبة على بؤرة التفكير .

من يكون هذا البنى آدم .. وماذا يريد منه . ؟

أهو حقا صديق أبو العينين ، أرسله لينتقم له ، أم تراه مبتزًا يسعى للاصطياد فى الماء العكر . ؟

قد تكون نزعة شيطانية من منافسه الوزير ، ليشغله عن الانتخابات فى الوقت الحرج ويشتت تفكيره . !

انسحبت عينا القطب إلى عقد أرض الأجرودى واستقرت عليه .

عادت رائحة التربص والمخادعة تفوح من كلام منصور وتقتحم أنفه . !

آه لو يعرف ماذا يدبر الثعلب وإلام يرمى مكره الغويط .

أهذا الكلام يدخل الدماغ ؟ أيمكن أن تأتى مصادفة ، أن سائق عربة الزلط التى قتلت الدكتور عاصم مكاوى ، يتضح أنه أحد عساكر منصور القدامى . ؟

وإن كان .. فما هو الدافع الذى جعل هذا السائق يستولى خلسة على حقيبة القتل ، ويخفيها قبل وصول رجال الشرطة . ؟

هل يكون دافع السرقة . ؟

وهل كانت الظروف تتيح للرجل أن يتصرف بهذا المنطق ، وهو متورط فى حادثة قتل .. إلا إذا كانت خطة مرسومة ومدبرة . ؟

ثم لماذا لجأ الرجل إلى منصور بالذات ليطلعه على سره ويعطيه الحقيبة بما فيها . ؟

وكيف تسنى له ذلك ، وقد تم القبض عليه فى مكان الحادث . ؟

لا .. المسألة وراءها لعبة مدروسة .

وراءها دماغ ذكى ومدرب ، وكفاءة عالية .

ماذا يريد منصور بالضبط . ؟

قطعا يريد أن يبتزه ، ولأطول مدة ممكنة ، وبأكبر قدر من المال .

ولكن لماذا لا يلاعبه منصور على المكشوف ، فأوراق اللعبة كلها فى يده ، كما أن بجاحته لا يمكن أن يودعها تخوف أو وازع

ببساطة كان يمكن أن يصارحه ببروده المعتاد ، متباهيا فى صفاقة أنه دبر هذه الخطة من أجله ، ليريح دماغه من مشكله عاصم مكاوى وأوراقه الرسمية ، ثم يطالبه بأتعابه المناسبة .

أتراه يرمى لشىء غير المال .. أم يريد أن يؤجل موعد المحاسبة . ؟

ينتظر الفرصة المناسبة ليضرب ضربته .

معقول .. فالجوف المتسخ لا يكشف محتواه ، لا يبوح بما يتقيأه ، ولامتى ، ولا أين يرمى به . !

دخل منصور نشطا ، والتقط كف القطب بين كفيه فى حماس

– الناس ينتظرون ، الوقت سرقنا يا حاج .

وعند الباب . أمسك بكتف القطب وشد عليها فى جرأة ، بينما يخبره بكل ملامح وجهه ، أن معالى الوزير فى طريقه إلى الشد إلى عروسة الجلد . !

(٥٨)

خرجت انشراح من باب السجن وهى تجر رجليها .. توقفت وتطلعت .. كان عباس ينتظرها هناك ويتكلم مع سائق التاكسى ، ولما رأته مشغولا حطت الفكرة على رأسها وسيطرت عليه ، وبدون تردد أولته ظهرها وأسرعت هاربة فى الطريق المعاكس . !

كان وجهها شاحبا ، جامدا ، خاليا من أى تعبير ، بينما عيناها مفتوحتان على اتساعهما ، لا ترمشان ، والشفتان مزمومتان ، والأنف يتنفس بصوت مرتعش متلاحق ، واليد تسند أسفل البطن المنتفخ ، تقاوم رجرجته المؤلمة . !

وظلت مندفعة ، تهرول بكل عافيتها ، ونظرتها المستقيمة متحكمة فى كل حواسها ، تفر بها وتستحثها على المواصلة ، تنشط هرولة رجليها ودقات قلبها ، تطارد أشباحا تلاحقها وتفسح طرقا من أمامها . !

وفى الرأس طنين لا يكل ، يؤنبها ، ينهش خسة القطب ونذالته ، يتعلق برقبة الأسيوطى ويعنفها فى ذهول .. كيف صدقت .. كيف هان عليك أن تصدق . ! ؟

التوت رجلها فهرسها الألم .. وتكاثف الضباب فى عينيها فى غبش الرؤية ، وأحست بأنها تصطدم بأشياء لاتراها ، وبأن شرخ الصدر يتسع ، يتمدد إلى بطنها ، وتنحره أنفاسها المتلاحقة .. أنا أطلب الطلاق منك يا أسيوطى ، ماذا أصابك ، ماذا جرى لك . ؟

وبدون وعى راحت يداها تحاصران صخب البطن وتقلصاته ، تضغطانه بقوة وعصبية مرتعشة ، فيزداد الألم بداخله ويزداد تحجره .. وحتى لو كنت طلبت منك

الطلاق يا أسيوطى ، طلبته بلسانى وعينى فى عينك ، هل كنت تصدقنى ، هل كان قلبك يطاوعك هكذا فى بساطة ، يسمح لك أن تتخلى عن انشراح ، أن تدوس كرامتها وتضطرها لركوب الصعب . ؟ يا حسرتى عليك يا أسيوطى . !

تلاحقت دقات القلب فى صدرها ، عنيفة تتخاطف الأنفاس ، تضخ دما ساخنا مملوءًا بالغيظ .. تحرم علىّ معاشرتك يا قطب بعد اليوم ، لن تمس جسدى ، ولن تقع عينى على وجهك الكريه .. ولن أعطيك الولد ، سأقتله فى أحشائى وألفظ بذرتك النتنة .

تماوجت بها المرئيات ودارت أمام عينيها ، فقد جسمها توازنه وانهار ، حاولت أن تتعلق بشىء فلم تسعفها أطرافها المتخاذلة ، واهتزت وسقطت على الرصيف . !

(٥٩)

ترك منصور عبد الجبار أعضاء لجنة الانتخابات وانسحب إلى الخارج ، ناحية باب القسم .

اطمئن إلى أنه غذى كما ينبغى بذرة الحماس فى الرءوس المعطوبة ، وسقاها نشوة استحلاب الأمانى الشرهة .. فقد لاحت بوادر الخير ، والقطب فى طريقه إلى المقعد المنتظر ، ليصبح كل شيء متاحا وممكنا . كما لم يفته تزجية نبض الحذر فى صدورهم ، فهو صاحب الاتصالات الخطيرة ، واليد الطويلة ، فأين يذهبون منه ، إن حدث أى تلاعب فى العملية الانتخابية . !

أسرع أحد العساكر واختطف له مقعدًا ، فجلس منصور مفرود القامة ، وعيناه تحومان على شباك المأمور ياسر الشاهد ، وتتفرسان فى وفود الناخبين ، وتراجعان نقاطا هامة فى أجندة العمل ، وتتصيدان الوجوه التائهة فى الساحة .

نظر منصور فى عينى أحد رجاله المتصدرين باب القسم ، فاشتعل هتاف الحناجر ، وتراقصت اللافتات والأعلام ، وصرخت متناغمة أبواب الميكروباسات ، المحتشدة على جانبى الشارع ، والمملوءة بأصوات الناخبين والناخبات ، والكل يؤيدون نجاح القطب .

تحركت إلى الداخل طوابير الرجال والنساء ، متزاحمة لتدلى بأصواتها ، فنظر منصور إلى عجوز ملتح ، يعتمد بوهنة على عصا قصيرة ، فانهار العجوز متألما ، ساخطا مداهمة الهمج لشيخوخته ، ثم ما لبث أن راح يسخط على الوزير ومن يؤيدونه ، ذلك الظالم الجاحد الذى أضاع حقه وشرد عياله ، ثم زعق بكل صوته

- أرونى من ينتخب هذا المفترى فآكله بأسنانى

وانبرى رجل عفى الهيئة ، ليعين العجوز ويطيب خاطره ، بينما يحاول أن يثب بصوته إلى أبعد الآذان المتجمعة .

- قم يابا الحاج ، قم كل حى وله يوم ، ربنا على الظالم .

وأسرع رجل آخر ليساعد فى رفع العجوز ، بينما عيناه المثيرتان ، تشاغبان تجمع الوجوه المستطلعة .

- ربنا لا يساعد المتواكلين ولا الغافلين عن مصالحهم ، أفيقوا يا خلق ، كفانا خضوعا واستسلاما لأصحاب السلطة ، وأصحاب الكراسى والمناصب الرفيعة .

تماوت العجوز بين أيدى الرجلين ، وسرت الهمهمة والتعليقات بين الناس ، وهو يتوجع ويستثير شفقة المحيطين به .

- حسبى الله ونعم الوكيل ، حسبى الله . !

صاح رجل يرسم الشهامة على وجهه بشكل محبوك ، بينما يناول العجوز عصاه

- اطمئن يابا الحاج ، المفترى خلاص ، انتهى وغار .

وفى لحظات اتسعت دائرة اللغط المتسائل ، فتطاير الخبر واستشرى ، يناوش عطب الرءوس الساذجة .

الوزير تورط فى مشكلة رهيبة ، والحكومة على وشك أن تنحيه عن كرسى الوزارة . !

كلها يوم أو يومان وتجره النيابة ليتلقى جزاءه . !

لعلمكم القطب رجل نادر الوجود ، رجل القلب الأبيض واليد الطاهرة . !

يا عم قل يا باسط ، القطب منا وعلينا ، معلوم ، القطب عاش وتربى بين أوجاع الفقراء والمساكين ، ومن مثل القطب يا ولداه . !

توقفت عربة كبيرة أمام باب القسم ، وتعالت الزغاريد وتدافع النسوة من جوفها وهن يتضاحكن ويثرثرن ، وهياج أجسادهن ينفر من حشمة الجلاليب المتواضعة ، الصارخة تطلع منصور إليهن فى موارية ، وهو يناور بابتسامة ماكرة ، بينما يستعرض أمامه الحماس وإثبات الذات . !

كان يعرف أنهن تباشير بضاعة المكشوف ، وقد بدأن فى ممارسة دورهن التنكرى للمشهد الأول من الحفل الكبير .

ورجعت عيناه ترصدان شباك ياسر الشاهد ، فوجده يبث تعليماته للصول القصير المشدود أمامه ، بينما يختلس النظرات إلى الهرج الذى يملأ الساحة .

دارى منصور رأسه خلف جذع الشجرة ، وراح يتصل بالقطب ، ليطمئنه على جو الانتخابات فى اللجنة الرئيسية ، وأنه سيبدأ جولته على باقى اللجان . جاء عسكرى مهرولا لاهثا ، وطلب من منصور التفضل بموافقته إلى مكتب الباشا المأمور . !

تلقى منصور حماس العسكرى فى فتور ، بينما يبتسم لوجه بركات عبد الهادى وهو يفوت فى الزحام ، ومن ورائه وجه عفاف زوجته .

ثم دفع بإبهامه منتصبا إلى أعلى .. تمام كده .

فتجاوب معه بركات عبد الهادى بإيماءة مؤكدة .

(٦٠)

تدفق الدم ساخنا فى عروق القطب فكادت أعصابه أن تفلت منه .

أزعجه أن يرتكب منصور هذه الحماقة ، أن يطيش على هواه ويتصرف بهذه الجسارة ، وبدون الرجوع إليه ومشاورته . !

وضغط على صدره إحساس التخوف ، من أن تأتى العاقبة من الطريق المخالف فيضيع كل شيء . وبأسرع مما يتصور .

– ألم نتفق على التشاور يا منصور . ؟

وبدت الاستهانة متميعة على وجه منصور ، بينما يستخف بتوجس القطب ، قال إن المواقف هى التى تفرض نفسها . ومثل هذه المعارك لا يواجهها سوى القلب الميت ، القلب الذى يثب فى غير تودد ، وفى غير تراجع .

وقبل أن يترك الفرصة للأخذ والعطاء ، تساءل منصور ، مناوشا منبت العصب فى دماغ القطب .

– ألا تريد أن تعتلى المقعد . ؟

وحين تراءت له بوادر التشوق ، تَصَنْهَدُ من صدر الرجل وتموج فى عينيه ، راح يطمئنه فى يقين المتحكم فى أسرار لعبته ، ليمتص انفعاله ، ويسحبه فى طريقه .

قال منصور إن الأمر فى منتهى البساطة ، مجرد تخطيط عبقرى ، وفرصة ذهبية ، وعين لا ترمش .. وقد كان .. فتمت العملية آخر حلاوة .

لم يقتنع القطب بالكلام ، ولا بطريقة منصور فى إبداء استهانته بما فعل ، فازداد توتره واحتد صوته ، وهو يؤكد أنه صاحب الكلمة الأولى والأخيرة ، وأنه يعرف مصلحته جيدا ، ويعرف كيف يديرها كما ينبغى .

إتسعت إبتسامة منصور وظلت معلقة على وجهه ، تعلن حصانة صاحبها وتؤكد جدارته بهذه الحصانة .. وتثاقل صوته وهو يعترف بأنه لم يكن ليتصرف على هواه ، وأن ما فعله لابد أن يكون تلبية لإرادة القطب ومتفقًا مع كلمته الأخيرة .

ثم اقترب من أذن القطب وأرخى صوته .. قال إنه فوجئ بلجنة مدرسة البنات تخرج من تحت سيطرته ، لاتساع العيون وزحمة المكان وحزلقة أعضاء اللجنة ، فركبه الشك وأزعجه .

كم تراها عدد الأصوات التائهة ، والهاربة ، والمعارضة . ؟

فتخوف ، وفكر ، ودبر ، ولم يجد سوى الطريق الوحيد .. !

دفع بعض رجاله الأمناء لاختلاق المشاجرة المحبوكة ، وتبديل صندوقين بآخرين فى منتهى السرعة ومنتهى الحذر .. وتمت العملية بسلام .

ثم تراجع منصور وشد صوته مؤنبًا

– هل أخطأت . ؟

أكنت تريدنى أن أترك هذه الهفوة الخطيرة لتفسد كل شىء ، وتضيع كل شىء .

حاسب يا حاج ، منصور عبد الجبار لا يعترف بالفشل ولا بالتراجع ، المسألة مسألة سمعة وإثبات ذات ، وأنا سمعتى كالجنيه الذهب ، لابد أن ترتفع قيمتها رغم أنف الكبير .

لانت ملامح القطب ، وهى تستمرئ حماس منصور وتتشربه . كان يعرف أن معركة الانتخابات لا هوادة فيها ولا تردد ، وأنه إما أن يثب إلى المقعد فينجو ، وإما أن يفلت فتنكسر رقبته ويضيع .. ولذلك آثر أن يبتلع الموقف كما هو ، وإن

ترسبت فى الأعماق بذور الشك والتخوف ، مما قد يستغله منصورعنده ، حين يستشعر تهاونه وانصياعه تحت جناحه .

تساءل القطب وهو يجنح لموازنة موقفه .

– ومن أين أتيت بالصناديق ، وكيف ملأتهم . ؟

رن جرس تليفون العربة ، فرد القطب ، ثم ناول السماعة لمنصور ، وظل يرقب وجهه ، وهو يصدر أوامر للرجال ، ويشدد على الالتزام ، ثم يضع السماعة فى عنف .

وعندما هم بإعادة التساؤل ، لم يعطه منصور الفرصة

– أتظننا نلعب يا مولانا . !

الصناديق كانت مملوءة ومختومة بالشمع الأحمر منذ الأمس ..

إصح يا حاج . !

انتفض القطب ، بوغت وهو يرى هيبته تتهشم فجأة وتسقط عند قدميه ، فى اللحظة التى انطلق فيها منصور خارج العربة ، وهو يردد فى حماس .

– يريدوننى هناك ، الرجال يريدوننى حالاً ، سلام يا حاج .

ظل القطب جامدا ، يتابع صدى صوت .. إصح يا حاج .. إصح يا حاج .. وهو يبعث بحطام هيبته . مؤكدا فعلته فيها . !

(٦١)

تحامل القطب على نفسه وراح يطيب خاطر المأمور ياسر الشاهد ، يسوق حق الصداقة الممتدة التى تربط بينهما ، والذى حرص على أن لا ينال منها حاقد أو تمسها مكيدة ، يبوح فى إخلاص بأن منصور عبد الجبار مجرد أجير عنده ، يؤدى دورًا محددا ، وسيتخلص منه فور أن ينتهى هذا الدور .. ولذلك لا ينبغى أن يضعه فى رأسه . !

كانت عينا القطب شاردتين من الشباك ، تحومان هناك ، على وجوه الناخبين ، وتحطان على مجموعة النسوة ، المتدافعات فى صخب وحماس ، بقيادة نساء المكشوف ، وعلى نشاط أم ياسر وهو تتصيد بعض الناخبات ، وترشدهن إلى كيفية الإدلاء بأصواتهن .

قال ياسر الشاهد إنه استدعى منصور إلى مكتبه ، وحذره إن هو تمادى فى حركاته السخيفة ، ليؤثر على انضباط اللجنة ونزاهة العملية الانتخابية ، وأنه يراقبه بنفسه ويضيق عليه الخناق . !

وتجاوب القطب معه فيما يقول ويفعل ، بينما رأسه مشغول باختفاء عباس المفاجئ . !

فأين ذهب .. ولماذا لم يخبره أو يتصل ، وهو يعرف ظروف هذا اليوم بالذات . .؟

وعندما رجع إلى العربة عاود الاتصالات ، وأصابعه تفرك حبات المسبحة .

فلم يعثر على عباس . !

تساءل المكشوف بينما يفتح باب العربة ويجلس بجوار القطب

– هل أعجبك شغلى .. هه ما رأيك . ؟

شد القطب ستارة الشباك ليتجنب تصيد العيون المشاغبة . !

(٦٢)

فى إعياء شديد تسبلت العينان وارتعشت الشفتان .

وكان الوجه شاحبا يتفصد حبات العرق فى هوادة ، وفى استسلام . !

أحست بوخز يؤلم ذراعها ، وتراءى لها السقف زاحفا لأسفل ، متماوجًا يسبح فى ضوء فضي ، ينكسر على جفنيه ويثقلهما . !

– آه .. أين أنا . !

أسرعت فايزة تحتضن أمها فى تلهف وتغمرها بقبلاتها

– سلامتك يا ماما .. ألف سلامة .

واقترب عباس من السرير مستطلعا ، يبدى تأثرًا صادقًا لما حدث ، ويحمد الله على سلامتها .

بعد طول تمنع أخذت انشراح رشفتين من كوب العصير ، إرضاءً لإلحاح فايزة وعباس ، وكانت عينها ترقب بطنها ، ثم مدت يدها تحت الغطاء لتتأكد ، فوجدت ما توقعت ، بطن فارغ منكمش ، والألم ما يزال ينبح بين رجليها . !

تلاقت عيناها بعينى البنت فتم تفاهم خاطف .. همست لها

– هل مات . ؟

خافت فايزة من مفاجأة انفعال قد يؤثر على حالة أمها ، فتجاهلت سؤالها وراحت تلفق الأخبار المتناثرة لتشغلها عنه . كلها عن أختها حسنية وتلهفها على رؤيتها ، طمأنتها على حصولها على أعلى الدرجات فى الامتحان الأخير .

انطرح رأس الأم إلى الكتف منكسرا ، لم يهن عليه أن يلاحق البنت فى دروب التهرب ، فيزهقها ويضغط عليها .

قالت فى استهانة صادقة

– أعرف أنه مات .. لا تشغلى بالك .

خرج عباس .. وراحت فايزة تجفف وجه أمها وتسرى عنها ، وأحست ببوادر الارتياح تسرى فى ملامحها ، وهى تتمتم بهمسات الحمد والشكر لله ، على أنه خلصها من بذرة القطب ، انتزعها بطريقة تلقائية ومشروعة .. ثم تجهمت الملامح فجأة وفارت ، وخرج الصوت من الصدر ملتاعا محموما . !

فلقد ذبحها القطب وسلب روحها .. النذل .. استغل ظروفها وبراءتها ليوقعها ويستفرد بها . !

حاولت فايزة أن تهدئها ، تتوسل إليها أن ترجئ موضوع القطب حتى تسترد عافيتها ، ثم يكون الحساب .

ولكن دم انشراح ظل يغلى ، وأنبوب الجليكوز تجف ويهز الزجاجة المعلقة على الحامل .

– الملعون غشنى .. جعلنى أبصم على طلب الطلاق من الأسيوطى على أنه توكيل للمحامى . !

أنا أطلب الطلاق من الأسيوطى . ؟

أنا أطلب الطلاق من أبيك يا فايزة . ؟

وهاج فى جسدها هذيان جامح ، لم يستطع صدر البنت أن يهدئه بضماته وتوسلاته . !

– لابد أن أفضحه على رءوس الأشهاد . !

لابد أن يعرف كل الناس أن القطب غشنى ليتزوجنى . !

ثم باغتت البنت بتساؤلات تنزف اللوم والأسى ، تتهمها بأنها عرفت الجرم الذى ارتكبه القطب فى حقها ودارته عنها . !

عرفته من عباس الذى لم يعد يخفى عنها سرًا ، ثم تكتمت عليه صدرها ، وضنت به حتى على أمها . !

– حسرتى عليك يا انشراح ، حتى البنت هان عليها أن تتركك تتمادين فى ظلم الأسيوطى وظلم نفسك . !

وهبت فايزة منفعلة ، وتحلف لأمها وتتقطع ، فهى بريئة من ظنون أمها ، ولم تعرف بهذا التصرف الخسيس سوى الآن ، ومن فم أمها كما أكدت لها أن عباس أيضًا لم يعرف ، وإلا لكان باح لهما عن طيب خاطر ، وما كان ليكتمه فى صدره أبدًا .

– عباس يعتبرك أمه .. صدقينى يا أمى .

ثم راحت تذكر لها أن عباس هو الذى أسرع بها إلى هنا ، إلى المستشفى ، بعد أن وقعت فى زحام الشارع . !

كما أن عباس هو الذى لاحق الأطباء ، وظل بجانبها يرعاها ، حتى أنقذها الله وتجاوزت الأزمة . !

استكانت انشراح فى رقدتها .. هدأت أنفاسها وبدأت الدماء تنساب باردة فى صدرها ، وتمتص توتر الدماغ وغليانه . !

وعادت يدها تزحف إلى بطنها

– خلاص .. لم يعد هناك ما يربطنا بذيل القطب .. سنرجع لبيتنا القديم يا فايزة .

دخل عباس أكياسا مملوءة بالفاكهة والمعلبات ، وعلى وجهه تبدو ملامح الاطمئنان والسعادة .

أخذ يد انشراح وقبلها

– سلامتك يا أمى

نظرت إليه بااتساع عينيها ، وهى تضغط على يده فى استجداء وعرفان

– لا أريد أن أراه أبدا بعد اليوم .. أتعدنى يا بنى . ؟

هز عباس رأسه مؤكدا ، ومقتنع برغبتها ..

بعد أن غفلت انشراح ، أخذت فايزة عباس جانبا لتكلمه ، فبدا الاستنكار على وجهه وهو يستمع لها .

قالت إن أمها لن تخرج من هذه الأزمة بسلام ، فالقطب أصابها فى مقتل ، يومها ، يوم أن دخل أبوها السجن ، جعلها القطب توقع على طلب الطلاق من أبيها مدعيا أنه توكيل لمحامى القضية ، ثم أخبر الأسيوطى أن زوجته لم تعد تريده ، وأنها لفظته وتخلت عنه ، وظل يستثيره ويؤجج الغيظ فى صدره حتى سمع منه يمين الطلاق ، طلاق زوجته انشراح . !

(٦٣)

- وهو ينهى مكالمته التليفونية ، ألقى منصور بالخبر المفاجئ فى أذن القطب .

فانشرح صدره ، وسرت الدماء منتشية فى ملامحه ، تفضح فرحة الشماته والسخرية .

انزاح أخيرا معالى الوزير عن طريقه .

سقط ولن يقوم أبدا .. ترك الجمل بما حمل وراح يعلق جراحه بيد منكسرة وأنف فى التراب .

خسارة .. كان يتمنى أن يراه فى هذا الموقف ، وهو يقدم استقالته مجبرا ، لكى يربت على كتفه ويواسيه ، يؤكد له أن اللعبة أكبر منه بكثير ، ومن كل إمكانياته وذكائه ، وأن المبارزة بالعقول تختلف كثيرا عن مبارزة الجعجعة والاحتماء بحصون المناصب .. ولكن للأسف ، فالظروف لم تعد تسمح ، وما يشغله الآن أهم .

تمدد القطب فى مقعد العربة ، وراح يتلذذ بهواء التكييف فى ارتياح .

انتبه إلى وجه عباس يتطلع من خلف الزجاج مترقبا .. وعندما دخل وقعد بادره وهو يرخى عينيه .

- أين كنت ؟

قال عباس فى ثبات ، وعين لا ترمش .. إن هناك ظرفا طارئا أخره .

وعاد القطب يسأل وهو يبدى هدوءًا مفتعلا .

– ما هذا الظرف الطارئ ؟

وزد عباس فى تثاقل ، إنه ظرف خاص ، وسيخبره به فيما بعد .

ناوش القطب شعيرات ذقنه .

– ظرف خاص .. آه

ولابد أنه أهم مما نحن فيه

تساءل عباس وهو يبدى استعباطا متناهيا ، بينما أصابعه تعبث بأكرة الباب .

هل تأخر عليه كثيرا ؟

وهل كلفه بشىء ولم يفعله ؟

ثم هل يريد منه شيئا الآن ؟

تضاحك القطب ساخرا ، ويده تربت على رجل عباس

– رائحة كلامك لا تعجبنى يا عباس .. عموما ليس وقته ..

تجاهل عباس ما يرمى إليه القطب ، من تلميح بالوعيد ، وظلت أصابعه تعبث بأكرة الباب فى صوت متوتر ، ثم بادره فى جدية .. أنه محتاج لأجازة فورية ، ليوم أو يومين .

بدأ الانفعال يتسرب إلى رأس القطب ، ويعكر صفوه .

– نعم ؟

أتقول أجازة يا عباس ؟

هز عباس رأسه مؤكدا ، وفى عينيه يتجمد الإصرار .. فانفلت زمام القطب رغما عنه .

– وتتبجح بها أمامى يا عباس .. أجازة .. وفى هذه الزنقة بالذات ؟

أكيد أصابتك لطشة فى نافوخك وأفقدتك وعيك .. لا .. فق لنفسك وانتبه ، واللقمة التى ابتلعتها أكبر من حلقك سأجعلك تتقيأها ، وبأسرع مما تتصور .

هاج جوف عباس ولم يعد يحتمل محتواه ، أيقن أن اللحظة قد حانت ليقذف به ساخطا فى وجه القطب ، ليستنزف سمومه التى سرت فى عروقه زمنا ولم ترحمه ، فلعله يتمكن أخيرا من إنقاذ ما تبقى من نفسه ؟

وفى اللحظة التى هم فيها بالانفجار ، دق جرس التليفون ، وتدفق الصوت الغليظ فى أذن القطب .

– أنا صديق صديقك يا أبو الأفراس .. فاكرنى ؟

توتر وجه القطب واندفعت يده تصفق السماعة لتقطع الاتصال .

وعاد الجرس يزعق فى إصرار ، والقطب يتطلع إليه فى غيظ .

وارتعدت السماعة على وجهه وهو يتوعد بكل فمه .

– ابتعد عن طريقى يا جبان أحسن لك .

سمع عباس ضحكات الصوت الغليظ ، وهى تصطدم بأذن القطب وتتطاير من حولها .

– أنا جبان يا أبو الأفراس ؟

وماله .. لا يضر .. أصل كلامك عسل .. قل كمان .

احتارت عينا القطب بين وجه عباس وأرضية العربة .

– لآخر مرة أحذرك ، لا تلقى بنفسك فى فم الأسد .

وعادت الضحكات تسوق سخرية الصوت الغليظ .

– إن كنت أسدا بحق فاخرج من عربتك وواجهنى .

تلفت القطب فى استخفاف ، يستطلع الخارج من خلال الزجاج ، فلم يجد أحد يرقبه أو يتربص به ، كما لم يثر انتباهه أى تحرك مريب ، فى الطريق أو بداخل حوش القسم ، فتراخى فى مقعده وعيناه تشاغبان وجه عباس من تحت الأجفان ..

وقبل أن يهم بالسخرية من صاحب الصوت الغليظ ، فوجئ به مبادرا مستفزا .

– هل خفت يا أبو السباع ؟

أتخاف أن تنزل من العربة ؟

يا خسارة الرجال .. ألف خسارة ..

ثم فوجئ بعينى عباس تحاصرانه ..

ألقى القطب بالسماعة ودفع باب العربة منفعلا ..

وقبل أن تنتصب قامته مزق الهدوء صوت طلق نارى مباغت ..

(٦٤)

أقبل المأمور ياسر الشاهد متحمسا يجتر انفعاله ..

وكان منصور منهمكا فى حديث جانبى مع رئيس لجنة الانتخابات ، بجوار حجرة فرز الأصوات.

وعندما وصل إليهما تشاغل بإلقاء نظرة على الصناديق ، يراجع عددها ويتأكد من سلامة هياكلها وأختامها .

همس منصور لرفيقه بأن الغذاء جاهز للجميع ، وينتظرهم على تشوق فى الغرفة المجاورة .

– أهذا كلام ؟

يا رجل لابد أن نخطف لنا لقمة تسندنا ، قبل أن ندخل فى معمعة الفرز ووجع الدماغ .

اقترب منهما ياسر الشاهد ، وهو يثير نظرة موحية إلى ساعته ، بينما لاتبدى ملامحه ارتياحا لحديث الرجلين معا ..

قال لينهى الموقف .

– أظن نبدأ العمل

تباسم رئيس اللجنة فى نعومة لازجة ، وعيناه تداهنان وجه المأمور ..

قال إن الرجال لم يذوقوا لقمة واحدة منذ الصباح ، وإذا جاعت البطن يامولانا ، تاهت الدماغ .. ثم إن عشر دقائق زيادة لن تقدم أو تؤخر فى مصير العباد .. •

تبادل منصور وياسر الشاهد نظرات خاطفة متلاحقة ، تفاهما من خلالها جيدا بلغة عتاولة الكار الواحد ..

فأخرج منصور من جيبه ورقة مطوية ، وقدمها لياسر الشاهد ، وهو يهتز بقامته المتوثبة فى استعلاء .

– الشغل شغل ياباشا .. تفضل .

تراخى ياسر الشاهد فى مد يده ، وتصدت عيناه لترقب الوجه المستخف ، لتحاصر تماديه فى سماجة المناورة .

– أعرف ما بها .. أعطها لرئيس اللجنة .

تدخل رئيس اللجنة متطفلا وأخذ الورقة ونظر فيها .

قال فى حماس مفتعل .

– توكيل سليم مائة فى المائة ..

من الحج قطب للباشا منصور ، يعطيه الحق فى مراقبة .

– فرز الأصوات .. كلام جميل .

ثم دس الورقة فى جيبه ، وحاول أن يلطف الجو بين الرجلين ، وأن يبدو مرضيا لكليهما .

– اطمئنا على الآخر .. ستسير الأمور هكذا .

وشرع إبهامه فى مواجهتهما مؤكدا بطريقة ساذجة .

جاء مهرولا ، رجل على هيئة حائط الصد ، ومال على رأس منصور وأخذ أذنه بين شفتيه الغليظتين ، وراح يبث بكل ملامحه ..

تطلع إليه منصور بوجه متعكر ثم شده ، وانطلق به مهرولا ، بينما يتساءل فى تلهف .. أين .. وكيف وهل ؟

(٦٥)

فى تشوق محموم أخذت انشراح البنت إلى صدرها ، ضمتها ، وبكل وهن قوتها راحت تضغطها إلى نفسها ، وتنهال عليها بقبلات متلهفة ، تلهج بحرارة حرمان جاش فجأة .

– حبة عين أمك يا حسنية .

واستسلمت البنت لأحضان أمها ، تستشعر الدفء والحنان ، وفى عينيها بدأ الإشفاق الطفولى عاجزا عن الإدراك ، لا يعرف سبب بكاء الأم ، ولاسبب رقادها هكذا فى المستشفى ..

– مالك ياماما ؟

كان صدر انشراح متأودا ، يفطر بالدعاء ويستحلبه فى تمهل ، يبتهل به إلى صاحب العطاء ويرجوه ، لعله يمن على عباس بخير الجزاء .

فلم تكن هى تتوقع أن يستجيب الرجل بهذه السرعة ، ويأتى لها بالبنت ، محملة بالهدايا والفرحة .

فوجئت فايزة برأس أختها يروح فى النوم ، وهو مدسوس فى صدر الحنان .. فحاولت أن تريح أمها ، ولكن الصدر أبى أن يفرط فيما استحوذ عليه ..

– دعيها كما هى .

ثم قالت انشراح أنه لم يعد هناك داع لبقائها فى المستشفى ، وأنها تريدهم أن يأخذوها لبيتها القديم ..

وطاوعتها فايزة ، طمأنتها بأن عباس قد جهز لهم شقة رائعة ، وأنها اختارت لها أجمل حجرة فيها . وأن عباس يلح فى تحديد موعد الفرح .

بدت عينا انشراح صافيتين ، تكشفان عن فرحة الأم ، وهى تفور فى الأعماق ، بينما تضغط بكلتا يديها على يد البنت .

– أنا راضية عنك يافايزة .. ربنا يسعدك يابنتى

ثم أبدت رغبتها فى إصرار أنها تريد أن تعود لبيتها القديم ، لابد أن تعود إليه أولا .. وبعدها يفعل الله ما يريد .

ودارت عيناها فى استعطاف ، تبحثان عن عباس .. أحست أنها تتلهف على لقاء الأسيوطى مرة أخرى ، أنها تريد أن تنظر إليه كما ينبغى وتكلمه ، تدخل فيه وتهزه فى عنف ، ثم تمسح دموعه وتتوسد صدره لترتاح ، ترتاح .. وتريحه هو أيضًا .

(٦٦)

اعتدل المزاج فتطوح الدماغ منسجما ، يرتكن إلى بلاطات القيشانى الناعمة ويناوش برودتها ، بينما العينان مسبلتان والشفتان تمتصان من السيجارة فى تلذذ .

– كل الأمور آخر حلاوة .

وبدأت الأمعاء تلين وتتقلص ، تطارد خمول الإمساك إلى أسفل ، وتلاحقه فى همة حتى النهاية .

وتمددت الابتسامة الساخرة على وجه منصور ..وكان يتخيل منظر القطب وهو يتنكر لرعبه المفضوح ، وهو يحاول أن يستجمع أشتاته المنهارة ليتماسك ، يدعى أنها مجرد رصاصة طائشة من معتوه ، هتف بجوار أذنه وراحت لحال سبيلها ، بينما ترتعش يده بالسبحة فى تواتر ..

– قدر ولطف ياحاج .. والله .. انت فيك شىء لله .

ويرى نظرة القطب حائرة ، لا تكاد تطمئن على اتجاه ، وقد أخذ أنفه يتضخم وعيناه تحمران .

– ألم تلمح الفاعل ياحاج ؟

إشارة بطرف إصبعك ، فأجعله يلعن يوم مولده .

يسترخى القطب فى مقعد العربة ، ويملأ صدره بهواء التكييف لعله يبترد .

– أتقول الفاعل ؟ ومن يجرؤ ؟

ثم يباغته جرس التليفون .. فتتردد يده .. ويتطاير الصوت الغليظ من حلق السماعة ، ويتناثر على أذن منصور ، بعد أن يصطدم بأذن القطب .

– إياك تحسبنى أخطأتك يا أبو الأفراس .. عيب يا رجل .. أنا ألاعبك .. أتسلى عليك .. أما الأمانة إياها فستصلك فى الصميم .

ويراقب منصور تواتر الانفعالات على ملامح القطب ، والصوت الغليظ يحاصره ويستخف به .. ثم ينتبه منصور ، يتملص فجأة من جو تخيلاته ، فيشد ملابسه بسرعة وهو يؤنب نفسه .

– كل هذا الوقت فى دورة المياه .. معقول .

ثم ينطلق مهرولا إلى الخارج .

(٦٧)

جاءه الخبران فى نفس اللحظة . !

وفى نفس اللحظة انتفض الصدر وجاش ، تفسخ داخله شىء عملاق ، تفسخ بغته وفى عنف شديد ، ليصبح شيئين عملاقين ، أحدهما يتصاعد إلى أعلى ، يضرب بجناحين عفيين منتشيين ، تشوقا إلى رحابة جو مثير يتراءى وينفرج ، والآخر يتداعى إلى أسفل ، إلى أعماق قاتمة ، تحاصره كتل الصخر المسنون ، يتخبط عليها ذبيحا متحسرا .

سكب القطب كوب الماء المثلج فى جوفه ، ولكن الشىء المتكالب على جدار الصدر ظل يتفسخ ويعاند فى إصرار .

مات الولد ياقطب .

راح وانتهى أمره .. جمع خلاصة الآمال والأشواق وسقط بها فى عالم الغيب .

سقط فجأة ، تاركا فى أذنك صدى كلمة بغيضة ، لن يخرج منها أبدا .

مات .. مات الولد .

ولكن هل معنى ذلك أن ترفع الراية وتستسلم ؟

تترك نفسك فريسة سهلة لليأس والحزن ؟

وتظل تقلب صدرك على نار لاترحم ، حتى تنسلى وتذوب .

يارجل .. أنسيت أنك نجحت فى الانتخابات ، فزت يا أبو الأفراس ووصلت إلى مقعد مجلس الشعب .. خطفته فى جسارة من بين الأنياب المتصارعة وفررت به ..

ومن اليوم أصبحت تعتلى رءوس العباد فى شرعية مطلقة ، أصبحت شخصية عامة ومحصنة ، صاحب رأى محسوب وكلمة مسموعة ، والأكثر من كل هذا فقد أصبحت قادرا على أن تفتح ذراعيك على اتساعهما وتجمع ، تحصد من خيرات الله فى حرية وأنت مطمئن ، وأنت محصن ، تحميك أقوى سلطة فى البلد .

آه .. متى تتمطى فى مقعد المجلس وأمامك الميكرفون .

لا يهم الآن ضياع الولد .

لا ينبغى أن تحزن على الإطلاق ، أو أن تشتت أفكارك ، فتضيع من دماغك لذة الانتصار العظيم .

لا يهم الآن ضياع الولد ، مادمت لم تزل عفيا ، ومادامت أرحام النساء ، لم تزل ماثلة تحت ساقيك ، تتمنى وتستجيب

الأمل موجود يا أبو الأفراس ، وسيظل موجودا لآخر لحظة من عمرك ، لآخر لحظة .

عاد صوت الطبل والزمر يستفرد بأذنه .. كان يملأ القصر ويتردد صداه إلى أرجاء الحى .

وكان المهنئون يتوافدون ، يدخلون ولا يخرجون .. بينما رنين التليفون لا يكف لحظة ، عن زف عبارات التهانى والتملق .

ودخل منصور مبتسما ، مرسوم الملامح متعالى الصدر ، وعينه تلاطف وجه القطب ، وتمهد لأمر مرتقب .

وفى اعتذار ضاغط تمكن من الزحام واحتواه إلى الخارج ، ثم أغلق الباب بالمفتاح .

جلس فى مواجهة القطب ، وأخذ كفه بين يديه ، وهنأه فى حماس .

– ألف مبروك يا معلم فرس النبى ، أقولها من القلب والله .

بوغت القطب بكلمة فرس النبى فتغيرت ملامحه ، بينما ظلت عيناه معلقتين فى توجس ، على وجه منصور ، تستطلعان وتتحفزان

قال منصور وهو يضع رجلا على رجل ، إن الوقت ضيق ، ومقعد مجلس الشعب ينتظر ، وهناك أمور لابد وأن تحسم بشكل واضح ، وإلا .. لفسدت اللعبة وغدرت بالجميع .

تململ القطب وهم بأن يندفع ، فواجهته كف منصور ، وأمره أن يهدأ ويستمع ، أن يصنت جيدا لما يقول ، وبعدها سيتركه يتكلم على هواه .

– صدقنى أنا أخدمك ، لقد وجدت ملف المعلم فرس النبى أنظف بكثير من ملف الحاج قطب .

ثم راح يبرر له وجهة نظره ، بينما يغوص فى حضن كرسيه ويداعب السيجارة بشفتيه .. فالمعلم فرس النبى لم يستول على أموال الناس بالباطل ، لم يزور ويغش ، لم يغدر برجاله ويلقى بهم فى السجون ، لم يقتل ولم يعتل كرسى السلطة بالبلطجة وتخدير الرءوس ، لم يفعل الرجل شيئا من كل هذا ، كل ما هنالك أنه كان يساهم فى عدل الأمزجة المنحرفة ، فى صهللة جو الشبورة الممتع .. المعلم فرس كان مجرد لاعب مبتدئ ، يلعب فى عدة ملايين هايفه .. أما الحاج قطب فقد تجرأ على عرين الكبار ، زج برأسه بين رءوسهم ، ليزاحم فى لعبة السياسة ، وينهم وجه الدسم .

انفجر غليان القطب رغما عنه .

– اخرس .. أنا قلت ؟

اتسعت السخرية بملامح منصور ، وهو يخرج شريط الفيديو من الحقيبة ويلوح به .

– كله بالصوت والصورة .

ثم زج بالشريط فى الفيديو ، فظهرت على شاشة التليفزيون حادثة عربة الزلط ، وهى تدهم عربة الدكتور عاصم مكاوى ، ظهرت بالتفصيل وبما يوحى أنها مدبرة ، مع سبق الإصرار والترصد .

فالسائق بعد أن تأكد من موت الدكتور عاصم ، أخذ من عربته حقيبة المستندات وأخفاها ، ثم اعترف أمام الكاميرا أنه نفذ أوامر القطب ، فهو واضع الخطة ومدبرها . انتفض القطب ، لسعته الدهشة فسبقه لسانه .

– أنا دبرت هذا ؟

اخرج قبل أن أقطعك وأرميك للكلاب .

قال منصور فى استخفاف .

– حاسب .. هذه لعبتى أنا

ثم تناول علبة مملوءة بالشرائط الكاسيت ووضعها أمامه .

– نسختك .. كل حرف نطقه لسانك فى هذه الحجرة ، ومنذ أن دخلتها أنا لأول مرة ، ستجده مسجلا هنا ، وبمنتهى الأمانة .

تضاحك القطب وراح يعبث بمسبحته ، أراد أن يتحايل لالتقاط الأنفاس ، ولكى يحدد أبعاد المأزق الذى ابتلعه فجأة .

تجاهل منصور حركات القطب ، وظل يواصل كلامه .. أخبره أن الشرائط مسجل عليها كل الطرائف ، كعلاقته المشبوهة بالمكشوف وعوامته ونسائه ، وكصفقات الوزير المخزية معه ، ورشاوى كبار المسئولين ، وحبك المؤامرات والخطط .

قاطعه القطب وهو يبدى استسلاما لحصار الفخ القابض عليه .

– ما علينا .. أتهدد القطب ؟

تساءل منصور بكل بجاحته .

– أتشك فى هذا ؟

وتمدد صدر القطب على آخره .

- أتجرؤ ؟

وهز منصور مقدمة حذائه فى تواتر .

- أستطيع أن أبيدك وأنت فى قمة فرحتك .

أخذ القطب سيجارة من علبة منصور وأشعلها .

- وطلباتك ؟

- صداقة متينة .. ومشاركة بما يرضى الله .

- أتعرف أنت ما يرضى الله ؟

- ما يرضى الله أنك لا تصل إلى مقعد المجلس أبدا .

وعلى فكرة ، كل ما حدث فى حجرات الانتخابات تم تسجيله أيضًا بالصوت والصورة ، فقط للذكرى ، لمجرد الذكرى .

تساءل القطب فى نفاذ صبر .

- طلباتك .. خلصنى .

فأبدى منصور استمتاعا فوارا ، وهو يلاعبه على نار هادئة .

- وعلى فكرة أيضا ، صديق صديقك تفاهمت معه ، وأخذته فى جيبى هذا ..ولن يخرج منه .. إلا إذا ....

أحس القطب بصداع شديد يداهم رأسه ، يتكالب عليه فى شراسة ، جارشا فى أذنيه صوت منصور ، ناثرا فتاته لغطا عديم المعنى .. بينما ظلت ملامح منصور تنتفخ وتتلاعب أمامه ، حتى ملأت الحجرة .

(٦٨)

كان جاثيا على ركبتية فى خيمة من ضباب متكاثف ..

يجاهد ثقل جفنيه لعله يرى شيئا ، ويحاول أن يستر عرية المتمدد فى تهويمات الشبورة ، ويحاول أن يتقيأ كلاما متحجرا فى قاع المعدة . !

وتراءى له وجه أخيه عبد التواب ، متماوجًا مع دفقات الضباب المتداخل .. العين المذعورة تتلهف ، والعين المكلومة تقاوم ، وفى الحلق دماء تغرغر ، بينما ينز الصوت مرا لاسعا .

هاتهم يابن أبى .. هاتهم يا فرس النبى .

فتحركت تلقائيا اليد إلى أعلى ، وانسلخ عن الإصبع الخاتم الفضى ذو الفص الغريب الشكل ، كما انسلت عن الصدر الساعة الفضية ذات الكتينة .. ثم ما لبث أن ابتعد الاثنان وابتلعهما جوف الضباب . !

تمدد وجه عبد التواب وتحرك الفم ، خرج منه صوت عباس حزينا متمردا .

لأنى عرفت ما عرفت ، فمن الآن أنت من طريق وأنا من طريق .

ثم عاد وجه عبد التواب ينكمش فى تماوج ، بينما تتميع ملامحه وتمتصها تهويمات الضباب فى بطء شديد .

أراد أن يزعق بكل أعضائه .

أراد أن يتملص من غلاف الجبس الذى يضغط على جسده ويشل حركته .

ففوجئ بأياديهم عريضة مثل المطرحة ، ثقيلة مثل حجر الرحاية ، وهى تتلقفه وتؤرجحه ثم تقذفه إلى أعلى ، فيصل مرعوبا إلى نهاية السماء المعتمة ، ويرى الأرض تبتعد أسفله ، كرة من حراب مسنونة ، يرتجف قلبه وهو يهوى إليها .. فتعود الأيدى تتلقفه وتؤرجحه إلى أعلى .. وكانت وجوههم زاعقة فى همجية ، ساخرة فى شماته ، وهو يقاوم الهبوط إليهم ، فى كل مرة ، وفى كل مرة يتعرف على وجه آخر ، من وجوه أهل بلدته ، المتزاحمين فى ساحة جرن القرية . !

وفى المرة الأخيرة تلقفه وجه أبيه منكسرا ، فدخل فيه لائذًا مرهقا .

– أضعت الولد يا فرس النبى

وكانت انشراح تجرى فى صحراء مترامية ، تحمل بطنها الكبير وتغربه ، وهو يلاحقها فى يأس ، التفتت إليه وبصقت شيئا ارتطم به فى عنف ، ثم توقفت على حافة البئر ونادت على الأسيوطى بكل عافيتها .

توسل هو بصوت مختنق ، وعيناه تعتصران الدموع ، قبل أن تصلها يداه كان صوتها يتردد محلقا فى جوف البئر .

راح الولد كما أتى .. راح .. راح .

انتفض القطب لاهثا ، خلع نفسه غصبًا من جوف الكابوس الثقيل .

تطلع حوله والعرق يبلله ، وتراءى له الصمت جاثيًا على جو الحجرة ، وعلى قطع الأثاث ، وعلى شحوب الضوء .

كيف وصل إلى حجرة نومه . ؟

ومن الذى وضعه على سريره وتركه هكذا وحيدا ؟

كانت الستارة تهتز فى انسجام ، تتمسح بغبشة الفجر المتهادية فى الجو وتمتص رمادية لونها .

انتبه فانشرح صدره ..

قم يا فرس النبى ، انشط يا رجل فاليوم عيدك .

وناوشته لحظة دخوله قاعة المجلس ، وهو يخطو ثابتا متعالى الهامة ، إلى عالم المقاعد البنية اللامعة ، والميكروفونات الفضية المتناثرة ، ووجوه الزملاء ، والوزراء ورجال الأعمال ، وكلها تبتسم فى ارتياح ، وتتكلم فى اطمئنان .

وازداد صدره انشراحًا ..

أين هى ملابسى الجديدة ؟

أين ملابس مجلس الشعب الموقر ؟

وعندما هم من سريره ، انفجر صوت الطلقة المباغتة وهى تحف بأذنه فى سرعة رهيبة . !!

الجـزء الثــانى

ما بعـد القاع

(٦٩)

** داعبت رقبته الناعمة بطرف إصبعها فضحك فمه الصغير وعيناه المنداتان ، وتدافعت يداه ورجلاه تضرب الهواء .

أخذتـه إلى صدرها وضغطت فى تشوق .. بكى .. تطوحت به تقذفه إلى أعلى ، فى حرص ، وفى تخوف ، وتلتقطه بسرعة ، بينما تضحك ملامحه وترتعش بتشنجات الفزع .

وضعته فى سريره

– حالا أجهز لك الرضعه .

وذهبت إلى المطبخ ..

كان السكون والظلام يحطان على " الفيلا " المنعزلة بضاحية حلوان .. وكان ضوء المطبخ يسيل من الشباك المفتوح ويغمر مساحة من حشائش الحديقة ، وجذوع الأشجار ويناوش قفزات الضفادع على الأرض الرطبة .

تجاوز شبح الرجل حجرة البواب ..

كان يمشى هناك بمحازاة سور الحديقة ، ويتلفت فى حذر .

دق الجرس فتوجهت الدكتورة هبة لتفتح الباب .

– نعم يا عم عرفات .

طالعها وجه الرجل وهامته تسد الفراغ .

تعلقت عيناها بعينيه ..

- نعم .. ؟

بدت ملامحه مترددة ..

- آسف للإزعاج ..

وجاء من الداخل صوت الولد ، فلا حقته متعجلة

- نعم .. أى خدمة .. ؟

تعلق القلق بنظراته ، فراحت تبحث من خلفه عن البواب

ثم نادت ...

رجاها أن تهدأ .. فلن يأخذ لحظات من وقتها .

تطلعت إليه متوجسة .. وعادت تنادى بكل صوتها .

- عم عرفات .. إنت يا عرفات .

لاحظت عدم اهتمامه .

قال إنه بحث عن البواب ولم يجده ..

كان الباب الخارجى مفتوحا فدخل .. وعموما فهو .. إنه من التليفونات ، من أعطال التليفونات .

لم يرحها الكلام ، فالبواب لا يبتعد ، لا يترك باب الحديقة مفتوحا ، ولا يمكن أن يدخل أحدا بدون إذنها .

وعادت تزعق على البواب .. والرجل يراقبها ..

- قد يكون هنا أو هناك ويعود حالا .

دفعت الباب فى حسم .

– لم تبلغ عن أعطال .

اصطدم البـاب بصنـدوق العـدة الرابض على الأرض فلم يـعـلق . نظرت إليـه منفعلة ..

أزاح الصندوق برجلة " سنة " للداخل بينما يستعطف

– حلمك يا هانم .. هـناك تداخل فى خطوط المنطقـة ، الإصـلاح خـمس دقـائق ، مجرد خمس دقائق .

ورأى التردد عالقا بوجهها ..

فـراح يوضح أن جـارهـم يوسف البنهـاوى المحـامى هو صـاحب الشكوى ، وأنه قريب رئيس الهيئة شخصياً ، وقد اتصل به رأسا لسرعة إصلاح خطه العطلان .

ثم تمسكن الرجل وهو يقول إنه عبد مأمور .

دفعت الباب فى زهق ..

– تعالى الصبح .. عندى شغل الآن .

اعترض الباب بيده الكبيرة .

– اعملى معروف يا هانم .. أنت تقطعين عيشى .

ثم بدا يتذكر شيئًا يؤيد موقفه .

فهو قد أتى توا من عند المحامى ، ويمكنها أن تتصل به لتتأكد بنفسها .

ثم أخرج بطاقته العائلية وقدمها فى حماس ، راجيا أن تتـأكد من وظيفته بنفسها لكى تقطع الشك باليقين .

ظلت نظراتها حائرة ، بين فحص بيانات البطاقة ، ومراقبة الرجل ، والتلهف على الولد الباكى .. !

بينما ظل هو يلح ويعد بإنجاز مهمتة فى لحظات .

طلبت منه أنه يبقى مكانه ، وأن يعطيها رقم المحامى .

اطمأنت ملامحه وراح يدعو لها ..

ردد فى حماس رقم المحامى ..

أسرعت الدكتورة هبة لحجرة الولد ..

وضعت " الببرونة " فى فمه وأسندتها بالوسادة ، لاحظت بللا بين رجليه يضايقه ويبكيه .

تسللت إلى الشباك الجانبى وأطلت على الحديقة .

حجرة البواب معتمة والسكون يحط عليها .

- أين اختفى الملعون . ؟

عادت إلى الصالة وعينها تخطف النظرات ناحية الباب الخارجى ، حيث يقف الرجل مترقباً .

رفعت السماعة وأدارت قرص التليفون ..

تساءلت عن المحامى يوسف البنهاوى .. فجاءها صوت امرأة يقول إن النمرة غلط .. !

هم الرجل بالدخول ليساعدها ، فحذرته بنظرتها من تخطى الباب .

وطالبته بإعادة ذكر الرقم .

أدارت القرص مرة أخرى .. وعند الرقم الثالث فوجئت بإصبع غليظة تسقط على التليفون وتقطع الاتصال .. !

فزعت وهى تراه واقفا إلى جوارها ، طويلا كالحائط والابتسامة تتردد على وجهه .

- من أذن لك بالدخول .. ؟

تماوت فى صوت متوسل ..

- أرجوك يا هانم لا داعى للشوشرة .

ثم فى حماس وعيناه تلتمعان .

- الحمد لله تذكرت .. أين الحاج قطب .. ؟

فوجئت بما يقول ..

- وماذا تريد من الحاج قطب .. ؟

وضع صندوق العدة على الأرض ووضع رجله عليه ، بينما يلوم نفسه

- معقول يغيب عن رأسى .. !

يا هانم الحاج قطب يعرفنى .. يعرفنى جيداً .

تصادمت الأفكار فى رأس الدكتورة هدى وتداخلت ، همت بالتحرك ثم توقفت ، ثم وجدت نفسها تتوقع فى عصبية ، وتنادى بكل صوتها عند مطلع السلم الداخلى .. نادت أولا الشغالة .. ثم عادت تنادى القطب وتطلب منها النزول ..

تقدم ناحيتها فى تثاقل وهو يطوح ذراعية ، بينما عيناه ترصدان السلم فى ترقب .

- أنت ظلمتنى يا هانم ، حالا تتفتح الأمور ويطمئن قلبك .

مرت اللحظات ثقيلة عليها ، وهو يداعب طرف السيجارة بمقدمة حذائه ، وينتظر معها نزول القطب ، وارتطم شىء بأرضية حجرة الولد ، عرفت أنها " الببرونة " فهمت بالإسراع . تراجعت وصعدت درجتين من السلم ونادت القطب ويداها تهزان الدرابزين فى عنف ، ثم نزلت متأففة .

تساءل فى تودد .

- مالك يا هانم .. هل أزعجتك .. هل تخطيت حدودى لسمح الله .. ؟

ثم مشى متمهلا ناحية حجرة الولد .

- سأذهب للولد واطلعى أنت للحاج .

لاحقته واعترضت طريقة ..

- إسمع .. أمامك خمس دقائق تخلص شغلك وتنصرف . هز رأسه ممثلاً طائعاً .. جلس بجوار التليفون وفتح صندوقه .

قالت وهى تدخل حجرة الولد ..

- الحاج قطب نائم ، وأكيد سيصحو وينزل الآن .

هز رأسه فى غير اهتمام ، وأخذ عدة التليفون على حجره وظل يعبث بها فى تراخ ..

غيرت للولد ملابسه وكان لا يكف عن البكاء .. حملته وظلت تهدهده بينما تراقب الرجل من بعيد .

كان رأسها يعتصر اللوم فى همه ، وفى ضيق ..

فلماذا لم تفحص بطاقته جيداً لتتأكد وتطمئن ، فقط تعلقت نظرتها بصورته الباهته ولم تتركها لبقية البيانات .. هو لم يعطها الفرصة . !

لماذا لم تغلق الباب من البداية وتأمره أن يذهب للبواب . ؟

حركات ملامحه لا تريحها ، تشعرها أنه جاء لشىء آخر غير موضوع التليفون ، وإلا فلماذا اعترضها قبل أن تتصل بنمرة المحامى . ؟

أهى فعلاً نمرة المحامى ، أم أى نمرة لتسليك الأمور . ؟

ثم هل القطب يعرفه حقًا كما يدعى ، أم أنه يحتال عليها لعلمه بأن القطب غير موجود ، وليس نائما بالطابق العلوى ، والشغالة أيضًا غير موجودة ، عادت تختلس

النظر من الشباك ، متلهفة أن تلمح ضوءاً أو حركة عند حجرة البواب ، ثم تعود لمراقبة الرجل فى الصالة ..

انتبهت إلى أن وجه الولد راح فى النوم ، وهو مبتسم .. وضعته فى سريره وقبلته وغطته ، فوجئت بصوت الرجل يأتى من خلفها ، قريباً من أذنها .

– طفل جميل . !

وقبل أن تنتبه من دهشتها رأته ينحنى على الولد .

دفعته بيديها .

– اخرج من هنا .

طاوع فى بلاده وتراجع .. ثم تجمدت وقفته عند الباب وظل ينظر ناحية الولد .

– لا تخافى يا هانم .. عندى مثله .

هاجت الدكتورة هبة ودفعت الشباك فى عصبية وهى تنادى البواب ، فشرح صوتها جوف السكون ، ومرق بين الأشجار والظلام ، ثم ما لبث أن ارتمى على الأرض هامدا .. والرجل لا يعبأ وعيناه على الولد

تقدمت ناحيته وبدت متحفزة .

– هل أنهيت شغلك . ؟

ولما رأته يراوغ لاحقته فى حسم .

– وحتى إن كنت لم تنته ، خذ حقيبتك واخرج فوراً .

وهاج الدم فى عروقها ، وظل الرجل متجمدا فى مكانه

أسرعت إلى التليفون ..

– سأجعلك تندم كل الندم .

ولكنها فوجئت بالتليفون ميتا .. !

ضبطته ورجرجته عدة مرات ولكن لا فائدة .. !

قال وهو يتقدم ناحيتها .

- أرجوك لا داعى لكل هذا

همت بالاندفاع فدق جرس الباب .

شلتهما المفاجأة لحظات ، فتجمدت نظرة الترقب المتوتر بينهما .. !

استل من صدره مطواة ملتمعة النصل .

شهقت وتراجعت .. وقبل أن يسبقها صوتها صارخا ، رأت المطواة موجهة إلى صدر الولد ..

- افتحى الباب ، ولو حاولت .. !

وقرب النصل حتى لامس مكان القلب .

لم تستطيع أن تجر رجليها .. !

مشت ودقات قلبها تنتفض فى صدرها وفى أذنيها ، ورأسها رغما عنها يتشبث بالولد .. !

فتحت الباب بيد مرتعده ..

- نعم يا دكتوره .. هل ناديتنى . ؟

بدا صوت البواب مخدرا وعيناه تائهتان .

أجابته بصوت لا يطاوع .

- أنا .. لا .. لم أناد

أمسك البواب رأسه بيديه .

- لا أعرف .. تخيلت أنك تنادين على يا دكتوره .

ثم تركها ومشى فى بلاده . توقف مستدركا ، وعاد إليها ..

- الألم فظيع يا دكتوره .. !

لا تؤاخذينى حسبتك تريدين شيئًا .

ثم راح يستعطفها أن تبحث له عن حبايه تخفف الصداع .

كانت تنظر إليه ورأسها رابض هناك عند الولد .. !

قالته ستبحث له .. ثم أغلقت الباب

وهرولت إلى الداخل .

كان الرجل جالسا بجوار الولد ، ينظر فيه ويتلمس خده بإصبعه .

اختطفته متخوفة وأدخلته فى أحضانها .

قام الرجل وأغلق الشباك المطل على الحديقة ، ثم أطفأ ضوء الحجرة وهو يطلب منها أن تخرج إلى الصالة .

جلس متراخيا .. بينما ظلت هى واقفة ، تنظر إليه ، ملامحه غير مطمئنه على الإطلاق ، توحى بجرأة لا تتورع عن ارتكاب أى حماقة ، وظلت تراود نفسها ، هل تأخذه باللين والمسايسة ، أم تستجمع شجاعتها وتثور عليه .. ؟

المشكلة هى الولد .. !

لو كانت بمفردها لعرفت كيف تتصرف مع هذا المتشرد .

سألته مبدية توددا ، بينما ترهق ذاكرتها عملية البحث عن مكان المحمول

- أرجوك صارحنى .. ماذا تريد بالضبط .. ؟

تأملها لحظات ، ثم أجاب فى استخفاف أنه يريد أن يأكل .

ظنته يسخر منها ، يتلاعب بأعصابها قبل أن يكشف حقيقة نواياه .

ولكن ما هى نواياه .. ؟

قالت وهى تهدهد الولد بدأ يتململ بين يديها .

– تأكل .. فقط تريد أن تأكل .. ؟

هز رأسه مؤكداً فى غير تحرج .. فتمدد الشك فى صدرها لابد أنه جاء ليسرق ، عرف أنها بمفردها فى الفيلا فأراد أن يستفرد بها .. وإلا فلماذا قطع حرارة التليفون ، وأختبأ من البواب ، وهددها بقتل الولد .. ؟ !

قالت معاتبة

– أهذا سلوك من يريد أن يأكل .. ؟

وضع يديه على بطنه وهو يراوغ بعينيه .

– الجوع كافر يا دكتورة هبة ، انتبهت مندهشة ..

إنه يعرفها ، يعرف أن اسمها الدكتورة هبة ، كما يعرف أيضا القطب ، كما يدعى .. !

ما هى المسألة بالضبط .. ؟

وبدا وجهه متعاطفا مع حيرتها ، يوحى بأنه مشفق عليها من إزعاج الشك كما يوحى بأنه تسرب إلى رأسها وعرف ما يشغله .

التقط " شخشيخة " الولد وظل يعبث بها .

– وأعرف أيضاً أن الحاج قطب غير موجود ،

وأننى اضطررت للتصرف مع البواب لكى أتمكن من الدخول .

حاصرها التخوف وبدا يدور برأسها ، لقد صدقت شكوكها ، فهذا الأفاق خطط لكى يفاجئها ويستفرد بوحدتها ، وبالتأكيد لكى يغتصب شيئًا يريده .

سألته وهى تبدى الملاينة .

– إذا كنت تريد مالا فأنا ..

وقاطعها مستنكراً بشدة ما تظنه به ، فهو لا يريد سوى أن يأكل ، فقط مجرد أن يأكل ، ثم بعدها يخرج في هدوء .

لم تجد بدا من الاستجابة ، وإن كانت لم تقتنع على الإطلاق بمسألة الأكل هذه .!

– سترى .. ها هو الأكل .

واتجهت إلى المطبخ ، وهو يتبعها ، ثم تقدمها وأغلق الشباك المطل على الحديقة ..

فتحت الثلاجه وهى مشغولة بالولد ، فهمّ ليحمله عنها ..

– هاته لا تخافى .

جفلت وضمته فى حرص .. فتراجع وجلس متراخيا ، وعينه عليها ، وهى مرتبكة الحركة ، مشتتة الفكر ، تحمل الطفل بيد ، وبالأخرى راحت تجهز الطعام .. وفجأة وقع الطبق من يدها ، فانكسر على البلاط وأحدث صوتًا مزعجًا ..

ابتسم لها مؤنبا .. وعاود المحاولة فى جرأة

– هاتى الولد ، لن آكله .

وأخذه منها عنوة قبل أن تفكر فى المقاومة ، وقبل أن تفلت الصرخة من جوفها .. وعندما انتبهت إلى أن الولد قد أصبح بالفعل بين يديه ، وفى حوزته ، ألقت بكل تفكيرها وأسلحتها واستسلمت .. !

– أرجوك دع الولد وخذ كل ما تريد .

بكى الولد فى أحضانه ، فراح يهدهده ويلاعبه .

قال وهو يرشقها بنظرة عتاب .

– أنا أب ! !

استكان الولد على صدر الرجل ، بينما يدور بعينين مرتعشتين مستطلعا ملامح وجهه .

ضمه أكثر إلى صدره وتساءل فى استعلاء .

- أرأيت الانسجام .. ؟

انهمكت فى تجهيز الطعام وهى تتماسك ، فالطريق الوحيد أمامها أن تبدو طبيعية ، متجاوبة قدر طاقتها مع رغباته ، لعلها تتلمس كوامن الخير فى صدره .. آه لو تتذكر أين وضعت المحمول .. ! وعندما أمسكت بالسكين لتقطع الخبز داهمت الفكرة رأسها وسرت كالبرق فى كل حواسها ، فراح قلبها يرتجف .. !

لم لا تبادر بغرس النصل فى صدره .. ؟

تفاجئه بالهجوم ثم تخطف الولد من أحضانه قبل أن ينتبه ويقاوم .. ؟

وراحت تختلس النظرات إليه فى حذر ..

وكان يناوش وجه الولد بشاربه ، فيقشعر الوجه وتشنجه الضحكات المتلاحقة ، ترددت ، وارتعدت السكين فى يدها ، قد تصيب الولد رغما عنها ، أو قد يدهمه فى حركة عشوائية قبل أن يسقط .. ! وفوجئت بعينيه تمسكان بها فى حالة تلبس ، وقد بدتا مطلعتين على ما يراود رأسها وتحذران فى عنف من سوء العاقبة ... !

وضعت الأطباق ممتلئة ، وهى تنفض مؤقتا عن الرأس هواجسه .

- الأكل جاهز .

وأخذت منه الولد .. لاحظت أنه لم يتركه بسهولة ، وطلب منها أن تجلس على الكرسى المقابل ، ثم راح يأكل فى نهم ..

- اعذرينى لم آكل منذ يومين .

هزت رأسها فى استخفاف .

- كل براحتك .

قال فى تأثر وفمه مملوء بالطعام ، بينما يومئ إلى الولد ..

– أنا مضطر لأن أستعيره منك يوماً واحداً .. !

ردد لسانها بدون وعى ..

– نعم .. ؟ ماذا تقول .. ؟

ترك الطعام وظل إصبعه يدور بالملعقة ويحاورها ، بينما عيناه منكستان فى شرود ، ويدأ صوته متراضيا .

– كنت أستطيع أن أخطفه .. أو آخذه بالقوة ..

تساءلت مستنكره ..

– تخطفه .. ؟ تأخذه بالقوة .. ؟

ثم لاحقته إن كان قد انتهى من طعامه .. وقبل أن ينطق راحت تذكره بوعده لها إنه لايريد سوى أن يأكل ، وهاقد أكل وشبع ، فعليه أن يخرج من بيتها فوراً ..

هز رأسه ممتثلاً .. ثم انحنى ناحيتها متوددا .

– أعرف أننى أواجه دكتوره مثقفه وعاقلة .

لذا أدخل من باب التفاهم

ثم تراجع إلى الكرسى وعاد يدير الملعقة بأصبعه .

– أنا أحرص على الولد منك .

سأكون عند كلمتى وأعود به غدا .

رأت شيئًا فى عينيه يعبث بسرها الكامن فى الصدر ، وأحست بالولد يتململ فى أحضانها .

هل تنطلق إلى الحجرة وتغلق الباب عليها ؟

قد يكسر الباب وينقض عليها ، يتهور مقتحما كل شىء .

انتبهت إليه يتساءل فى استطلاع .

- ألا تثقين بكلامى .. ؟

انفجرت فيه ..

- اخرج قبل أن أرتكب جناية .

وأسرعت تدفع الشباك فى عصبيه وتصرخ .

شدها وكتم صوتها وظل يقاوم انفعالها وتهديدها ، أرهقها حتى انهارت وارتمت لاهثة على المقعد .

وكان الولد يبكى فى أحضانها مرعوبا .

قال لائما ..

- التهور يزيد الأمر تعقيداً .

أحضر " ببرونة " الولد ومد إليها كوب الماء ، فأزاحت يده .

هدأت أنفاسه فراح يعتذر لها عن خشونته .

فلم يكن فى نيته أبداً أن يتجرأ عليها ، فهى التى أجبرته على أن يتعامل معها بهذه الطريقة .

كان صوتها ينزف غيظاً ..

- من أنت .. ؟ ماذا تريد .. ؟

قال متعاطفا معها ..

- لو تركتنى أتكلم من البداية .

وهى تقاوم البكاء ..

- أتركك تأخذ طفلى . ؟ !

سكت لحظات .. ثم قال إنه مضطر ..

فلو عرفت ظروفه لعذرته .. !

عاودتها الفكرة فراحت تغريه بالمال ، وفى نفس الوقت تشجعه وتهون عليه المسائل .. فكل إنسان يمكن أن يقع فى أزمة ماليه . يمكن أن يتورط فى بئر من الديون ..!

ثم إن هيئته وتصرفاته توحيان بأصالة مدنية ، وأنه رجل ابن ناس .

شكرها مخلصا .. ومؤكدا أنه لم يكن ليدخل بيتها من أجل الابتزاز أو السطو ، ثم إنه لم يقصد إزعاجها على الاطلاق .

وترفق صوته وهو يرجوها أن لا تسىء الظن به ، فهو الإنسان المضطر ، المجبر على ركوب الصعب ..!

وفوجئت بنظرته المستعطفة تتلكأ عليها فراودها التوجس .

أتراه يريدها هى .. ؟

هل يطمع فيها .. يرسم كل هذه المناورات لينالها هى .. ؟

يعرف أنها بمفردها فى البيت ..

افتعل حكاية الولد لكى يضغط عليها ..

ممكن .. وإلا فلماذا يرفض المال ..

فراحت رغما عنها تتوعد بنظرات مرحبة ومحذرة .

وأطرق هو فى أسف . فاضحا ومستنكرا ما تفكر فيه ، وما تخدش به شهامته .. قال إنه يريد الولد لإنقاذ حالة إنسانية ، وأنه لم يأت إلى هنا من أجل المال أو أى شىء آخر يخايل رأسها . زعقت فى نفاد صبر ..

- وأنا لن أعطيك ولدى .

واندفعت إلى الحجرة ساخطة .. وضعت الولد فى سريره وتحفزت لأقصى ما يحدث .. !

تصورت كل الظروف تتآمر لتضعها فى المأزق .

فلماذا سمحت للشغالة وزوجها الطباخ أن يذهبا ويتركاها بمفردها .. !

وراحت عيناها تنبشان عن المحمول ، بينما تختلى النظرات إلى سكون الرجل هناك ، وكان هادئا شارداً . استقرت على أن تحاول .. لابد أن تحاول .

جامت ناحية الشباك ثم تجرأت وفتحته فى هدوء . أطلت تستطلع إمكانية القفز ، فساورها الشك .

ماذا تفعل إذن .. ؟

آه الولد أولا ..

وتصيد الفكرة رأسها الملتهف . فاختطفت المهد المحمول من تحت سرير الولد ، ثم وضعت الولد فيه وغطته جيداً .. حملته إلى الشباك وراحت تدليه فى حذر ، حتى قارب حشائش الحديقة فتركته ليستقر عليها .

وحين استدارت مستطلعة فوجئت به يسد الباب ويلوم ساخراً .

– هكذا تدفعيننى لارتكاب الصعب .. !

ارتمت على الشباك وصاحت تنادى .

فأسرع إليها مادا كلتا يديه .

أفلتت منه وجرت إلى الصالة ، فاحتار بينها وبينى الولد . كانت تحاوره فى استماته وهى تنتفض رعبا وتوسلا .

وراح يطاردها ليسكتها .

صاحت فيه مهدده .. أن القطب لن يتركه إن مسّ شعرة منها . ولمح هلعها ونصل مطواته يبرز من الحقيبة فلم تتردد .

اختطفتها وصوبتها إليه فى تحد .. !

حاول أن يهجم عليها ـثرت رحله بالمعقد فوقع ، تمكن من طرف روائها فتشبث به وظل يشدها .. خارت قواها فوقفت عليه وهى تشهر المطواة . أحست بنصلها

ينغرس فى كتفه فصرخت مرعوبة . جرت إلى الباب وظل هو راقدا يتوجع . حاولت أن تفتح فوجدت الباب موصداً ، وكان البواب ينادى عليها من الخارج .

اندفعت إلى باب المطبخ فوجدته أيضًا موصداً ،

أين المفاتيح الاحتياطى .. ؟

هل هى فى غرفتها فوق .. ؟

وخذ لها رأسها فى التذكر فأسرعت إلى أقرب شباك وقفزت منه ، وبطريقة عشوائية .

التوت قدمها تحتها وآلمتها ، وهرول البواب ناحيتها مفزوعا .

- مالك يا ست .. يانهار أزرق .. !

لم تستطع أن تدوس على رجلها ، وحاول البواب أن يساعدها على النهوض فتمنعت ، وطلبت منه أن يسرع إلى حيث تركت الولد ، هناك تحت الشباك الخلفى ، ويأتى به .

حاول البواب أن يفهم شيئًا ، ولكنها لم تعطه الفرصة ، فانطلق مهرولا بجوار المبنى ، وظلت هى ترقب وتتسمع فى انتباه .. !

دلكت رجلها وهمت أن تتحامل عليها ، وكانت الحشائش مروية فسرت الرطوبة تحتها تنشع من ملابسها .. وجاء البواب لاهثا وقال إنه لم يجد الولد هناك ، وأكد أنه بحث عنه جيداً ولكن بلا جدوى .. !

وانخطف قلبها فاندفعت وراءه فاقدة الإحساس بآلام رجلها ، بالتأكيد هو هناك ، وبالتأكيد البواب لم يره فى الظلام .. !

طالت المسافة تحت قدميها وهى تهرول فى عرج ، حتى وصلت أخيراً إلى هناك ، تسبقها عيناها إلى المكان المنشود ، فوجدت المهد كما هو ، قريبًا من سيل الضوء المنسكب من الشباك .. فرفرف قلبها وحط مطمئنا فى مكانه .. !

اختطفته وأسرعت إلى الجراچ ، والبواب يلاحقها متعثراً لاهثا بالدعاء

- هات العواقب سليمة يارب

وضعت المهد فى المقعد الخلفى وركبت وأدارت السيارة ، انطلقت بها وهى تزعق للبواب أن يغلق الباب جيداً ولا يخرج أحداً .. !

اختطفت يدها المحمول من " تابلوه " العربة ...

(٧٠)

** طلب أحد الرجال الأربعة من سائق الجيب أن يسرع قليلا ، وكانوا يتبادلون القفشات ويضحكون .

تناغم صوت المحمول فتكلم أحد الرجال الأربعة وهو يتطلع إلى الخلف ، حيث تلاحقهم المرسيدس الفخمة فى رزانة .

جاءه صوت منصور عبد الجبار آمراً أن يعود لسرعته ، ويظل عليها إلى أن يصلوا المحافظة .. فعادت الجيب تتمهل فتخضع لسرعة المرسيدس من خلفها .

أخذ منصور راحته فى المقعد المخملى وانفرد يتمطى بجسده .

ومسح القطب فمه وبدا معتمر المزاج مما أكل ، ثم دفع صينية العربة فى اكتفاء ، وكان عليها بقايا كافيار وفوارغ استاكوزا وتوست مدهون وزجاجة وكوبان .

قال القطب وهو يناوش رجل منصور .

– مستوى مرتفع من التقنية

وتكيف منصور من الطريقة التى ينطق بها القطب كلمة التقنية ، فبادر يقارعه بالألفاظ .

– هكذا تكون العولمة ولعبة الجات يابو الأقطاب .

وأقسم بشرف الحكومة أن يترك له ميكروفون الحفل ، ليقول على راحته طوال

الوقت ، يقول تقنية ، وعولة ، وجات وانبعاج إقتصادى ، يقول كل ما عنده حتى تتخدر الأدمغـة المرصوصة هنـاك . ثم أشـعل السـيجار الفخم المستورد ، فبدت ملامحة منتشية ، تتأمل الدخان فى هيام .

– الأغبياء يحاربون الاستيراد ، تصور ، ما دخل نظرية الانتماء بنظرية حب اللقمة النظيفة والمزاج العالى ؟ !

ثم تساءل مبديا الامتعاض .

– كيف نفكر ونسهر على مصالح الخلق ونحن نتعاطى المضروب والمسلوخ .. ؟

ضحك القطب وهو يردد .. المضروب والمسلوخ .. ؟ حلوه .. آخر حلاوة . تناغم المحمول " الخاص جداً " .

انتبه القطب .. اللهم اجعله خيراً .

تسمع قليلاً وانشدت ملامحه .

– أحضر الآن .. ؟

ثم اندهشت ملامحه .

– أتقولين كارثة ؟

وارتفع صوته مستنكراً .

– لا أريد أن أسمع ما حدث .. افهمى الكلام أنا مشغول .

وصاح بشكل حاسم .

– افعلى ما تشائين .

بتساءل منصور إن كانت هناك كارثة حقيقية ، أم أن الأمر لا يتعدى انهيار الاقتصاد القومى فى البلاد .. ؟

بادله القطب نظرة نصف العين وهو يلقى بالمحمول .

- هرش نافوخ .

ثم بدا منبها لكلاكس الچيب المتواتر الصوت من أمامها ، وراح يعاتب منصور على هذه الزفة ، فهى تحصيل حاصل لا مبرر له .

وتضاحك منصور مستخفًا .

- الدنيا راكب ومركوب يا عضو .. ونحن جئنا لنركب .. !

(٧١)

** كان الجو مضببا أمام السيارة ، وهى تنطلق فى رعونة ، انتبهت الدكتوره هـدى إلى أنهـا أخطأت الطريق ، تاهت فى الشوارع التى تمر بها يوميًا وتعرفها جيدًا .. !

فعادت تبحث وتركز ، وكان الأسفلت والمبانى والأضواء يهيمون فى شبورة تجثم على الزجاج وتضايقها .

وكلما لمعت فى مخيلتها لحظة شق النصل لبدن الرجل اقشعرت أحاسيسها ، وتاه فكرها فى تساؤلات لا تتوقف .. !

ماذا جرى .. ؟

ما الذى يجعلها تستسلم لهذا الكابوس المفزع .. ؟

الموضـوع فى بساطة أنها تعـرضت فجـأة لموقف دفـاع عن النفس ، يمكن لأى إنسان أن يتعرض لمثله ، وأن يتصرف فيه كما تصرفت هى .

وإلا فالبديل أن كانت تتركه لينال منها .

ماذا كان يريد .. ؟

لا تعرف .. لم يعطها الفرصة لأن تفهم حقيقة لعبته .

أتراه دخل بيتها لائذا من مطاردة تحاصره وتضيق عليه الخناق .. ؟

ساقته الأقدار فى عفوية إلى بيتها فدخل ، وراح يتحايل ليبقى .

ولكنه يعرف زوجها القطب .

وأيضًا يعرفها هى ، أو على الأقل يعرف اسمها ، ويعرف أنها دكتورة .. !

لابد أن تعاود الاتصال بالقطب ، لابد أن يأتى ، ضباط القسم يعرفون زوجها ، وقطعًا سيفعلون اللازم ، ولكن تواجده له شأنه .

وصلت الدكتوره هدى إلى قسم شرطة حلوان .

خرجت من السيارة وترددت عند بابها الخلفى .

هل تأخذ الطفل معها إلى الداخل ، أم تتركه وحيداً فى السيارة ؟

لم يطاوعها قلبها ، فالتقطت المهد وأسرعت .

رحب بها الضابط وحاول أن يهدىء توترها ، حين عرف شخصيتها .

كانت ملامحها قابضة على الفزع ، وتدافع الصوت منها مشوشا يبعثر جزئيات ما حدث لها فى غير ترتيب وتفكير .. !

وأحس الضابط بظروف محنتها فعاد يطمئنها ويؤكد حماسه لمساعدتها ثم طلب من أمين الشرطة أن يبدأ فى تسجيل أقوال الدكتوره ، وراح هو يسألها فى اهتمام .

توقفت عيناها فجأة على مهد الطفل ، وهى تدلى بأقوالها ، وناوشها شعور مباغت فأربكها .

أبدا لم تسمع له صوتا وهى تحمله ، وأيضًا وهو راقد خلفها فى السيارة .. ! هل يكون .. ؟ !

واندفعت إلى المهد وشدت الغطاء ، فاصطدمت عيناها بوسادة صغيرة راقدة مكان الطفل .. !

(٧٢)

** توقفت العربة الأنيقة أمام قصر عظيم فخم بضواحى المطرية ، وأسرع السائق يفتح الباب الخلفى لينزل عزت الأبيض ، بدأ بدينا فى بدلته المشدودة على جسمه فى عناية ، وظل يتلفت فى المكان بنظرة استطلاع بينما أسرع السائق يلاغى البواب .

ابتسم البواب فى ترحاب لعزت الأبيض ، وراح يتصل هامسا فى تليفون البوابة ويهزا رأسه فى امتثال .. ثم رافقه عبر الحديقة ورائحة الزهور الفواحة تملأ جو المكان ، والضوء المبهر يغمر بهاء القصر من كل النواحى .. وعند السلم العريض حياه فى تأدب شديد وعاد إلى البوابة . شد عزت الأبيض قامته فى تعال وبدأ فى الصعود المتمهل .

كانت الدرجات الرخامية تضوى لمعانا رائعا ، ويكسو وسطها سجادة حمراء يحدها شريطان خضراوان .. بدت السجادة شديدة النظافة ، وكان سمكها لينا تنفث منه رائحة الوبر الأصيل .

وتوقف عزت الأبيض عند مدخل البهو الرحب فى صدر القصر ، حيث كان منتصبا تمثال مرمرى رائع لإمرأة عارية تتمتع فى حياء ، وإلى جواره رجل ينتظر فى تأهب .. ثم تقدم مبتسما يستقبل عزت الأبيض ويرحب به فى حماس ويتقدمه إلى نهاية البهو ..

على الجانبين لوحات من الزجاج المعشوق الملون ، عيون بارقة تحاصر ، وعيون منكسرة تدمع ، أجنحة عريضة تنقض ، وأرانب مفزوعة تفر إلى الجحور .

جلس عزت الأبيض وعيناه لا تكادان تصدقان ما ترى .. !

بينما التساؤل يلح فى الرأس متحيراً .

كيف تمكن عادل النادى من الاستيلاء على هذا القصر الأثرى الرائع .. ؟ كل ما يعرفه أنه كان تحفة نادرة لأحد أمراء العائلة المالكة قبل انفجار الثورة المجيدة . كان قبلة ومزارا وصالونا راقيا لأهل الإبداع الفنى ، وعشاق صيد الحيوانات البرية ، واقتناء الأسلحة القديمة ، وجمع القطع الأثرية . !

كل ما يعرفه أن هذا القصر لا يقدر بمال ، وأن رجال الثورة الأبطال قد استولوا علياه غصبا من أصحابه ، ضمن ما استولوا عليه من عقارات ومتاع ، ثم تركوه للأيدى الطامعة والمخربة لتعبث به وتستبيح بكارته .. !

ولكن كيف تمكن عادل النادى من السطو على هذا الكنز وحده . ! ؟ ليعيش فيه ويقتنيه لنفسه . ! ؟

وعادت عينا الرجل تدوران فى المكان .

قطع الكريستال الملونة تلتمع فى السقف المزخرف . التحف والفازات الثمينة تملأ الرفوف والمناضد المطعمة بالصدف . الستائر المخملية . تنسدل على النوافذ والأبواب .

من الحائط المواجه تبرز أنواع وأشكال من رءوس الحيوانات البرية ، وإلى جوارها أنواع مختلفة من الأسلحة والمعدات القديمة . أطقم الصالون مرتبة بعناية فى البهو المترامى ، كل طقم فى ركن ، بلون مختلف ، وطراز مختلف ، وزهور مختلفة .

لم يشعر عزت الأبيض بزحف العربة الصغيرة المذهبة على السجاجيد السميكة ، وكان الرجل يتقدم بها ويبتسم له فى وداعة ، ويدا رداؤه شديد السواد وقفازه شديد البيض وعيناه منكستان ..

- ماذا تحب أن تشرب سيادتك .. ؟

لاحظ عزت الأبيض بعين مدربة طقم الفضة الأنيق ، والأكواب البللورية ذوات الكعوب المعدنية ، والفوط المشغولة الأطراف فى فن رفيع .. وبعد أن صب له الرجل

الشاى وتركه ، كان التساؤل يزداد ريبة وحقداً فى رأسه .. فكيف استطاع النادى . أن يهبش هذا المكان الخرافى .. ؟

وشد انتباهه وهو يرتشف منظر الأنياب البارزة من رءوس الحيوانات ، وقد بدت ملطخة باللون الأحمر القانى .

أحس بالقلق يتسرب إلى صدره .

لماذا جاء برجليه إلى هنا .. ؟

كان يمكنه أن يعتذر ، بأى عذر .. أو أن يؤجل الزيارة ، حتى يتصرف ويعرف رأسه من رجليه . !

ما الحل إذن .. ؟ هل يقوم ويخرج ، وليحدث بعد ذلك ما يحدث .. ؟

ولكن الرجل علم بحضوره ويستعد لمقابلته .. !

ووضع عزت الأبيض نفسه فى الصورة وراح يتخيل الموقف .

ماذا يكون شكله أمام موظفى البنك ، كل موظفى البنك ، أولئك الذين يرأسهم بصفته مديراً للبنك ، لو عرفوا بهذه الزيارة المريبة .. ؟

هل كان بوسعه أن يعتذر .. ؟

أو حتى أن يماطل فى التلبية .. ؟

هل كان يستطيع مثلا أن يتلاعب مع عادل النادى .. ؟

كل ما بينهما لا يدعو أبداً للاطمئنان ، منذ أن كانا زميلين فى فصل دراسئ واحد . . ! أتراه أمسك عليه شيئًا ويريد أن يجلده ، كما جلد الكثيرين .. ؟

أم أنه يريد خدمة خاصة ، له أو لأحد أحبائه ..

أبداً .. فلم يسمع أن النادى يطلب شيئًا من أحد .

ثم ماذا أمسك عليه يستوجب الجلد .. ؟

وأحس الأبيض بالتوجس .. !

فليست كل المسائل تمر تحت يده نظيفة ومعقمة .

وماذا يفعل هو والجو كله أصبح ملوثًا ، أصبح مباحا للذئاب والحيتان ، تنهش فيه وتتمرغ .

أشعل سيجارا وابتلع نفسا عميقًا .

لن تكون هذه الدعوة أبدًا مجرد تضييع للوقت .. !

اقتربت امرأة شابة تمشي متمهلة .

حاول عزت الأبيض أن يسحب نظراته عنها فلم يستطع ، لم تطاوعه عيناه .. سبحان الخالق المبدع .

مدت يدها فبادر بأخذها تلقائيا ، وكانت شفتاها تهمسان بترحيب ناعم . جلست أمامه وثوبها بسيط محتشم . صف ياقوتات تلتمع وتخبو ، تبدأ بجيب الغزل وتنتهى عند الذيل ، وفى العينين حور برىء ، يتصرف على سجيته بنظرة الحياء .

قالت فى غير تكلف .

– اسمى نون .. سكرتيرة أولى

كان شعرها غزيرًا ومنسدلا على كتفيها . سألها إن كان اسمها الحقيقى نون أم اسم الدلع .. ؟

تمايعت نظرتها وهى تدور وتتمسح بالمكان ثم تحط عنده ، وبدت تريد أن تتكلم ، وأن تصمت فى نفس الوقت .

– ألا يعجبك اسم نون .. ؟

ثم أخبرته أن النادى سيأتى بعد قليل ، وهمت تتقدمه

– سأريك شيئًا يسليك .

قام ومشى معها طائعا إلى أحد الأركان .

كان هناك حوض زجاجي كبير ، مملوء بالماء والأصداف والأعشاب . وبداخله سمكة كبيرة وحيدة ، تتحرك فى شراسة وتصدم رأسها بزجاج الحوض .

قال عزت الأبيض فى ثقة .

– سمكة قرش .. أعرفها .

أومأت برأسها فى وداعه وهى تمد أظافرها الحمراء وتناوش سطح الماء فى الحوض .

– أتحب أن تراها وهى تأكل .. ؟

كانت السمكة تهاجم الأظافر الحمراء وهى تضرب الماء بذيلها فى عنف .. !

ملأت نون جاروفا صغيراً بالديدان الحية وألقتها فى الحوض . سكنت السمكة لحظة وتراجعت . بدت تتشمم الماء وتتحفز بفمها وعينيها ، وانقضت بحركة مباغته تلتهم الديدان قبل أن تصل إلى القاع .

شده المنظر فقرب عزت الأبيض عينيه من الزجاج .

كان فم السمكة شرسا ، يتدافع مفتوحا على آخره بينما تتجمع الديدان وتسعى إليه مستسلمة .. !

فوجئ عزت الأبيض بيد ثقيلة تحط على كتفه ، وبصوت خشن يقتحم أذنه .

– آكل ومأكول .. هكذا الحياة .. !

التفت مستطلعا فتلاقت العيون . وظلت معلقة للحظات .

وجاءت عبارات الترحاب مرسومة .. ثم استدار الكرسى وتحرك فى حماس . فتبعه عزت الأبيض .

لم يجدها فجأة ، فشاغلته الدهشة ، كيف تبخرت نون بهذه السرعة .. ؟ قعد حيث أشار له عادل النادى ، وترك عينيه تجوسان وتستطلعان فى ترقب .

لم ينل شرف مقابلة النادى منذ أن وصل لهذا " الهيلمان " ..

الملامح كما هى مازالت ، ولكن أجهزة الأعلام خطيرة ، فما يراه من الرجل يبدو مذهلاً ، كما أن الكرسى المتحرك يبدو مذهلاً أيضًا ، فى الشكل والإمكانيات ، معدن مؤكسد ، ظهر عال منقوش ، عجل متداخل ، أزرار ملونة على الجانبين ، دوران فى المكان ، ارتفاع وانخفاض وتمايل واستلقاء إلى الخلف ، سماعات أليكترونيه ، وشاشة كومبيوتر رهيب الإمكانيات بدأ التفاهم جيداً بين الرجل والكرسى .

وأخيراً جاء كلام النادى يحمل إيحاءات مكشوفة .

- أخيراً تعود ونلتقى يا أبيض بك .. ياسلام ما أصغر الدنيا .. !

ثم راح يداعب ذاكرته ببعض المواقف المأثورة ، من تاريخ علاقتهما القديمة . بعدها منح الاستعراض خبراته المتفردة فى الأعمال المصرفية ، ساخطا على عدم تكافؤ المرتبات بالمجهود المبذول فى هذه الأعمال .. !

وخاصة أولئك المسئولون الكبار منهم ، كالمديرين مثلاً .

وكان الأبيض يتجاوب مع قواعد اللعبة ، يترك فرصة المناورة وينظر لحظة الوصول إلى المحطة الحاسمة ، لحظة كشف ما يرمى إليه النادى بالضبط من وراء هذه الدعوة المفاجئة .

تشاغل النادى بشاشة الكومبيوتر ، بينما يضع إحدى السماعات على أذنه ، استدار بالكرسى فأعطى ظهره لضيفه وانسحب قليلاً إلى الوراء . كان الهمس تلغرافيا آمرا ، والأزرار تحت اليد ممتثلة ، تحرك الكرسى فى جميع الاتجاهات .

وحين انتهى رجع يتكلم .

تساءل النادى بشكل برىء جداً ، وهو يوجه الموضوع إلى عزت الأبيض .

- ترى ما إمكانية الحصول على قرض فى حدود المائتى مليون جنيه من البنك الفلكى .. ؟

ابتلع الأبيض ريقه وحمد الله .

فقد جاءت محطة الوصول الحاسمة واتضحت معالمها .

النادى يريد قرضا من البنك الفلكى ..

البنك الذى يعمل به الأبيض ..!

يريد قرضا من تحت الترابيزة ، وبدون أن يراه أحد من موظفى البنك ، وإلا فلماذا لم يتصل بنا فى مكان العمل .. ؟

يريد قرضًا مع الحفاظ على مهابته أمام الخلق ، فلا يخدش صورته المتألقة بين أهل القمة والسلطان .

وهدأ القلب ، وسالت الابتسامه من الفم ، وتمدد الأبيض فى مقعده .

– أنت تأمر يا نادى بك ، نحن رهن إشارتك يا باشا . تباعد الكرسى ، وجاء رجل يحمل القهوة ووضعها .

عاد الكرسى يتقارب أكثر . وأخذ النادى فنجانه وارتشف فى استمتاع

– إذن فالسيولة عندكم معقولة .. ؟

– وإن لم يكن ياباشا ، كله قابل للتدبير .

أخذ عزت الأبيض فنجان قهوته وارتشف .. ثم ارتشف فى تلذذ عميق .

– خرافة يا نادى بك ، قهوة خرافة .

يبدو أن الرجل يجره إلى الخية ، يستل منه اعترافا يقضى عليه .

ولكن لماذا يفعلها .. ؟

لم يحدث تصادم بينهما أو حتى مناوشة ، منذ أن صعدا إلى سطح الحياة .. !

مع ذلك لابد أن يكون حذرًا للغاية مع هذا الثعلب المراوغ .

انتبه الأبيض إلى ثون ، وكلها نشاط .

ناولت جهاز المحمول لعادل النادى ، وهمست له .. الدكتورة هبة .

لمحت الأبيض لا يسحب عينيه عنها .

ابتعد الكرسى والنادى يهمس فى الجهاز .

– أتقولين خطفوا الولد .. ؟

وظل يومئ برأسه متفهما ما تقول .. ثم بادر يطمئنها .

– سأتصل فوراً بالمسئولين ، لا تخافى .

وأخذت نون المحمول ، فطلب منها أن تأتى بمدير الأمن على الخط . ذهبت نون واقترب الكرسى من الأبيض .

– ماذا كنا نقول .. ؟ آه كنا نحكى عن الضمانات .

أبدى الأبيض تشدداً جامداً ، حاول أن يتقمص شخصية مدير البنك الأمين الحازم ، الخبير فى شئون القوانين والقواعد المالية .

وراح يشرح للنادى شروط الضمان اللازمة لصرف القرض ، لأى مواطن ، وفى تحفظ أخذ يستعرض النسب والأوراق والمستندات الواجب وضعها تحت يد البنك .

تشاغل النادى عن كلام الأبيض . وكان يعبث بأزرار الكرسى ، ويتطلع إلى الشاشة الصغيرة . ثم قال فى تحذير ، وبدون أن يرفع عينيه .

– النادى ليس أى مواطن .. حاسب يا أبيض .

ازداد توجس الأبيض وراح يعيد حساباته بسرعة .

تخوف إن هو تمادى فى الجمود والتشدد أن ينقلب بركان الحمم عليه .. وبدون داع . . !

فالواضح أن الرجل يريد قرضا ، وبالتأكيد هو يعلم أن هناك تجاوزات حصل عليها البعض ، وهو يريد أن يتعامل بالمثل ، إن لم يكن بأكثر من هذا المثل .

لا مانع يا نادى .. ليكن طلبك الأول مجابا .

وقال عزت الأبيض مداهنا .

– طبعًا النادى ليس أى مواطن .. المقامات محفوظة يا باشا .. وقال النادى مؤكدًا .

– آخذ مائتى مليون بضمان اسم النادى .

تضاحك الأبيض وارتشف قاع الفنجان .

– اسم النادى أكثر ضمان يا باشا .. ولكن .. يعنى هى مجرد شكليات .. شكليات لحشو ملف العملية ، ليبدو ثقيلاً ومحترمًا . أما ما بيننا فهو غير قابل للنقاش .

ضغط النادى على أحد الأزرار فجاءت نون .. قالت إن الموضوع المطلوب جاهز على الانترنت ، وكان هناك تفاهم آخر بالعيون يدور بينهما . هم بالتحرك متعجلاً الانصراف وهو يعتذر للأبيض .

أمر نون أن تضع ورقة أمام الأبيض بك ، ليسجل عليها المطلوب من الشكليات التى يعينها .

تصافحا فى تودد حار ، ووعد النادى ضيفه بلقاء قريب .. !

(٧٣)

** الليل والهدوء .. وجو الاستراحة المعبأ بشبورة الدخان ، ذات الرائحة الخاصة ، وصوت " الكركرة " العميق المتقطع .

تمطى القطب وهمّ بالقيام إلى حجرته لينام .

تعلق به منصور ليبقى قليلاً " فالقعدة " مازال فيها كلام .

وانتهز سيادة المحافظ الوزير الشمندورى بك رغبة القطب ليبدى اعتذاره هو الآخر ، فسيقوم مبكراً ، أول أيام العيد القومى ، ليفتتح المستشفى الجديد ، ويلقى بأول جاروف ردم فى مشروع " ردم الحفرة الأم " فى مدخل البلد . وتعلق به أيضًا منصور ليبقى قليلاً ، فساعة الحظ لا تعوض " والقعدة " تتركز حلاوتها آخر الليل .. ثم إن الناس لا يفيدهم المستشفى ولاروم الحفر بقدر ما يفيدهم رغيف العيش وقطعة اللحم .. أعطهم رغيف وقطعة لحم تصبح المحافظ الملك بدلا من المحافظ الوزير .

طاوع المحافظ مجبوراً ..

وصرف أفراد الحرس المزروعين بالخارج ، مستبقيا فقط سائقه وأحد المقربين إليه .

كان منصور يشرح لهما فى تلقائية مرسومة ، كيف أنه خبير فى عمليات التربيط وتبادل المصالح ، فهكذا لابد أن يكون رجل المخابرات " العقر " .. وينصحهما أن يتعاملا مع الحياة حسب مقتضيات الحال .

قال بعد أن تسرب الدخان إلى بؤر خلاياه وخدرها .. إن عنده كشفا مسجلا به كل أسماء الأصدقاء ، والزملاء ، والأقارب ، من أصحاب المراكز الاستراتيجية ، والذين تربطه بهم مصالح متبادلة ، والذين يحتمل أن تربطه بهم مصالح فى المستقبل ، وعندما يجلس لتناول إفطاره كل يوم يبدأ فى الاتصال التليفونى بكل هؤلاء الأشخاص .. كلهم .. فرداً فرداً .. يسأل عن صحتهم ، وأحوالهم ، وأمزجتهم ، مبدياً كل الاستعداد لأية خدمة .. كل يوم ومهما كلفته هذه المكالمات .. !

وحرك منصور قطع الجمر بإصبعه وهو يواصل " الصهللة " .

قبل أن تطلب المصلحة من بنى آدم ، فلابد أولا أن تجعل هذا البنى آدم يعرفك عن قرب ، يرتاح لك ، يثق فيك ويكسب من ورائك ، يأكل معك عيشًا وملحًا .. بعدها تتداخل القنوات ، وتستباح الأسرار وتتواصل تلقائياً ، فتصبح المسائل آخر حلاوة .

هز المحافظ الوزير رأسه مؤيداً ومعجباً بكلام منصور .

وأبدى القطب استنكاراً ، مكالمات منصور اليومية أوجعت رأسه ، جعلته يكره الدنيا وما فيها .

ثم راح يؤكد أن كل من عرفهم من رجال المخابرات عندهم " ربع ضارب " تضاحك منصور وأخذها بروح رياضية .

تساءل وهو يرخى جفنيه على حجر الشيشة فى خبث ..

– هل لو كانت مثلا الأمور غير الأمور بيننا وبين الشمندورى بك ، أكانت الأمور وصلت الآن إلى هذه الأمور بين الشمندورى بك وبيننا .. ؟

انتبه المحافظ للكلام ..

فكر إن كان يرمى إلى تعكير الجو آخر الليل ، إلى العبث بسمعته .. !؟

أم أن رأس الرجل تخدر فلم يعد يعى الكلام .. ؟

وقبل أن تتضح الأمور على حقيقتها لاحقه منصور بما استثاره أكثر ، وجعل الأفكار تتشابك فى دماغه .

راح يسأله فى جدية حاسمة ،. كيف كان سيتصرف معاليه فى فائض ميزانية المحافظة قبل حلول الميزانية الجديدة .. بالشكل المفيد والمشروع طبعًا .. ؟

– ألست معى ياسعادة المحافظ أننا نسهر على راحتك بكل الإخلاص والتفانى .؟

هز المحافظ رأسه مبتلعا الكلام فى تعسر .

وكان رأس القطب يتساقط من ثقل النوم عليه .

واصل منصور استدراج المحافظ ، يناوش بإشعال الفتيل ، ليكسر جرأة العين ويدسها فى جعبة إنجازاته .

مال ليأخذ الرجل تحت ذراعه ، رافعًا الكلفة بينهما .

– بزمتك يا شمندورى بك ، كيف كنت ستتصرف فى الملايين العشرة إياهم لولا تفانين أخيك الغلبان .. ؟

فتح القطب عينيه ، متنبها إلى صوت الملايين وتساءل :

– ما الموضوع بالضبط .. ؟

وانساب نغم المحمول من جيبه ، فأخرجه ونظر فيه لحظات حتى اتضحت الرؤية ، فألقاه أمامه فى زهق .

– رجعنا لهرش النافوخ .

صاح منصور يقرظ القطب فى تفكه .

– يا رجل عيب .. أهل بيتك لهم حقوق .

ثم عاد إلى المحافظ وبدا أنه يريد أن يتسلى عليه .

ولاذ المحافظ بالصمت وهو يكبت فى نفسه ، متخوفا عواقب المناطحة الهوجاء وقت الزحام .

كان منصور يشرح للوجه المنعكس على المرآة المقابلة ، وجه المحافظ ، يكلمه عن الملايين العشر الفائضة من ميزانية العام المنتهى ، بند الترميمات والنظافة ، وبما أن

هذه الملايين لم تصرف فى حينها ، فمعنى ذلك أن يخفض بند الإعانة فى ميزانية العام الجديد بهذا المبلغ .. !

ولأن الصداقة الحقيقية أصول وواجبات فى أعناق الرجال .

فإن منصور والقطب كانا أول من انبرى ، بالفكر والروح ، مؤازرين ومشجعين ، لإنقاذ الدخل القومى ، ولصيانة المال العام .

تجاهل المحافظ كل الكلام .. وتساءل وهو يومىء إلى القطب المتمدد على الكنبة .

– صاحبك وصل .. بنا لننام .

واصل منصور الكلام .

بدت ملامحه معجبة بنرجسية أفكاره ، وهو يجتر فى تلذذ خدماته لمعالى المحافظ .

فهو الذى اصطاد له التوقيت النموذجى " لفبركة الفواتير " العيد القومى للمحافظة ، مهرجان المستندات المضروبة .. !

وهو الذى كان الكوبرى الموصل لأصحاب البراويز والأقلام المأجورة فى الصحف والمجلات .

– الحملة الإعلامية الأخيرة صاروخ ، أتنكر يا شمندورى بك أنها رفعتك للمنافسة على قمة الوزارة .. ! ؟

تثاءب المحافظ ودعك عينيه متناوما .

وراح رأس منصور يقاوم فى استماته .

– المثل يقول " من قرنه وادهن له " .

تأخذ أنت مقاليد الشهرة الخرافية .. ويأخذون هم فائض ميزانيتك ، فتصبح الأمور " هرشا فى السليم " تضاحك المحافظ ساخراً ، وكان قد امتلأ وفاض .

– ويأخذ " الكوبرى " خمسين فى المائة سمسرة أصول وواجبات .. ! ثم قام واتجه إلى الباب متثاقلاً ..

تتعلق به عينا منصور فى دهشة .. !

(٧٤)

** سرت تباشير الفجر فى الجو فرطبته ، وراحت تزيح فى هوادة قشور الليل عن وجه السماء ، وحوائط المبانى ، وأوراق الأشجار .

وبدأ الضوء الأصفر الشاحب ينكمش عن حديقة الڤيلا الفخمة ، منسحبًا عن زجاج النوافذ ، وأحواض الزهور ، وخضرة الحشائش .

كان الضابط فى الصالة يجمع أوراقه ويتكلم فى حماس ، يقول كلاما يهون الأمر ويطيب الخاطر ، مؤكداً سرعة التحرك لضبط وإحضار الجانى ، فالمسألة تستوجب حضور السيد وكيل النيابة إلى مكان الواقعة ، وأيضًا حضور خبير البصمات ، والطبيب الشرعى وغيرهم لعمل الإجراءات اللازمة . ولما لاحظ أن الدكتوره هبة مازالت منكسة الرأس ، غارقة فى تفكيرها وتخوفها ، راح يشجعها على التماسك ، ويطئمنها بأنه سيترك فردين من رجال القوة لحراستها ، ثم باح لها بأن التوصية عليها جاءته من فوق ، كما وعد بإرسال عامل التليفونات فوراً لإصلاح خطها .

ومشى الضابط ، خرج مسرعًا بعد أن أعطى تعليماته المشدده لرجلين من قوته . وراحت هى تتمشى فى تثاقل ، وتتوقف عند بقعة الدماء الناشعة على السجادة وتتأملها ، فتداهمها ومضات خاطفه من مشاهد الكابوس الفظيع الذى باغتها وأرعبها . تلقى فى مخيلتها لحظة هجوم اليدين الكبيرتين عليها ، وسعارهما فى ملاحقتها ، ثم تلقى بعدها لحظة انغراس النصل المسنون فى خلايا اللحم والعظم ، وفزع العينين وآهة الرجل المكتومة .. !

فتبتعد عن السجادة وهى تحاول أن تسيطر على زمام أعصابها ، لتفكر بهدوء ، وبتركيز أكثر . لعلها تهتدى إلى شعاع أمل يوصلها إلى مكان الولد .. !

كانت فى داخلها متأكدة أن الرجل هو الذى أخذه ، هو الذى خدعها بوضع الوسادة مكان الطفل ليوهمها ، فيتخلص منها حتى يهرب به ، لقد قالها بكل بجاحة إنه يريد أن يأخذه ، وقد أخذه بالفعل ، وبرغم ذلك فقد ساورها الشك فى أن يكون الولد قد وقع منها فى الحديقة ، أو فى الشارع ، أو من العربة ، فظلت تبحث بكل الهمة ، وكان الضباط مقدراً لظروفها النفسية فطاوعها ، وبحث معها فى كل الأماكن المحتملة وغير المحتملة .. ولكنهم لم يجدوا له أثرا . !

من المؤكد أن الرجل لم يبتعد كثيراً ، يختبىء فى مكان متوار حتى تهدأ الأرجل وتنسحب العيون .

اعتصرت أصابعها ذراع المقعد .

إلى أين أخذه الجبان . ؟ !

تمدد السكون فى أرجاء المبنى ، راح يتجمع ويتكاثف حول الدكتوره هبة يتمسح بها ويحط على رأسها المرهق ويضايقه .

قامت وتمشت فى الصالة ، تطلعت من الشباك ، فرأت المخبرين يضحكان مع البواب ويدخنان .

سرحت عيناها فى إعياء وتوقفتا على صورة القطب ، زوجها ، فرأته يتطلع إليها من تحت جفنيه ، وبدت ابتسامته الساخرة من زجاج الإطار تقترب منها فى شماته .. !

أغمضت عينيها وتراخت فى المقعد ، تستثير مكامن التحدى بداخلها . تتفاعل مع جسدها بطريقة علمية .

على اعتبار أنه حالة مرضية ماثلة تحت مشرطها ..

فالخبرة طويلة فى ترويض الجسد البشرى .

وهى تعرف مكان الشرايين والأوردة .

مكان الأعصاب والغدد . وتعرف كيف تتعامل معها كما يجب . لتتماسك وتسيطر على نفسها .. لابد .. !

على الأقل أمام من يعرفونها .

وبرغم أنها أم فقدت طفلها ، ومن الطبيعى أن تبدو متلهفة عليه كل التلهف .

نكست رأسها فى انكسار .. وهل هى حقا أم .. ؟!

فتحت عينيها على اتساعهما وحاصرت وجه زوجها القطب ، وهى تردد فى تحد :

– أبدا لن يذهب الولد يا قطب .. لن يذهب .

ثم راحت تتنفس فى عمق ، تملأ فراغ صدرها المتوتر بالهواء وتشبع به رئتيها فى تمهل ، وطرحت رأسها على ظهر المقعد فتخاذل جسدها وأثقله التعب ، بينما تستجب مخيلتها أطياف الولد وتتشوق إليه ، وهى تهدهده فى أحضانها ، وهى تداعب بطن كفه بطرف إصبعها ، وهى تناوش وجهه بشفتيها ، وهو يضحك ويكركر ، وهو يغالب النوم بجفون مرتعشه ، وهو يأكل أرزا مع الملائكة .. وهو . . وهو . . . ويتخدر رأسها وتخطفه إغفاءة مباغته إلى عالمها .. !

وانتبهت الدكتورة هبة على صوت جرس يصك أذنيها ، ورأت فتحية الشغالة تهرول إلى الباب لتفتح ، ثم تأتيها وتقول فى تخوف .

– وكيل النيابة يا دكتوره .

فأمرتها أن تدخله بسرعة ، وهى تتوجه إلى الحمام لعلها تتخلص من آثار الإغفاءة التى أثقلت رأسها .. ثم عادت تستوقف الشغالة لتسألها متى جاءت .. ؟

وقالت فتحية إنها جاءت فى موعدها ، من ساعة تقريبًا ، وأنها خافت أن تقلقها من نومها لأن البواب أوقع قلبها بكلام مفزع ، وهمت بأن تقترب من الدكتوره هبة لتستطلع بعض التفاصيل ، وتواسيها بكلمتين ، ولكن الدكتوره لم تعطها الفرصة ..!

(٧٥)

** أرهق الصداع دماغ الدكتوره هبة ، وهى تعايش رغما عنها تلك المواقف واللحظات المفزعة ، بينما تعيد سرد الأحداث تفصيليا على وكيل النيابة كما طلب منها .

كان منشغلا ينظر هنا وهناك ، يتابع من يعبث فى المطبخ ، ومن يرفع البصمات وبقع الدم الجافة ، جاءت فتحية بالقهوة ووضعتها ، فى حذر يرتعش بوجهها .

تطلع إليها وكيل النيابة فنكست رأسها ومشت مرتبكة .

سأل وكيل النيابة الدكتوره هبة .

فأخبرته أن فتحية غلبانة ، تعمل عندهم من مدة ، وأنها لم تكن موجودة وقت الحادث ، فهى تغادر الڤيلا فى الخامسة مساءً .

هز وكيل النيابة رأسه فى استخفاف .

قال نتيجة لخبرته الطويلة ، فإن أغلب جرائم البيوت تأتى من وراء الخدم والبوابين .. ونصحها بأن تحذر من الثقة المفرطة فى مثل هذه الأصناف من البشر .

جاء رجل وأكد لوكيل النيابة أن الجانى قفز من شباك الحجرة إلى الحديقة .. !

ولكن آثار قدميه اختفت فى الخارج ومن الصعب متابعتها على حشائش الحديقة .

أحسست بالضيق من برود وكيل النيابة ، تصورت أنه يعتبرها جانية وليس مجنيا عليها .. وهممت بالقيام لتتصل بخالها عادل النادى .

جاء رجل معه كيس نايلون بداخله مطواة .

– وجدناها فى الحديقة .

كانت ملوثة بالدم ، فأخذها وكيل النيابة وقربها منها ، أكدت الدكتوره هبة أنها مطواة الجانى ، التى كان يهدد بها ، والتى أصابته فى كتفه . سألها مبتسما .. وبصفتها طبيبة جراحة .. هل الطعنة كانت نافذة أم أنها مجرد خدش سطحى .. ؟

انشدت الملامح من لفظ " الطعنة " ، ظنته يتهمها فى الرجل .. !

قالت إنها لم تطعن أحداً ، وأن الرجل هو الذي أصاب نفسه ، شدها فوقعت ودخل النصل فى كتفه .

ولما رأت وكيل النيابة لا يبدى اهتمامًا واصلت ، فحتما لو كانت طعنته متعمدة ، فهى فى موقف الدفاع عن النفس .. !

ثم طالبته بالمبادرة بالتحرك ، فالأحرى الآن البحث عن الولد .

لم يبد وكيل النيابة غضباً من تدخلها فى عمله .

ابتسم وراح يشرح لها .. فبرغم مشاعر الأمومة التى تقلقها ، فمن واجبه أن يتعامل مع كافة الأطراف بحيادية تامة ، أن يجمع كل الخيوط قبل أن يتحرك فى اتجاه ما .

ثم أوضح أن سؤاله الأخير إنما كان ليستنتج لأى مدى استطاع الرجل المصاب أن يتحرك بإصابته ..

خرج وكيل النيابة متثاقلا ، وجاءت فتحية مفزوعة .

قالت إن البيه البوليس أمرها بعدم التحرك من هنا .

– هل فعلت شيئًا يا ست .. ؟

إعملى معروف أنا فى رقبتى كوم لحم .

فى زهق طمأنتها الدكتوره هبة ..

ولكنها ظلت تتوسل ، ترتمى فى عرض الدكتوره أن تتكلم مع الرجل بدلا عنها .. فصاحت فيها .

- قولى لا أعرف .. قولى لم أكن هنا .

تماوتت المرأة فى الكلام .

- وإذا سألنى يعنى عن الولد .. يعنى .. وإذا أقول .. ؟ لاحقتها الدكتورة محذرة أن لا تقول شيئًا على الإطلاق ، فهى لم تكن هنا ، ولم ترأ وتسمع شيئًا .. مفهوم .. ؟

وتركتها وصعدت ..

من شباك حجرتها رأت وكيل النيابة منهمكا مع البواب .

تذكرت شيئًا ففتحت دولابها .. ثم توقفت .

كيف تذهب وهى هكذا .. ؟

لا يمكن أن تمسك مشرطا وأعصابها منفلتة .

قطعًا ينتظرونها فى المستشفى ، فى حجرة العمليات .

هل تتصل لتعتذر .. ؟

تأخرها يربك الأمور .. فالرجل ليس أى رجل ، كما أخبرها القطب .

تناغم المحمول فأخذته . كان المستشفى يطلبها فوقعت فى فخ الحيرة .

فستقوم الدنيا ولن تقعد إن هى لم تذهب .

الرجل مهم وحاشيته لن تعجز عن التصرف .

ثم إن القطب يعتبرها سقطة فى حقه ، وفى حق المستشفى الذى يحمل اسمه .

مستشفى القطب التخصصى .

فتحت الدولاب وأخرجت الملابس ...

(٧٦)

** هرول جاد الشحات محاذيا صف الأحواش فى مقابر الخفير ، ودلف خطفا إلى دهليز البيت القديم .

الرطوبة وتكلسات الأملاح والعفونة الرخوة كلها تنشع وتأكل الجدران ، والسلمات الحجرية منفلته من أخنانها بالحائط ، تهتز تحت الأقدام ، وتكاد تتهاوى .

دفع الباب بكتفه ودخل .

كانت البنات الثلاث نائمات فى حجر الصالة ، المرتبة كالحة ، وثقوبها ندف قطن ترابى اللون .

زعقت البنت الرابعة تسأل عن الداخل .

كانت فى دورة المياه وصوت الصنبور يتكسر على البلاط ويتطاير .

تخطى الأشياء المبعثرة على الأرض وعبر الباب المقابل .

اقترب وعيناه تسبقانه إلى الحجرة .. إليها .. !

كانت السحنة قطعة من صفيح دافىء ، مبتلة بلزوجة العرق ، والرقبة ملتوية على الوسادة .

أسند نفسه إلى السرير مجهداً .

– أم هاشم .. أم هاشم .

لم تطاوعها جفونها المرتخية .

ثم انكشفت بؤرتان عكرتان يشوبهما اصفرار بنى عميق .. !

شهقت وهى تتأكد بلمسات أناملها أنه هو .

فخرج الصوت واهنا .

- هل جئت .. ؟

وتفزعت ملامحها عند كتفه الدامى .

- يا خرابى .. !

ابتلع الألم وابتسم لها ، متعافيا بما يحمل فى أحضانه .

- الولد ... الولد يا أم هاشم .

اضطربت . وحاولت أن تشب بجذعها فلم تستطع .

انبهرت عيناها وراحتا تتقافزان إلى داخل اللفافة فى تشوق ، وفمها يبتهل مرتعدا

- أرنى أنظر إليه .. !

وضعه عليها فسحبت كلتا يديها وأحاطته .

تدخله فى صدرها ، نظرتها حائرة ، ترفرف على الوجهين .

- أهو حقًا .. ؟

تراخى بجانبها متألما ، فمدت يدها إلى كتفه .

- أرنى كتفك .

جاءت البنت الرابعة جريا وارتمت على أبيها . جاهد بذراعه المصابة . فأرهقه الألم .. !

قالت وطرف لسانها يتذبذب فى فراغ سنتها المخلوعة .

- بابا .. عاوزينك فى المدرسة .

أبعدت البنت وضمت الولد ، ويدها الأخرى تتلمس الكتف المصابة فى إشفاق .

- كل هذا الدم .. ماذا حدث .. ؟

حاولت البنت الرابعة أن تحشر نفسها بينهم

- بابا .. عاوزين الفلوس فى المدرسة .

جاءت البنت الثانية تدعك عينيها وتتباكى ، وحين رأت أباها نسيت كل شىء وجرت إليه .

بكى الولد من بينهما متململا ، فأحست الأم بنسمات ناعمة تلامس جذور المشاعر ، بينما تهيم بروحها فى محراب الملامح الباكية .

هو طفلها بعينه .. !

هو بدمه ولحمه وبحة أنفاسه المتخاطفة .

قبلته .. مجاهدة أن تسحب أنفها عن رائحته .. !

وعادت تتساءل عن موضوع الكتف المصابة .

شدت بيدها السترة فتأوه .. وراح يساعدها فى خلعها .

بان القميص المشرب بالدماء فتفزعت .

- يا خرابى .. المستشفى يا جاد .

خلع القميص فى صعوبة ، وعيون البنتين عليه ، تحملق فى تخوف .

تسرب دفء الطفل لصدرها ، لأعطاف صدرها ، فأحست برذاذ اللبن ينبثق ويسيل ، ناعماً يدغدغ رأس الحلمتين .

احتارت بين فم الطفل والذراع الدامية .. !

فتحت الصدر وضمت إليه الفم المتلهف .

انتفضت الحلمة بين اللسان وسقف الحلق ، وهما يمتصان فى تشوق .

هو طفلها بعينه .. !

طريقته فى الرضاعة .. فى التفاهم مع صدرها .

هل سبق هذا التفاهم من قبل .. !؟

سحبت الصوت من الجوف .. متوسلا ..

فلابد أن يسرع إلى المستشفى .. قد يتلوث الجرح فتصبح مشكلة .. !

تمدد بجوارها مثقلا بالآلام ..

وراح الولد يتلفت ويلفظ الحلمة الجافة فى يأس باك .

قامت فى مجاهدة وأحضرت علبة الإسعافات .

كانت تطهر الجرح بيد مدربة .

والبنتان ينظران فى ترقب .. !

دخلت البنتان التوأمان ، تتجاذبان عروسة من القطن .

وتتصايحان ، وتتشاتمان .

ارتفع صوت الولد فاقتربت البنات منه بعيون مشدودة ، مستطلعة .

عادت ترجوه أن يذهب للمستشفى .

فالجرح غائر ، والنزف لا يزال يهدد .

قال فى حسم .. لا يمكن ..

ثم فى تخاذل .. ليس الآن ..

عـادت تكشـف الجـرح وتمـلأ جوفه بالمطهرات والمساحيق الطبية .. وعينها على الولد .. !

(٧٧)

** أخيراً بدأت تنطفىء هوجه العرس الكبير .. !

عرس الافتتاحات والتصريحات والوعود الوردية ، المقام فى مبنى مجلس مدينة المحافظة .

وامتلأ كيان المحافظ بالتصفيق والتهليل والتأييد وفاض عن آخره ، فانسحب عن بؤرة المكان ، معتذراً لأبنائه وزملائه المواطنين ، داعيالهم بالتوفيق ومتعففا عن فضلات التلميع الباقية من وليمة العرس ، ليتقاسموها فيما بينهم ، بصفتهم الوظيفية فى هيكل المحافظة .

وانسل المحافظة إلى استراحة المحافظة ، الخاصة جداً ، حيث ينتظر القطب ومنصور .

كان الكل جاهزاً ..

التقسيمة والمستندات تمام التمام ، حسب اتفاق القمة الثلاثى بين الأطراف المعينة .

وكان الكل متعجلا فض الوليمة ليذهب لحال سبيله .

قدم منصور لمعالى المحافظ فواتير جريدة " الانسجام " بإجمالى عشرة ملايين جنيه .. والتى تغطى مستند الصرف المطلوب لبند الميزانية المفتقد . ثم أومأ إلى الحقائب الثلاث على الترابيزة .

- مليونان فى كل واحدة .

سحب المحافظ حقيبته وركنها .

وتساءل القطب عن أوراق شقق المحافظة الجديدة ، فطمأنه المحافظ أن المسائل تنتهى بعد أسبوع .

عند الباب ذكر المحافظ القطب بالمواضيع المطلوب تسليكها بمجلس الشعب ، بصفته العضو النشط فى لجنة الإسكان ، كما حاول أن يجره للبوح بما سمعه عن حركة تنقلات المحافظة المنتظرة .

تضاحك القطب زارعاِ بذور الشك فى صدر المحافظ ، رداً على تسويفه فى موضوع أوراق الشقق .

قال إن عنده أخباراً خطيرة ، ولكنها تتأكد بعد أسبوع .. !

بدأ رئيس تحرير جريدة " الانسجام " متحاملا على منصور ، معارضا طريقة التوزيع التى تمت ، زاعما أنه الطرف المغبون فى تقسيمة العشرة ملايين .. !

طلب القطب من السائق أن يزيد سرعته .

وكان قد انتهى توا من مكالمة الدكتوره هبة .

أغلق منصور فتحة صالون العربة ، حتى لا يسمع السائق ما يدور بينهم ، ثم اعتدل مواجها رئيس التحرير .

راح يكلمه فى جسارة ، كاشفا قيمة دوره فى العملية ، والذى لا يتعدى القيام بنشر أخبار متفرقة عن نشاط معالى المحافظ الوزير .

عن تصريحاته ومشروعاته العبقرية .

عن مساهماته فى رفع كافة المستويات فى بنية المحافظة .

أخبار متلاحقة ، تبدو واقعية ، وهى فى الحقيقة صفحات إعلان مدفوعة الأجر . ترمى لتلميع المحافظ من جهة ، فلعل وعسى البلية تلعب وتسقط به فى

محافظة العاصمة .. ومن الجهة الأخرى فهى مكسب للجريدة ، تزيد حصيلة الإعلان بشكل خرافى .. !

وكان كل المطلوب أن تقدم الجريدة فواتير بعشرة ملايين .

مجرد ورقة مكتوب عليها عشرة ملايين ، فى مقابل أن يدخل خزينتها أربعة ملايين نقدية .

ثم ناوشه منصور بالتهديد السافر .

- عموما لتكن آخر عملية ، فنحن لا نرضى لك الخسارة .. !

تراجع رئيس التحرير وتشاغل بأوراقه .

مال القطب على منصور يسأله عن عدد شقق حصة المحافظ ، التى يمكنه أن يتصرف فيها بمعرفته .. ؟

(٧٨)

** جرى عرفات وتعلق بعربة القطب وهى تعبر البوابة .

- إلحقنى يا حاج .. رحت فى شربة ميه يا حاج .. !

فتح القطب الباب وطلب منه أن يدخل ، ويجلس بجواره .

وأمر السائق أن يذهب .

أقسم عرفات أنه لا يعرف شيئًا ، وأن وكيل النيابة يريد أن يجر رجله ويلبسه تهمة .

- أنت تعرفنى يا حاج ، خدمتك أكثر من نصف عمرى .

طمأنه القطب ، وطلب منه أن يخبره بما حصل .

راح عرفات يولول ويلوم غفلته وجهله .. !

لا يعرف كيف اطمأن للرجل ووعاه ليشرب معه الشاى ..

تساءل القطب .. أى رجل .. ؟

واصل عرفات لوم نفسه ، فالرجل كان غريبًا عن الناحية .. جاء يبحث عن قريبه المهاجر للقاهرة منذ سنوات ، والذى يعمل عند أحد المحامين الكبار فى حلوان ، قد دله أولاد الحلال على هذا الشارع لأن العنوان ضاع منه .. !

فكر له وهما يشربان الشاى وأخبره عن يوسف البنهاوى ، فقد يكون المحامى الذى يبحث عنه ..

وبعدها .. وبعدها لا يعرف ماذا حدث بعدها .. ! ؟

سأله القطب .. فكان يرد فى تحسر وهو يمسك رأسه بكلتا يديه .

عاد القطب يطمئنه ..

ثم تركه ودخل .

كانت الدكتوره هبة تكلم خالها عادل النادى فى التليفون ، وأرخت صوتها وهى ترى القطب مقبلاً .

أعطته ظهرها وتباكت فى الكلام .. !

– للآن لا أرى جديداً يا خالى .

وظلت تومىء برأسها فى طواعيه .. ثم ألقت التليفون والتفتت إلى القطب ولم تتكلم .. !

سألها فراحت تكبت انفعالها فى كبرياء .

وأخيراً انطلقت زاعقة .

– لو كان الأمر يهمك لما توانيت لحظة .

وتساءل القطب إن كان يمكن أن يتفاهما فى هدوء .. ؟

راحت وجاءت وهى تفرك يديها .

– لولا خالى لما تحرك أحد .

وافقها القطب فى تأكيد ، فمن سوى خالها يمكن أن يحرك الناس .. !

انطلق صوت التليفون وظل يلح .. وهى تهمله .

أخذه القطب وتكلم ..

– نعم موجودة ..

فى العناية المركزة .. ؟

دفع إليها التليفون .

– المستشفى .

أخذته وأغلقته .. ابتلع غضبه .. !

– ألا تعرفين من هو فاروق غراب .. ؟

تحفزت للمناطحة .

– لا أعرف أحداً .. !

انطلق صوت التليفون ، فأسرعت تترك المكان وتصعد ، تدق السلم فى عنف .

تساءل القطب مستوضحاً المتكلم .

– وكيل النيابة من .. ؟

استدارت تتسمع ، ثم نزلت بسرعة وأخذت التليفون .

(٧٩)

** لم يكن القطب يريد أن يبدد الوقت والأعصاب بهذه الطريقة ، ولكنها تجره رغما عنه ، الدكتوره هبة .. !

فهى تمتلك الوقت والأعصاب لأن تفعل ما تشاء ..

لأن تثور وتقلب الدنيا غما ، ثم تتبدل فى لحظة لتناوش وتملأ الجو صخبا وفرفشة وضحكا .

لابد أن يغير مجرى الأمور معها الآن .

يغير مدخل التفاهم ، لعله يحصل على نتيجة أفضل

اقترب ورطب كلامه .. وعدها أن يتحرك فوراً ، أن يبذل كل إمكانياته لكى تستعيد الولد سليماً معافى .

استهانت بكلامه ووعوده الجوفاء ، وراحت تردد فى سخرية كلمة "فوراً" على طريقته .

- أتحسبنا فى مجلس الشعب الموقر .. ؟

اصح يا معالى العضو .

شعر ببوادر القلق ..

هكذا تزداد جرأتها عليه .. !

لابد أن يتصرف ..

المشكلة هناك ، تنتظر في المستشفى كالقنبلة الموقوتة .. !

مد يديه حانيا

- لا أحب أن أراك غاضبة .

صدقيني .. سأتي به من تحت الأرض .

غلبتها الدموع وهي تلوم .

فهو لم يغثها وهي تستجديه في المحمول ، وكأنه ولدها وحدها .

تضاحك مشاغبا ..

- طبعًا فهو ولدك وحدك .

التفتت إليه منفعلة ..

- إظهر على حقيقتك .. أتحسبني لا أعرف شعورك .. ؟

أقسم أنها تظلمه ، فحتى وإن لم يقتنع بالفكرة من البداية ، إلا أنه لم يعترض رغبتها ، تركها تفعل ما تريد ، بل وساعدها من ناحيته بقدر المستطاع . ثم سألها في تأكيد .. ألم يساعدها بالفعل ؟

تحسرت وهي تعتصر نفسها .

- أريد الولد يا قطب .

فراح يعد ويضمها إلى صدره ، مبديا كل الإخلاص ، حاسما أن تعتبر الموضوع منتهيا تماماً .

ثم انزلق بالكلام تدريجيا إلى الطريق المستهدف ، الأهم والأجدى .. !

طالبها أن تبادر بالذهاب للمستشفى .

فالمواقف هناك يحتم تواجدها . فهى بلا شك تعرف من هو مريضها فاروق غراب ، وتعرف حالته الحرجة .. !

ولما رآها تلتزم الصمت ، تتأرجح بين الاختيارين ، واصل بثها بالمنشطات الحماسية ، ذكرها بسمعتها ومركزها بين الزملاء والأساتذة والمرضى ، والأهم من ذلك كله مركزها الخطير عند أجهزة الإعلام .

– ثم لا تنسى أن فاروق غراب رئيس لجنة الإعلام بمجلسنا الموقر .

لم تستجب مناعتها لجرعة المنشطات .. بدت " مضروبة " .. !

فظلت أحاسيسها مشدودة لأولوية البحث عن الولد .

ولم يقل اليأس من دماغ القطب المتمرس .

غير الاتجاه واختار مدخلا جديداً .

أبدى الأسف على المستشفى الذى سيضيع بالتأكيد منهما ، ولن يتمكنا أبداً من إنقاذه بعد ذلك . !

المستشفى العظيم الذى أخذ من أموالهما الكثير ، ومن مجهودهما الأكثر ، كل ذلك سيصبح للأسف فى خبر كان ، بين يوم وليلة .. !

صاحت مستخفة بما يقول .

– كل هذا من أجل مريض .. ؟

أمسك بيدها تمهيداً لسحبها .

– فاروق غراب مريض مختلف ، قرصته والقبر ..!

وبدأ يسحبها فى هوادة ..

– أما عسله ففيه شفاء للناس .

وكانت تقاوم قليلا .. فواصل السحب والكلام .

– سأوصلك بنفسى للمستشفى ، ثم أمر على وكيل النيابة لأخلص الموضوع معه .. موضوع الولد .

مشت فى طواعية وهى تفرغ شحنة المقاومة فى تنهيدة عميقة .. !

(٨٠)

** المستشفى برج فخم .. المدخل الرحب ، الأعمدة الضخمة ، البللور والمرايا والرخام ، الأضواء المنعكسة ، أحواض الزرع ، " اليونيفورم " الملون المنشى ، الكومبيوترات والتليفونات ، الكريستالات المدلاة من السقف ..

توقفت المرسيدس أمام المدخل ، فأسرع رجلان نشطان بحركات الاستقبال المرسوم ، بكل الدقة والتفانى ، يرافقان ويمهدان لمراسم دخول القطب والدكتوره هبة .

ابتلع رجال البهو الكبير دهشتهم وقد فاجأهم الموقف . فكان من النادر أن يأتى القطبان الكبيران سويا للمستشفى .. !

هرع رجل كان مكوما فى آخر الصالة مستنجداً بالقطب .

بدأ ممصوص الوجه معطوب العينين متسخ الملابس .

– أغثنى يا حاج أغاثك الله .

بادر رجال الأمن باختطاف الرجل .

فاستمهلهم القطب مستنكرًا ، وهو يلمح عيونًا فضولية تتصيد الموقف .. !

أوحى للدكتورة هبه أن تواصل الطريق ، ثم أخذ الرجل جانبا .

– مالك .. ؟

ارتمى الرجل وكاد يقبل القدم

- أغثني يا حاج .. يأخذون الحصان ويعطونني أبي .

جاء مدير أمن المستشفى متخايلاً بنفسه ، مبتسما لوجه القطب .

أطبق على الرجل بطريقة استعراضية محاولا أن يبعده .. !

زجره القطب وأشاح بيده ..

فما زالت العيون الفضولية ترقب من بعيد .

فتح مدير الأمن حجرة جانبية ، فدخلوا وأغلقوا الباب .

وهناك تغيرت ملامح القطب ، وزعق فى الرجل مستفسراً عن أصل الحكاية .

تدخل مدير الأمن مطالبًا القطب أن يترك له الرجل ، وسيتصرف معه بمعرفته .

هاج الرجل وزعق من الأعماق مرتعشا فكاد يتهاوى .

- ثلاثة أيام ولم يتصرف أحد ياكفرة .. !

وجرى إلى الرفوف فالتقط زجاجة كبيرة وحطم مؤخرتها .

وراح يهدد برقبتها فى تهور .

- والله لمرتكب جناية .

انسلت يد مير الأمن إلى الطبنجة ، وتباسط القطب وهو يتراجع إلى الباب .

- إهدأ يا بنى ، تعال اقعد ، تعال كلمنى

انحصر القطب بين الباب ورقبة الزجاجة ، المتربصة به .

خاف أن تطيش فتصيبه ، فراح يحذر مدير الأمن بعينيه أن ينتظر ، بينما يشجع الرجل أن يطلب ما يريد .

وطلب الرجل ما يريد ، تكلم وهو ينتفض ..

فقد مات أبوه هنا ، وهم يحتجزون جثته رهنا على عشرة آلاف جنيه .. !

طلب منهم أن يأخذوا عليه شيكا بالمبلغ ، أو إيصال أمانة ، لحين يدبر أموره ، ولكنهم رفضوا .. !

عرض أن يضع جثته هو فى الثلاجة بدلاً من أبيه حتى يصلهم المبلغ ، ولكنهم رفضوا ..!

فلم يجد أخيراً سوى حصان العربة يضحى به ، يعطيهم إياه ليأخذ أباه يدفنه ، ولكنهم رفضوا .. ! زاعمين أن الحصان لا يساوى المَبلغ .. ! الحصان الذى يعول أسرة كاملة لا يساوى المبلغ .. تصوروا .. ! ؟

سأل القطب مدير الأمن عمن أتى بهذا البنى آدم إلى هنا .. ؟

فقال إنه حادث تصادم بين عربة كارو كان يقودها البنى آدم ، وعربة ملاكى يقودها رجل ذو حيثية ، ولأن الحادث كان قريبًا من هنا ، فقد بادر أهل الرجل « ذو الحيثية » بنقل المصابين إلى هنا لإسعافهما ، وتسوية المسائل وديًا .

ولكن الرجلين ماتا .. !

تطلع القطب إلى رقبة الزجاجة مستفسراً عما يكون دوره هو فى هذا الموضوع ، ثم قال مستهينا إن المبلغ المطلوب للمستشفى قطعًا هو ما صرف على البنى آدم بالفعل ، أدوية وعلاج .. و .. وخلافه .

صرخ الرجل مفجوعًا .. فكيف يتكلف والده عشرة آلاف فى ليلة واحدة .. وهو ميت .. ! ؟

وهو مصدوم وغارق فى دمه .. ! ؟

وصرخ القطب بأعلى صوته ، آملا جذب الانتباه فى الخارج .

– أتستهين بتكاليف الأدوية والأطباء والممرضات والأجهزة كلها هنا " بالكمبيوتر " .. ألا تفهم ما هو " الكمبيوتر " .. ؟

قفز الرجل إلى أعلى وارتمى على الأرض مرتعشا بكل بدنه .

- لا أفهم إلا فى جثة أبى .. أعطونى الجثة لأدفنها وإلا ارتكبت جناية .. !

وتلونت ملامح القطب وانخطفت الأنفاس ، فقد اقتربت رقبة الزجاجة إلى مرحلة الخطر المؤكد .. !

اندفع تلقائيا إلى الباب وجذبه وهرول إلى الصالة ، صارخا فى رجال الأمن أن يمسكوا هذا الملتاث ويطلبوا له الشرطة .. !

ثم مرق إلى المصعد الخاص وصعد .

قالت الدكتوره هبة وهى تنظر فى الأوراق وتعبث فى الخراطيم والأجهزة ، وتبتسم للمريض .

- الحمد لله .. كله تمام .

حيا القطب الرجل اللابد عند الباب ودخل .. كان هناك رجل آخر يجلس فى غرفة العناية المركزة ، يرصد الحركة فى انتباه .

كان فاروق غراب ممدداً وجفناه منكسان ، الوجه شاحب وكمامة الأكسچين تغطى نصفه .

اقترب القطب وتطلع .. وتساءلت عيناه فأمهلته الدكتوره هبة .

تراجع الجفنان فبدأ الإرهاق مكثفا فى العينين .

قال فاروق غراب للقطب

- تعبان .. خلاص زهقت .

أمسك القطب يده وضغط عليها .

- قل يارب .. لا يمكن تتصور ما فعلناه .. !

جاء رجل يبدو مهما ، تكلم مع الدكتوره هبة فى همس ، ثم انفرد بالمحمول وراح يتكلم ويشرح .

جاء رجل آخر يبدو مهما ، تكلم مع القطب موضحًا أن حساب فاروق غراب تجاوز الخط الأحمر .. فعنفه القطب محذراً من الاقتراب ، أو من مجرد الهمس ، وأمره أن لا يرسل الفواتير لمجلس الشعب حتى يعطيه الخط الأخضر ، هو شخصياً .

خرجا من العناية المركزه ، وفى الطريقة إلى حجرة المكتب سألها القطب متجاهلا تلبد الانفعال على وجهها .

ألقتها فى وجهه سافرة وهى تعرف تماماً ما يرمى إليه .

– ما تريده خذه الآن .. لا أمل .. مجرد ساعات .. !

أومأ متفهما .. ثم أراد أن يسترضيها بخصوص الولد .. قال إنه اتصل ، وسيتقابل بالمسئولين بالمباحث بعد قليل .

لم تهتم وراحت تستبدل ملابسها فى الحجرة الداخلية .

ذهب القطب لفاروق غراب وجلس بجواره .

أمسكه ليتنبه ويشعر بوجوده . أشار للممرضة وظل يهمس فى اهتمام ، وفاروق غراب يقاوم ويرقب فى توجس .

راجعت الممرضة متعلقات المريض وهو يتابعها .

تساءل فاروق غراب إن كان هناك شيء يخيف ، فطمأنه القطب بطريقة تثير الشك ، ووعده بالفحص الأول للدكتور الأجنبى العالمى الزائر لمصر بعد يومين .

اضطرب المريض وها جمه الإحساس بخطورة حالته ، وبأن القطب لايصارحه لخوفه عليه .. !

تكلم القطب عن عبقرية الطبيب الأجنبى ، وعن أجره الخرافى فى بلده ، وعن مدى صداقته الحميمة للدكتوره هبة .. ثم تلكم عن فترة النقاهة اللازمة جداً لأمثال حالته ، وحبذها فى بلد أجنبى جميل .

وتضاحك أخيراً ليسرى عن الرجل .

- العملية فيها قرشين زيادة لكن فداك ، الصحة فوق الكل .

أخرج القطب عقد البيع من جيبه وناوله القلم ..

- توقيع صغير هنا .

حاصره التردد فانسحب الدم من الوجه ، وتساءل مندهشاً ..

- الآن .. ! ؟

لم يمهله وقرب العقد منه ..

- أنت وعدت .. العمر الطويل لك .

ونصيبك فى المستشفى ، اتبرعت به من ثمن الأرض .

فى يأس شديد ..

- ولكن .. !

وكان العقد تحت سن القلم المرتعش .

- صدقة جارية ، فمن يضمن عمره .. ؟

... فى مكتبه جاءهُ الضابط وشرطيان ، يقودان ابن البنى آدم .

تساءل الضابط إن كان القطب يتسامح ، ويترفق ، لحل المشكلة .. فى سخرية ردد القطب متطلعا لابن البنى آدم .

– شروع فى قتل .. بلطجة .. أفسدوا حال البلد .. !

حاول الضابط أن يرطب الجو وأن يستثير نخوة القطب وتسامحه ، بعد أن اقتنع أن ابن البنى آدم غارق فى المأزق .

اقترب منه وراح يرجوه .. يذكره بمكانته كعضو فى مجلس الشعب ، وكمحط لامع لعيون الإعلام ، ترصده ، وتتابع أيادية البيضاء الساعية لما فيه خير المواطنين .. يقترح عليه مثلا تقسيط المبلغ .. !

لم ينطلى على القطب مداهنة الضابط .. وظل يرددفى حماس مرسوم أن الحفاظ على المال العام واجب وطنى ، وأن هذا المستشفى مقام من قوت أبناء الشعب ودمائهم ، وأن تبديد المال العام يستحق الإعدام فى ميدان عام أمام الناس .

وتساءل القطب فى تنمر وهو يركز على وجه الضابط .

– من يجرؤ على تشجيع الإرهاب والبلطجة .. ! ؟

تراجع الضابط فى تخوف .

فلا ينبغى أن تصل المسألة لهذا الحد ، وقد يوقعه فى مأزق هو الآخر .. ! كان ابن البنى آدم يغلى وينسلى . . لا يفهم ماذا حدث فى الدنيا .. !

فى رجاء أخير متردد استسمح الضابط القطب فى أن يمكن ابن البنى آدم من رؤيه جثمان أبيه قبل أن يأخذوه للنيابة .

تعالى القطب فى مقعده ..

مبديا أياديه البيضاء ، الساعية لما فيه خير المواطنين ، والحريصة على تماسك البنية الأساسية للبلد .

وأدلى وهو يتخيل ميكروفونا فى فمه بموافقته الصريحة على الآتى .

أولا .. يتم خصم نصف ضريبة المبيعات المقررة على جثمان البنى آدم ، وتتحمل بها إدارة المستشفى .

ثانيا .. يسمح لابن البنى آدم بالاطلاع على جثمان أبيه مدة لا تتجاوز الثلاث دقائق .

ثم همس للضابط وهو يبسط ملامحه

- كله من أجل عيون الشرطة .. !

(٨١)

** سألها عادل النادى فأخبرته نون بعدم وجود ملفات أخرى تحت يد البنك .

تطلع إلى شاشة الكومبيوتر وبدأمتشككا فى الأرقام .

اقترحت أن ينتظر حتى تتم مقابلتها بعزت الأبيض فتتأكد .

هز رأسه ولم يعجبه الكلام .

– المفروض أننا أصحاب المعلومة الصحيحة ، وإلا فلا داعى لكل ما نفعل .

تراجعت نون وأبدت اعتذاراً ، فما زالت تخطئ ، لم تستوعب كما ينبغى تعليمات عادل النادى .

ترددت وهى تنظر إليه فى حذر ، وهو يستعرض البيانات المتلاحقة على الشاشة .. وفكرت أن تتركه قليلاً ليعيش مع أرقامه وملفاته على هواه .

حذرها يوم أن جاءت تعمل معه أن ما تراه وما تسمعه هنا يجب أن تنساه فوراً .. وأن لا تتدخل ، أن تقترح أو مجرد أن تبدى تعليقا على أى عمل يطلب منها .

وقد وعدت أن تكون عند ظنه بها .

جاهدت نفسها وسجنت فضولها لكى تظل قريبة منه .

فمـاذا تفعـل وقد تسرب حبه بداخلها وشدها إليه ، فقد اقتربت منه أكثر ، وعرفته أكثر .. !

وأحس بأنه يثقل عليها فى الأيام الأخيرة ، بتشدده وكثرة تعليماته ، ففكر أن يسترضيها .. وأن يقنعها بحساسية موقفه .

- لأن المسألة تتعلق برقاب الناس والمقصلة ، فلابد أن يكون التعامل بمنتهى الحذر .

ابتسمت متفهمة وراضية .

طلب منها أن تتصل بالنائب العام .. وأن تسجل المكالمة .

وراح يستعرض مع النائب العام بعض الأسماء .. وعندما ذكر اسم القطب انتبهت رغما عنها وبدت مستطلعة .. وكان التساؤل يفلت منها لولا أنها تمكنت منه لحظة الاندفاع .. !

تراجع بالكرسى وهو يدعك ركبتيه .

عرفت أن عظامه تنبح وتؤلمه كالعادة .. !

اقترحت أن يبتعدا عن جو الأرقام ويذهبا للحديقة .

قالت إنها ستتغلب عليه اليوم بدون الوزير ، فهل يسمح .. ؟

وكانت تعطيه جرعات الدواء .

بدأ مشمئزا من الطعم والرائحة .. !

- ما كنت لتتجرئين علىّ فى الشطرنج .

كانت الحديقة ركنا من الجنة ..

وهما يجلسان متواجهان . الخضرة وأغصان الزهور الفواحة .

قالت بصوت مداعب أنه قد آن الأوان لأن تشب التلميذة إلى كتف أستاذها ..!

ثم سرحت مع رقعة الشطرنج ، وهو ينظر إلى شعرها المسترسل على خديها وكتفها .

ومع تمدد جو السكون ، كان يتسرب خرير الماء رقراقا من النافورة الرخامية .

وأطاحت بالحصان .. ضاع الحصان .. !

فاندهش لحظات يتأكد من اللعبة ، يتأكد من أنها بالفعل أطاحت بالحصان .. !

وانطلق يدور بالكرسى من حولها ويضحك بكل سعادته .

– أطاحت بالحصان ، لأول مرة يسقط بهذه السرعة .. !

وارتمى يحيطها بذراعيه ويقبلها فى عنف .

ضحكت وتورد خداها ، وتهدلت خصلاتها على الوجه بينما تسحب نفسها منه فى تدلل طفولى .

– قد يرانا أحد .

نظر لها مبهوراً بصوتها وجمالها .. وبادر بالدوران إلى جانبها الآخر ، وأطبق عليها وقبلها فى عنف أكثر .. !

– ما دام الأحد سيرانا فلأعطيه " كاورا " أجمل .

ثم عاد بالكرسى مواجها .

جاء رجل بعصير الأناناس ووضعه .

أطار لها الفيل بطرف إصبعه ووضع مكانه العسكرى ، وهو يصيح منسجما ..

– والبادى أظلم .. !

كانت تركز فى مواقع القطع على الرقعه ، بينما تتوه فى فكر آخر .

سألته عن احتمال رجوع طفل الدكتوره هبة إليها .. فأبدى عدم التفاؤل .. !

– أفعل ما أستطيع والله المستعان .

بدت نون مشفقة ، وراح النادى يدعك ركبتيه ويتألم ، وعيناه على قطع الشطرنج ..

كان مقتنعا بأن ظروف هبة أقوى منها .. !

قال إن محنة حياتها الحقيقة بدأت بالمستشفى ، انهيار مركزها المالى ، ثم اضطرارها لقبول القطب شريكا ثم زوجا .. !

لم تتعاطف نون مع فكرة الاضطرار هذه .. قالت إن هبة كانت تعرف من هو القطب ، وكم من النساء تزوج قبلها .. !

تضاحك النادى مشاغباً .

– ألا تقبلين القطب زوجا .. ؟

قدمت العسكرى خطوة فانكشفت الطابية أمام الفيل .

– ممكن أتزوجه سنة واحدة .

سألها وماذا بعد السنة .. ؟

قالت تقدم ملف خدمته للنائب العام .. !

حاول أن يغريها بكشف الطابية فأطاحت بحصانه الثانى .

ظل مأخوذاً لحظات .. ينظر .. !

ثم ضبط الترابيزة فى عنف مفاجئ أطار كوب الأناناس ، وحاول أن يهجم عليها ..

– سأقبلك عشر قبلات .. لأ عشرين .. تعالى .

فارت السعادة بها فجرت تتطاير وتضحك من حوله .

– خالى .. وبعدها معك يا خالى .. !!

(٨٢)

** حاول القطب أن يقنع الدكتوره هبة بأن الاحتمال الأرجح يشير إلى أهل الولد .. فالعملية تمت بمعرفتهم .

واستبعد أن يكون المطمع فى الدية هو الهدف .

وإلا فلماذا لم يتصل المستفيد ليساوى على ما يريد .. ؟

وتشككت الدكتوره هبة فى أن يفعل ذلك أهل الولد ، فالموضوع كان سرا بينها وبين أم هاشم .. !

ثم إن المرأة كانت راضية ، وفعلت ما فعلت عن طيب خاطر ، وبدون أدنى ضغط أو تهديد .. !

وعد القطب بأن يفعل ما يستطيع ، من أجل عيون زوجته ، لإعادة الولد لها ..

ولكن بشرط أن تجنبه المشاكل مع أهله ، لو كانوا هم أصحاب اللعبة . ثم راح يذكرها بموقعه الحساس فى برلمان الدولة ، وخطورة أن ينساق بنفسه إلى بورة الشبهات مع هؤلاء الناس . !

وانزلق القطب بالتدريج للكلام عن أرض العريش ..

تلك التى اشتراها من فاورق غراب .

قال إنه سيذهب ليضيف اللمسات الأخيرة إلى أوراق و " ماكيت " المستشفى ، الجارى إقامته على هذه الأرض هناك .

ثم أبدى ارتياح صدره لأن مشكلة الأرض تنتهى من جذورها ، ويعود العمل من جديد يدب فى المكان .

لم تعره اهتماما ..

فقد كانت تعرف مقدماً خطوات ما يدبر ، للاستيلاء على أرض العريش .. ! تعرف أن لكل سمكة صيادها .

وقد وقع فاروق غراب فى شباك القطب ، كما وقع فى شباك فاروق غراب الكثير من الأسماك الأخرى . !

استغل القطب مرض زميله فى مجلس الشعب وراح يبث فى روعه ، يزرع بذور القلق والرعب من خطورة هذا المرض ، ومضاعفاته المحتمله على صحته .. وعلى حياته .. !

نظرت إليه وهو يأكل فى نهم .. !

يأكل ويفكر فى آن واحد ، وبنفس المقدرة .

وتعجبت ، أمنت بقدرته الخرافية على الابتلاع والهضم .

فالرجل فاروق غراب كان رافضاً وبشدة فكرة التصرف فى أرضه . حتى وقع فى خية المرض ، فسحبه القطب إلى دوامته ، وظل يضغط ويضغط حتى باعه جزءاً منها ، طمعاً فى الرعاية المخلصة بمستشفاه كما وعد ، مستشفى القطب التخصصى ، وأملا فى أن ينال المزيد مستقبلا ، بعد أن ساءت حالته المرضية بدرجة خطيرة .

وبعد أن اكتشف القطب قلة مساحة الأرض التى أخذها ، بالنسبة لطموحاته المتزايدة ، راح ينصب شباكا جديدة للاستيلاء على الأرض كلها .

انتبه القطب لنظرات زوجته ، وبدأ يتحسس ما يدور فى رأسها .

سألها فى هدوء ناعم .. فلماذا لا تشاركه الطعام لكى تبر نفسها . ! ؟

(٨٣)

** توقفت العربة فهمدت شبورة التراب من حولها . أشارت عطيات الممرضة إلى هناك ..

وتلفت السائق قلقا من جو المكان .. رفضت الدكتورة هبه وأمرته أنت يبقى بالعربة فطاوع متغصبا .. !

فر العيال نحوها فزجرتهم ، ووضعت منديلا معطراً على أنفها .

سألت ومشت طواعية ، خلف البنت المتمرغة فى وساخة المكان . دخلت وأرهقها عناد الحذاء ، وهو يغوص كعبه فى الأرض الرخوة ، والتقطت عينها " كادرا " جنسياً مكثفا يبثه الدش ، من وراء باب متهالك موروب ، وكان التليفزيون مائلاً على طبلية فقدت إحدى أرجلها .. !

وهى تصعد أحست بالسلمات تكاد تنهار بها .

ونادت البنت المتمرغة فى وساخة المكان أم هاشم مرتين ، ثم فرت وهى تموت من الضحك على المنديل والأنف .. !

فوجئت به الدكتوره هبة فتجمدت ، وتعلقت نظرتها بذراعه المربوطة .

وحاول هو أن يبدو متماسكا ، مستعداً لأى رد فعل .

ظلا لحظات عند الباب ..

والعيون فى وضع الاشتباك الصامت .. !

تصورت هى أن تهجم عليه وتأكله .. !

وسبقها هو متنحياً للداخل ، بينما يقذف برجله ما يعترض الطريق على أرضية الصالة .

حطت عيناها على الولد فلم تعد ترى غيره .. !

كان نصف وجهه مختبئا تحت البطانية وعيناه تجوسان فى فراغ الحجرة .

قاومت رغبة الاندفاع إليه ..

ثم جلست قريباً على حافة السرير .

خفت صوت الأنين فى صدر أم هاشم وأدارت وجهها تستطلع القادم ، قيدت النظرة منكسرة والدم شحيحا تحت الجلد .. !

وتطلع الولد متعلقا بوجه الدكتوره هبة ، متدافعا البطانية بأطرافه فى همس واهن راحت أم هاشم ترحب وتعتذر وتتحرج مما حدث ..

وتساءلت الدكتوره هبة فى انفعال

– ولكن لماذا .. لماذا .. ؟

سقطت الدمعة من العين فانكفأ وجه أم هاشم ، وردد جاد الشحات وكان مستنداً للباب .

– ظروفنا يا دكتوره .

جاءت البنت لاهثة وفى يدها زجاجة ساقع يترجرج .

انصهرت بقايا المقاومة ، فمدت إصبعها الدكتوره هبة تداعب رقبة الولد ، بينما يهم ويبتسم لها فى تشوق .. !

ألحت البنت بزجاجة الساقع وهى تتمنى أن تحدث المعجزة .

قال جاد الشحات وهو يبدى رغبة التصالح .

- تفضلى الساقع وسنتكلم .

تجاهلت كلامه وأبعدت يد البنت فى رفض قاطع .

زعردت الفرحة على وجه البنت وجرت بالزجاجة ، فقد حدثت المعجزة وفازت هى بالساقع .

قامت وهى تحاصر انفعالها بداخلها .

- تأكد أننى لن أسكت .

مدت أم هاشم يدها من تحت البطانية وضغطت على يد الدكتوره هبة .

- ليس ذنبه .. أنا السبب .

تطاير إلى باب الحجرة صوت الأخوات ، وهن يتشاجرن على زجاجة الساقع فى الصالة .. !

قالت الدكتوره هبة فى حسم أنها ستأخذ الولد وتخرج الآن .

وتفزعت أم هاشم وتحشرج الصوت فى صدرها وهى تتوسل ، ترجوها أن تنتظر قليلاً ، فعندها ما تقوله .. !

أبدت الدكتوره هبة عدم استعدادها ، فهى ستأخذ الولد فى هدوء ، قبل أن تتدخل الشرطة وتأخذه بالقوة .

نزف وجه أم هاشم عرقًا غزيراً .

- يا دكتوره .. أتطلبين الشرطه لأم هاشم .. ! ؟

اعترض جاد الشحات باب الحجرة .

- أنت تصعبين الموقف .. !

انتفضت الدكتوره هبة محذرة .. فهى ستأخذ الولد يعنى ستأخذه ، ولن يستطيع مخلوق أن يعترض طريقها .

بدأ جاد الشحات مستخفًا بأى تهديد ، متوعدا بنظره واعرة ..

– أرينى كيف تخرجين به .. ؟

طلبت أم هاشم من زوجها أن يخرج ، فاعترض وأصرّ على البقاء .

ولما رجته طاوع ، تخوفا على زوجته .

تساءلت الدكتوره هبة موبخة أم هاشم ..

– أهذا ما اتفقنا عليه .. ؟

انحدرت نظرة الأم تتملى الولد وتتشربه ..

– أردت أن أراه .. قبل أن أموت .

سخرت مستخفة ..

– بهذه الطريقة .. ؟

أجهشت أم هاشم بالبكاء وازرقت شفتاها ..

– سيكون عندك غداً ، إن شاء الله .

بكى الولد وتعلقت نظرته بوجه الدكتوره هبة ، فحملته وراحت تهدهده .

ومدت لها أم هاشم علبة صفيح كانت بجوارها ..

– قد يكون جائعًا .

نظرت للعلبة فى اشمئزاز ، واندفعت للخارج وهى تحرص على الولد فى صدرها .

ارتطم رأس أم هاشم بحافة الترابيزة فانقطع نداؤها الملهوف .

بعد لحظات عادت الدكتوره هبة للحجرة ، يسوقها جاد الشحات دفعا من ذراعها أمرها بالجلوس فرفضت فى مكابرة .. !

دفعها إلى الكرسى وحاول أن يأخذ الولد ، فتعلق بها وظل يبكى .. !

وبقيت أم هاشم رافضة الاستجابة لمحاولات زوجها إفاقتها ، فأقسم أن يرتكب جناية إن أصابها مكروه .. !

أخيراً خرج الصوت واهنا من الصدر ، وراحت العينان تبحثان عن الولد وتلوذان بحماية الزوج .

- لا تغضب الدكتوره يا جاد .. !

جلس جاد الشحات فى المواجهة ، وظلت الدكتوره هبة تدلك آلام ذراعها وتتوعد ، والولد يبكى .. !

قال فى حسم إنه لن يبيع ابنه ، سيتصرف ويعيد لها مبلغها .

وظلت هى مشغولة بذراعها ، يراودها الندم لأنها لم تأت بالسائق معها .

وعادت أم هاشم ترجوها ، متوسلة أن تصبر للغد ، وسيكون الولد عندها ، ستعيده لها ، ستأخذه وتحتفظ به كما اتفقنا .

وأصر جاد الشحات على موقفه الرافض ، فهو لن يتنازل عن أبوته ، تأخذ هى فلوسها ويأخذون هم ولدهم .

حاصرتها الدكتوره هبة مؤنبة ..

- أهذا كل ما هناك .. ؟

ألم أعطك ما هو أهم من الفلوس يا أم هاشم .. ؟

وظلت الدموع تسح من عينى أم هاشم ، ويرتجف بدنها الهيكلى

- اعملى معروف يا دكتوره .. اصبرى للغد .

جاءت البنت مندفعة ضاحكة وارتمت تحت السرير ، لتختبئ من إخوتها .

لمحت الدكتوره هبة كوم الخرق الغارق بالدماء تحت السرير .. !

وصلها أبعاد المشكلة فتراجع شىء بداخلها .

همست لأم هاشم لماذا لم تأت للمستشفى .. ؟

أشاحت بوجهها وتشرب صوتها باليأس ، فلم يعد هناك ما يفعلونه .. !

قال جاد الشحات لينهى الكلام .. إنه لن يبيع ولده بكل أموال العالم .

وقالت الدكتوره هبة إنها لن تتنازل عن حقها فى الولد ، وتعرف كيف تتصرف .!

(٨٤)

** كانت نون تتحاشى أن تطفئ لمعان الرجاء فى عينى أمها عنايات .. وهى تنوح بنغمة الحظ العاثر كعادتها .

لذلك فقد راحت تطيب خاطرها وتعدها بتنفيذ رغبتها قريباً إن شاء الله .

وكانت عنايات لا تثق فى هذه الوعود ، المتعلقة بموضوع الزواج ، فكثيرا ما وعدتها ولم تنفذ .. !

كثيراً ما فرشت تحت أقدامها حلو الكلام ، وكان مجرد كلام ، ولكن ما فى الدماغ يظل الدماغ .

وتظل عنايات تتحسر وتعتصر نفسها ، تتوسل لابنتها أن تكف عن العناد وتقتنع بأن ما حدث لى كثيراً ما حدث لغيرها ، فى كل أنحاء الدنيا ، ثم ينتهى الأمر بعدها وينصلح الحال .

فهى ليست أول ولا آخر من وقع فريسة لأطماع زوج خسيس . وكما أن بين الرجال شياطين الإنس ، فبينهم أيضاً ملائكة الإنس .

الإشفاق كله على مشاعر الأمومة وحنانها وطيبتها كان يتبلور فى صدر نون ويسعدها .

يعطيها همة المواصلة ، وطرح ما كان ، لأنياب الزمن ، فهو الكفيل بالطحن والالتهام دون كلل .. !

راحت نون تسرى عن أمها ..

فهى مستعدة لأن تجلس وتتفاهم مع العريس المرتقب ، الذى تكلمها عنه .. فإن كان معقولا فلا مانع عندها ، لن تسوف الموضوع .

ترطب صدر عنايات .

تسربت إليه شعاعات الأمل فراحت تدعو لابنتها بالستر ، وبظل ابن الحلال الذى يسعدها .

سرحت الأم قليلاً ..

ثم تكلمت فى تلقائيتها الأصيلة .. سألت نون عن أحوال عادل النادى معها ، كيف يعاملها ويرعاها .. ؟

وراحت توعيها كالعادة .. تنبه عليها أن لا تتمادى فى الالتصاق به ، فبرغم طيبة خالها وحنانه ، إلا أنه رجل متقلب الأحوال والمعاملة .. !

وقد يفاجئها يوماً بما لا تتوقعه من خال .. !

وطمأنتها نون ...

قالت إن خالها يحبها بدرجة خرافية ، يحرص عليها ويضعها فى عينيه . وذكرتها نون بما فعله من أجلها . أدخلها كلية الاقتصاد ، عينها فى هيئة الرقابة على البنوك ، وأخيراً فقد اتخذ منها ذراعة الأيمن فى مراقبة مشروعاته الكبيرة .. !

وسكتت نون قبل أن تنتبه أمها ..

أرادت أن تعبر بها منطقة الأخذ والعطاء فى موضوع زواجها الفاشل ، فقد امتلأت تماماً بدوامات الكلام والتفكير والعتاب الذى لا ينتهى ، وأصبح همها الآن أن تتجنب هذه المنطقة بكل الوسائل .

ولكن عنايات انتبهت ..

فراحـت تكمـل فى نواح مـآثر الخال عليهم ، فـهو جالب عريس الغـفلة ، الأفاق الذى اختلس المال وكسر القلـب ، الذى هـدم عش الزوجية فى أقل من ثلاثة أشهر .. ثم خطف وطار .. !

ارتمت نون عند قدمى أمها تقبلها وتبكى ..

ترجوها أن تنسى هذا الموضوع لترحمها ، فخالها أراد لها كل الخير .. ولكن .. ! وبكت الأم إشفاقا على قلة حيلتها .. !

... عادت نون من الحمام ، وبعد أن ابتردت طويلاً بماء الدش .

كانت أمها شاردة ومازال الحزن لابدا على وجهها .

أخذتها فى صدرها ، وحاولت أن تخرجها مما هى فيه .

قالـت عنايـات إنها فكـرت جـيداً فتأكـدت أن أحـداً لن يزورها فى قـبرها .. بعد أن تموت .. !

لذلك فهى خائفة وتكاد تموت من الخوف .. !

فوجئت نون بكلام أمها ..

لم تحس منها بهذا التخوف من قبل .

حاولت أن تشـغلها ، تتوه بها فى موضـوع آخر .. ولكن عنايات أصرت على أن تأخذ منها قسما على المصحف .

- أقسم على ماذا يا أمى .. ؟

- على أن تزورينى ، فى الأعياد والمواسم ، وتضـعى السـعف الأخضـر ، وتوزعى الصدقة على قبرى .

- أتشكين فى أن أفعل يا أمى .. ؟

قالت عنايات فى يأس إن أحدا لم يعد يزورها ، من الأقارب ومن غيرهم .. وابنة

بطنها الوحيدة نون ، أخذها العمل المستمر واستولى عليها ، لم يترك لها سوى ساعات النوم المحدودة .

– ساعات الغربة طويلة يا نون وأنا مازلت معك هنا ، نعيش معاً فى نفس البيت ، فما بالك عندما أكون هناك ، وحدى ، فى ظلام القبر .

برغم كتل الحزن على وجه الأم فإن نون غالبها رغبة الضحك .

همت بأن تؤكد لأمها أن العظام والتراب لا يشعر بالوحدة ولا بغيره ، ولكن الأم واصلت .

– أعرف أن ظروفك لن تسمح لك بزيارتى .

وأعرف أن ألسنة أهل بلدتنا لا ترحم ، كلما طلعوا على موتاهم ولم يجدوا أحداً على قبرى .

لذلك أطالبك بأن تقسمى على المصحف ، أن تؤجرى ثلاثة أنفار يطلعون على قبرى ، يقرأون ويوزعون الصدقة أمام الناس .

وإلا فأين أذهب أنا ساعتها من خجلى .. !

(٨٥)

** لم تكن الدكتوره هبة تتوقع زيارة أمها فى هذا الوقت المتأخر . ظنت أن هناك أمراً طارئا فتوجست ، فقد اعتادت أمها أن تتصل قبل أن تأتى .

أخذتها إلى حجرة النوم ، وهى ترحب وتستطلع الأخبار رأت فوزية أن الجو مناسب ، فاتصلت بالسائق وأمرته بأن يذهب ويأتيها فى الصباح .

ثم راحت تتخاطف موضوعات متفرقة ، حتى وصلت لموضوع الولد .

– ماذا تم فى موضوع الولد يا هبة .. ؟

ولم تكن الدكتوره هبة مستعدة للكلام .

– أبدا .. لا شىء .. !

كانت تتأهب لأن تلقى بجسدها المنهك على الفراش ، لعله يتخدر ويغفو عن أنياب القلق ، المتسلطة على الرأس .

ولكن المسائل تعاند .. !

فأمها جاءت لتتكلم معها ، تحب أن تتعاطى أدق التفاصيل ، وتتشد يها فى استمتا ع مع فنجان القهوة ..

– كيف لا شىء .. ؟ أين القطب .. ؟ أين عادل النادى .. ؟

تمددت الدكتوره هبة وأغمضت عينيها .

واقتربت فوزية وراحت تربت عليها وتتحسسها فى مداعبة .

– أرى أن زوجك يتأخر .. خذى بالك منه .

تناومت وبدت تستسلم ليد أمها ، تستحب حنانا متشوقًا ، تتلذذ به ، وتستدعى ذكريات ترسبت هناك .. هناك حيث قاع الطفولة .

– رحمته واسعة يا هبة .. من يدرى .. ؟

اقشعر جسد الدكتوره هبة .. !

دخلت برأسها فى بدن أمها الدافئ .

– أرجوك يا أمى ..

استجاب البدن وحنا على الرأس المرهق .

– لا أحتمل أن أراك هكذا يا هبة .. !

طفرت الدموع من العينين وتشربها الثوب .

ولم تستطع فوزية أن تمسك نفسها .. !

فى لحظة الصدق مع الذات اعترفت باتهامها للقطب ، ظنته عاجزًا عن الخلفة .. فلم تتصور أبدًا أن السبب يرجع لعجز ابنتها .. !

– كل هذا الشباب والجمال ولاتنجبين يا هبة .. !

ازداد دخول الرأس فى البدن فتواصل التفاهم والانسجام .

– الطب لا يرى أملا يا أمى .. أمر الله .

ضمتها فوزية .. وكان الصوت يتعصر إشفاقا ، يتوسل راجيًا أن تتزرع الابنة بالصبر ، وأن لا تتناسى قدرة الله .

فى يأس تسرب الكلام من الصدر .. حتى الولد الذى أنقذته من موت محقق وعملت المستحيل مع القطب لكى تتبناه ، يبدو أنه ضاع منها .. !

تسألت فوزية مستدركة عما تقصده هبه بالموت المحقق .

هبت هبة وشدت أمها إلى الصالة لكى تشغلها .

– تعالى نشرب القهوة .

أدارت فوزية فنجان القهوة تحت عينيها وبدت مندهشة .

– تعالى .. انظرى بنفسك .

قاومت الدكتوره هبة رغبتها فى أن تنظر داخل الفنجان ، وترى الولد البارز من الرحم ، كما تتخيله أمها فى قاع الفنجان .

– يا أمى كذب المنجمون ..

شهقت فوزية مستنكرة تهمة ابنتها ..

– أنا منجمون يا هبة .. ؟

اسألى خالتك .. اسألى بنت خالتك . اسألى كل المعارف . فنجانى لا ينزل الأرض أبداً ، وبإذن الله وحده .

ترددت الدكتوره هبة ..

معقول لا ينزل فنجان أمها الأرض فيخيب علم الأطباء .. !

معقول يأتى الفنجان بالمفاجأة ، فيخرج الولد من رحمها هى ، ليصبح ولدها الحقيقى ، ولدها النابض فى أحشاء قلبها ، الساكن فيه طوال العمر .. معقول ؟ !

– قلت لك تعالى وانظرى بنفسك .

انتبهت هبة .. ونظرت .. ورأت الولد البارز من الرحم .

فترطب صدرها .. ولم لا .. ؟ فمن يعلم .. ؟

أدارت فوزية الفنجان .

– وهذا هو عادل النادى ، خالها ، ماذا يعمل هنا .. ؟ .

ووضعت الفنجان منكفئا ، مبدية عدم الارتياح .

قالت إن عادل النادى قد تغير تماماً فى السنوات الأخيرة ، لدرجة تدعو للشك .!

معقول يرد لها ولأختها عنايات كل ما ابتلعه من حقهما فى الإرث .. ؟

العقارات والأراضى الزراعية والمشروعات ، وبعد هذا الزمن .. ؟

لم تجد الدكتوره هبة أى غرابة فى تصرفات خالها . فمنذ أن وعت عليه وهى تراه إنسانا حنونا ، واصلا للرحم ، يحبها ويساعدها . أما موضوع الإرث فهى تجهل أبعاده الحقيقية .

وأحست أن رغبتها فى الاسترخاء قد تبخرت ، وأن فنجان القهوة قد بدأ ينشط فى الدماغ .

تساءلت تجر الكلام مع أمها ..

أحقا كان خالها طامعا فى أموال أبيه كلها .. ؟

وإذا كان ، فمن أين جاءها وخالتها هذا الثراء الواسع .. ؟

وضعت فوزية فنجانها منكفئا وتنهدت ..

جاء ها المزاج أن تحكى . وجاء ابنتها المزاج أن تستزيد مما تعرف .

قالت إن أصل الحكاية قطعة أرض زراعية ، اشتراها النادى بملاليم ، وبارك الله فيها فدخلت " كردون " المساكن ، ثم بارك فيها فأطلت على شارع رئيسى فى البلد ، ثم تدفقت البركة عندما وقع الاختيار لإقامة مشروع ضخم عليها . وكان أبوها النادى من أنصح المتعاملين بالقرش . وكانت أمها لا تعرف من الدنيا أكثر من رعاية الرجل وحرية الإنجاب .. !

راحت الأيام وجاءت فانهمرت البركة كالسيل .

وأصيب عادل النادى بشلل الأطفال ، بعد أن أفلت وحده من موت لاحق إخوانه الخمسة وقضى عليهم .. !

ولأنه أصبح الولد الوحيد على البنتين ، فقد زرع الهم والندم فى صدرى والديه ، لإحساسهما بالمسئولية فى إهمال تطعيمه .. !

انتبهت الدكتوره هبة لثوب أمها وأخذها جماله .

فتساءلت من أين تأتى بهذه الروعة .. ؟

أبدت فوزية عدم الاهتمام بهذا الموديل ، فعندها العشرات مما هو أجمل وأشيك .. ووعدت أن تهدى ابنتها مجموعة من موديلات حديثة آخر جنان ، ستصل من فرنسا رأسًا .

جاءت الإشارة فى المحمول فنظرت فوزية متراخية .

- موعد الكوافير .. لايهم .. !

وعادت تحكى ، وهى تعمل لنفسها فنجانا آخر على وابور السبرتو الأنيق . قالت إن الأب صرف أموالا طائلة على ولده الوحيد عادل النادى ، فى محاولة علاجه ، فلما فشل ، راح يصرف عليه فى التعليم ، حتى حصل على عدة شهادات عالية ، فى التجارة واللغات والكومبيوتر .. ثم كتب له نصيبًا خاصًا من الميراث ، خارج التوزيع الشرعى .

وللحق فإن أبانا لم يبخل على البنات بالتعليم أيضًا . أنا وخالتك عنايات علمنا ، ولكن تعليم درجه ثانية .. !

المهم بعد أن مات أبونا وضع خالك يده على كل شىء ..

تحول الشاب المعاق إلى مارد جبار ، عنده المال الخرافى ، والعلم والشهادات ، وعنده السعار الغريب فى أن يعتلى الرقاب ، وخاصة رقاب زملائه وأصدقائه .. !

كانت عقدته كرسيه المتحرك .. فأراد أن يثبت للناس أنه يستطيع مالا يستطيعه الأصحاء .. !

شربت فوزية فنجانها وأدارت بقايا البن وكفأته على طبقه . وهى تتذكر فى حزن .. وماتت الأم .. ولكنها انتبهت قبل أن تموت ، فسجلت للبنتين نصيبهما الشرعى فى ميراثها ، ليظل بعيداً عن متناول الأخ .

سرحت الدكتوره هبة .. انشغلت عن أمها واحتوتها الفكرة . هل تنقل أم هاشم عندها فى المستشفى ، فتكون تحت عينها هى والولد .. ؟

فمن يدرى .. وقد تطول المسألة .. !

أى نعم الحالة حرجة ، وقد رأت الأوراق بنفسها ، ولكن الأعمار بيد الله وحده .

كيف تسترد الولد لو لم تمت أمه .. ؟

هى لا تتمنى الموت لأم هاشم .. حاشا لله أن تتمناه .. ولكن .. ولاتحتمل غياب الولد أيضاً .. !

كلام جاد الشحات مازال فى أذنها ، عندما أخذها جانبا واعترف . فقد اضطر للتحايل ولأن يفعل ما فعل ليأتى بالولد .. وذلك لإنقاذ . الأم ولأنها كانت تتقطع تشوقا إليه .. !

من الأفضل أن تذهب بنفسها وتأتى بأم هاشم إلى المستشفى ، فتكون عندها وتحت يدها .. فمن يعرف ، قد يطول الانتظار .. وقد تموت المرأة فى بيتها ويتعقد موضوع الولد ، لرفض أبيه التنازل عن حضانته .

وبرغم أنها وعدته بالتنازل عن القضية وإغلاق ملف تورطه معها ، إلا أنها لا تضمن مفاجأت هذا الرجل ، فالاحتمال الأغلب أنه لن يعطيها الولد ، خاصة بعد أن تموت الأم .. !

(٨٦)

** توقفت العربة ربع النقل عند أول الشارع ، وبداخلها ثلاثة رجال ..

بجوار السور مشى ابن البنى آدم وهو يتلفت فى حذر .

كان الليل هادئًا بعد انقطاع الأرجل والمركبات . عند بوابة مستشفى القطب التخصصى الخلفية اقترب برأسه ونظر بين القضبان . أرسل صفيرًا منغمًا فجاء رجل عريض مهرولا من خلف المبنى .

فتح البوابة وجذب ابن البنى آدم للداخل وأغلق . غابا بعيدًا عن الضوء .

- جاهز ... ؟ كله تمام .. ؟

هز ابن البنى آدم رأسه مستجيبا وهو يربت على جيبه مؤكدًا . مد الرجل العريض يده إلى الجيب فصده ابن البنى آدم فى حسم .

- حسب الاتفاق .

مشيا فى دهاليز البدروم حتى وصلا إلى غرفة الثلاجة .

فتح الرجل العريض باب الغرفة بنفس " الطفاشة " التى استعملها فى البوابة الخارجية ودخلا . اندفع ابن البنى آدم إلى الثلاجة وجذب الرف المقصود فى تلهف .. فلم يجد أباه .. !

كانت هناك جثة امراة بدينة .

نظر إلى الرجل العريض فى تخوف ، فتقدم وجذب رفا آخر ، وكله ثقة فى مكانته الفذة .

- حركة تنقلات روتينية .

بدأ التأثر الشديد على وجه ابن البنى آدم وهو ينظر إلى أبيه ، ارتمى عليه يقبله ويبكى فى حرقه .

- سامحنى يابا .. ! مركوبك ورأسى يابا .. !

راح الرجل العريض يواسيه ، بينما يده تنسل إلى الجيب لتصل إلى الهدف .

زعق فيه ابن البنى آدم زاجرا .

- قلنا حسب الاتفاق .

ثم عاد يواصل البكاء والتوسل لإرضاء أبيه .

انفعل الرجل العريض وزعق متسائلا .

- هتقدر تشيل .. ؟

رماه ابن البنى آدم بنظرة استخفاف ، ثم مال على أبيه ورفعه فى حماس .. وهرولا فى الدهاليز الجانبية ، وتوقفا عند باب المبنى . كان أحد رجال الأمن جالسا يدخن عند البوابة الخارجية .. !

تبادلا نظرات التوجس والحيرة .

همس الرجل العريض لابن البنى آدم .

- اتركه لى ...

بينما باغته بيد سريعة تختطف المائة جنيه من جيبه .

ولم يستطع ابن البنى آدم أن يفعل شيئًا .. كان مشغولا بالحرص على أبيه .. !

وظل يترقب الفرج ، بينما يصبر أباه ويسترضيه فى تحسر .

نادى الرجل العريض من طرف المبنى الآخر على رجل الأمن .. فقام متكاسلا وذهب إليه .

جرى ابن البنى آدم إلى البوابة ، وأبوه يترجرج على كتفه . حاول أن يجذبها فلم تلتفت مستغيثًا بالرجل العريض فلم يجد له أثرًا .. حاول مرة أخرى بدون فائدة .. !

انزوى بعيداً عن الضوء ، والعرق يسح على رقبته ، وأرسل الصفير المتفق عليه ، فلا مجيب .

ركن أباه إلى الحائط فى حرص ، وظل يجاهد مع البوابة وهو يسبب ويلعن عنادها .

سمع صوتا يقترب من خلف المبنى .. فحمل أباه وظل يدور حول نفسه حائراً ومرعوبًا .. !

رأى رجل الأمن عائداً ومعه الرجل العريض يضاحكه .

انتظر حتى عبرا المبنى المقابل وغابا فيه .

جذب المحمول من جيبه وطلب زميله .

- هات حبل وتعال عند السور .

ربط أباه بطرف الحبل وظل يدفع بينما زميلاه يشدان من خلف السور .. ارتجف قلبه وهو يسمع شيئًا يرتطم بالرصيف من الخارج . اندفع يتسلق بكل عافيته موبخا زميليه فى عنف على رعونتهما .

- عندك .. قف مكانك هناك .. !

وفوجىء ابن البنى آدم برجل الأمن يندفع ناحيته مهدداً .

استكان الرجال ومعهم البنى آدم بين جدران مبنى تحت البناء ، مملوء بالرمل والزلط والأدوات .

وظل رجال الأمن يحومون ويبحثون حول المكان .

جاءت عربة البوليس وتجمع الرجال عند باب المستشفى وكان صوت الرجل العريض يعلق في شكل المؤتمر الصحفي تأكيداته القاطعة برؤية للصوص ، وهم يسرقان شيئاً كبيراً ويفرون عبر السور إلى خارج المستشفى .. !

تحرك رجال البوليس لمعاينة مكان الواقعة .. ثم دخلوا المستشفى للاستدلال على المسروقات ، الشيء الكبير الذى أدلى به الرجل العريض . وبعد أن هدأ الجو قليلاً .. بدأ ابن البنى آدم ورجاله يتحركون ، ينقلون البنى آدم للعربة النقل فى حذر شديد .

وعندما دار موتور العربة انتبه رجل الأمن وصاح .

انطلقت عربة البوليس فى تحفز استعراضى خلف العربة النقل تطاردها . كان ابن البنى آدم يحتضن أباه فى حرص شديد ويبكى ، فى صندوق العربة ، متوسلا فى طلب السماح على ما سببه لأبيه من قلق وإزعاج ، باحثاً فى جسده عن أثر الارتطام بالرصيف .. !

كان سائق النقل منتشياً وهو .. يراوغ عربة البوليس ، يتخيل نفسه بطلاً مشهوراً فى مطاردة سينمائية ساخنة .. بينما زميله يشجعه ويغذيه بالخطط العبقرية لتضليل عربة البوليس .

بدأ الرجلان فى حالة غير طبيعية ، حالة انسجام طائش .. !

(٨٧)

** أمر القطب السائق أن يتوقف ، ثم يرجع قليلاً إلى الوراء .. تخيل أنه يرى وجه عباس ، يطل هناك من بين الوجوه .

تطلع بداخل المقهى ثم نزل من العربة واقترب .

تلاقت العيون وشخصت .. هو عباس .. !

أخذه القطب فى صدره وربت عليه بكلتا يديه .

بدأ متشوقا وهو ينظر فيه .

– ياه .. كل هذا الجحود يا عباس .. ؟ !

طاوع عباس فى تردد وركب .

ظل يرد على تساؤلات القطب وعتابه وهو شارد .

– ماذا تفعل هنا فى العريش يا عباس .. ؟

كانت العربة تتهاوى على الكورنيش ، والأمواج تصخب وتنسحب مرهقة إلى جوف ظلمات البحر .

قال عباس إنه حصل على عطاء عملية تركيب مواسير للمحافظة .

أخذه القطب تحت ذراعه وهزه متحمسا .

- كبرت يا عباس وتأخذ عطاءات .

كان المبنى صغيراً وقديماً ، عليه يافطة نيون " مستشفى العريش الاقتصادية " .. ومن ورائه قطعة أرض واسعة ، تطل على أجمل منطقة على الكورنيش .

توقفت العربة ونزلا .. معدات الحفر والنقل والكشافات والعمال والمهندسون ، الكل يعمل فى نشاط .

ألقى منصور مبسم الشيشة ، وتطلع إليهما ، وكان يجلس فى صالة المدخل . حاول أن يخمن كيف وأين التقى الرجلان ، فلم يذكر له القطب شيئًا عن عباس من مدة طويلة .

تكلم منصور مع عباس ، وجاء أطباء المستشفى يرحبون بالقطب ، وجلس كبير المهندسين ليتكلم فى الشغل .

قال القطب لمنصور مباهيا ، إن عباس أخذ عملية كبيرة من المحافظة .

ثم همس فى أذن عباس بما يوحى بأن رجال المحافظة كلهم فى جيبه الصغير .

- اطلب ما تريد يا عباس .

اقترب صوت عربة الإسعاف .. ودخل رجال يسرعون بنقالة عليها مصاب ، لمحه القطب غارقا فى دمائه .

أسرع عباس يساعد الرجال فى حماس ، يدخل معهم حجرة العناية . كان بعضهم يخفون الأسلحة فى ملابسهم .

قام القطب يستطلع .

راوده الشك فيما يحدث ، وعندما نظر إلى المصاب وجده مرشوقًا بالطلقات والنزف لا يتوقف .. !

أخذ الطبيب جانبا وكلمه .. فالأمر يستدعى إخطار الشرطة .

وكانت عيون الرجال تترصد متوجسة .

لم يستجيب الطبيب لكلام القطب ، راح يعمل وكأنه لم يسمع شيئًا .

وجاء منصور ونظر للمصاب وللرجال ، وتكلم معهم .

أخذ القطب وخرجا من حجرة الكشف .

- ما الحكاية .. أتعرفه .. ؟

أجاب منصور بأنه لا داعى للشرطة .. !

وفهم القطب ولكنه لم يتأكد ، فلم تكن مستشفاه هذه " مستشفى العريش الاقتصادى " قريبة من الحدود .

- ولكن كيف .. ؟

قال منصور إنهم يوزعون جرحاهم على عدة أماكن ، لا تهم المسافة . رجع القطب فوجد عباس مازال يساعد بكل الحماس ، فى تركيب المحاليل ومناولة الأدوات وتجهيز المكان ، يده بيد الجميع ، بدأ أنهم يعرفونه ويثقون به .

فوجئ القطب بعينى المصاب تنفرجان فى استماتة وتلوذان بعينيه ، كانتا مقهورتين والغيظ يفور ببريقهما فى صمت عميق .. !

وأحس وكأن هذه الملامح ليست غريبة عليه .. رآها من قبل وتعايش معها زمنا .!

قال منصور فى استعجال إن عطيه القفاش ينتظر ، وسحب ذراع القطب فمشى معه إلى هناك ، حيث عرفة القطب ، صاحب المستشفى . قال عطيه القفاش إن طلبية الأدوية كلها جاهزة ، ماعدا نصف كمية الأنسولين .

وأخرج من حقيبته كشفًا مكتوبًا باليد ، فأخذه القطب ونظر فيه .. وقال منصور نسحب له المبلغ نقدًا من البنك .

وطلب من الرجل أن يسلم الأدوية غدا فى مخازن مستشفى القطب التخصصى ، وتساءل القطب محذراً ، خشية أن تكون أفلتت ولو علبة واحدة عليها ختم التأمين الصحى ، أو تاريخ الصلاحية .. !

فابتسم عطيه القفاش مستخفا بالكلام .

- عيب يا باشا .. إحنا ملوك اللعب الصح يا باشا . ولما رأى القطب نافراً من كلمة باشا .. لاحقه .

- قصدى ياحاج .

وكرر مؤكدا أن أسعار الطلبية القادمة تزداد خمسة فى المائة . قام القفاش وخرج من المستشفى .

وراح القطب يراجع كشف الأدوية .. ويراجع الأرقام على الآلة . قال إن الطلبية كلها تصفى مليونين وربع .

أخرج منصور ورقة من جيبه ونظر فيها . هز رأسه مؤيداً .

- يعنى .. تقريباً .. !

فتطلع إليه القطب مستاءً ، ثم تسربت الإبتسامة لملامحه ، بينما يثنى عليه . فهو صاحب فكرة الدخول فى لعبة التأمين الصحى ، وهو القائم بتهيئة الجو فى وزارة الصحة .. مع القابضين على خيوط اللعبة ، والمتعاقدين مع شركات الأدوية ، وأمناء المخازن ، وحملة أختام التأمين الصحى ... ولكن .. !

وتراجع القطب متعاليا فى كرسيه ..

ينبه منصور لدوره هو ، فهو صاحب الحال ، والقطب هو الممول ، ولولا التمويل ما كان هناك تأمين صحى ولا غيره .. !

أبدى منصور دهشته المرسومة .

فلماذا يطرح القطب عليه هذا الكلام الكبير .

– المراجعة زيادة ضمان .. أنا وأنت فى سلة واحدة .

وسايره القطب ردا برد على دهشته ، فهو لا يقبل أن يكون تحت العين المراقبة ، ثم كيف يجرؤ فيشعره بذلك علانية .. ؟

سكت منصور وبدأ يفكر ..

اقترب من القطب وتسرب منه الصوت مستثيرا .

– عملت دراسة جدوى إنما إيه .. لا تخر النقطة .

تشاغل القطب بأوراقه ولم يهتم .

واصل منصور كلامه .

– مشروع مسابقة التليفزيون . مسابقة العمرة .

جاء عباس ووقف عند الباب .. كان يريد أن يخبر القطب لينصرف . استبقاه القطب باشارة يده .

– إنتظر يا عباس .. عاوزك .

اقترب منصور أكثر وهمس للقطب .

– مكسب مبدئى مائة مليون .

ترك القطب أوراقه وانتبه ..

– أين هى دراسة الجدوى .. ؟

وأخذ الأوراق وراح ينظر فيها بإمعان .. !

(٨٨)

** نادى عليه العسكرى فانتفض مفزوعًا من غفوته ، نظر لرفيقيه فى استطلاع ، وكانا يدخنان هناك فى الركن ، مع بعض رجال التخشيبة .. !

بدت كل العيون محمرة ومتثاقلة ، فى جوف الضوء الشاحب وشبورة الدخان المتكاثفة .

مشى ابن البنى آدم مع العسكرى ممتثلا ، وعيناه تبحثان متلهفة فى أنحاء المكان .

كان هدوء آخر الليل جاثمًا على جو القسم . وكان بعض رجال القوة متناثرين يغطون فى النوم فى أكفان الظلام .

حاول أن يتفاهم مع العسكرى ، فأخبره وهو تائه فى ملكوت الله أنه لا يعرف أى شىء فى أى شىء .. !

بكى متوسلاً .. فهو لا يريد أكثر من أن يرى أباه .

كان قد تركه هناك موضوع فى الحجرة ، فأين ذهبوا به .. ؟

اقترح عليه العسكرى احتمال أن يكون أبوه قد ذهب ، تركه وذهب لحال سبيله .!

أمسكه ابن البنى آدم من كتفه وهزه ..

فأبوه كان ميتًا ، والميت لا يمكن أن يتحرك .. !

بدت البلاهة تتمدد على وجه العسكرى ، وهو يؤكد أنه لم ير فى حياته أمواتا تدخل التخشيبة .

ظل ابن البنى آدم واقفًا أمام الصول صاد ..

وكان يحكى له الموضوع من أوله ، يحكى ويبكى والدموع تتساقط على قذارة البلاط المتراكمة .

فى البداية لم يكن الصول صاد مهتمًا على الإطلاق بكلام ابن البنى آدم . ولكنه بدأ ينجذب بالتدريج ويدخل منطقة التفاعل .

فأشعل سيجارة من سيجارة ، وناول ابن البنى آدم واحدة ، وهو يطالبه بإعادة ما قال ، عما فعله للاستيلاء على جثة أبيه من هؤلاء الكفرة .. فأعاد ابن البنى آدم شريط الأحداث ، مركزًا على لحظات المأساة الحقيقية ، على طلب المستشفى مبلغ عشرة آلاف جنيها لليلة واحدة ، لرجل ميت .. وإلا تظل الجثة فى ثلاجة المستشفى ليوم القيامة .. بكى الصول صاد وأعطى ابن البنى آدم نصف كوب الشاى مقسمًا أن يشاركه فيه . قال فى تحسر إن أباه تعرض لمثل هذا الاعتداء من مقاطيع الجبل الشرقى فى بلدهم . طالبوه بديه كبيرة فلما أصر على عدم الدفع قتلوه وأخذوا جثته عندهم ، رهنا لدفع الدية .

وهب الصول واقفًا أمام المكتب ، ودق عليه بقبضته مؤكداً عملية انتحارية قام بها مع أصحابه للاستيلاء على جثة أبيه ، وفعلا وبرغم إصابة بعضهم إلا أنهم تمكنوا من تحقيق الهدف ، وعاد بأبيه ودفنه فى مقابرهم .

– إياك أن تترك أباك للمقاطيع .

دخل الضابط النوباتجى معقود الوجه وارتمى خلف مقعده فى قرف .

تساءل إن كان الصول صاد قد أخذ أقوال ابن البنى آدم .

جفف الصول دموعه وهو يدارى وجهه عن الضابط ، ويخبره بأنه بصدد أخذ الأقوال فوراً .

عاد يتساءل الضابط وهو ينظر لساعته فى قلق عن مكان المسروقات . وهل تم تسجيلها بالقطعة والصنف والعدد .. ؟

وهل تم تحريزها وتخزينها جيداً .. ؟

فأخبره الصول صاد أنهم وضعوها فى المخزن المجاور .. واقترب هامساً لأذن الضابط فى توضيح .. فهب فيه مؤنباً .

– أكلمك عن المسروقات وتكلمنى عن الجثث والأموات .. ؟ توترت ملامح الصول صاد .. فكر أن يعيد المحاولة مع الضابط فلعله يفهم ، أو يبدأ فى الفهم .. !

– يا فندم المسروقات هى جثة أبيه .. !

باغته الضابط وعيناه لا تستقران ، فهو هكذا يضيع الوقت فى الكلام الفارغ ، وراح يؤنبه على تعقيد الأمور ، وهى مجرد جنحة سرقة هايفه ، معقول تأخذ كل هذا الوقت يا صول .. ؟

وفى حسم أصدر أوامره النهائية .

– حرزوا المسروقات لحين تسليمها للمستشفى بإيصال رسمى .. فاهم بإيصال رسمى .

ثم نظر إلى ساعته ، وإلى أكوام الأوراق الملقاة على المكتب .

– هات ورقة بسرعة

ناوله الصول صاد ، فأخذها ووقع فى ذيلها وأرخها وألقاها على المكتب وهو يتحرك للخروج .

– خذ منه كلمتين ثم ارمه فى الحجز لبعد بكره ، يوم السبت عرض على وكيل النيابة .. فاهم يا صول .. ؟

وخرج الضابط مندفعاً .. ثم عاد ساخطاً يأكل نفسه ويكاد يفتك بابن البنى آدم .

– ناقصين سرقة الأموات يا ابن الـ ... !

نظر الصول إلى ابن البنى آدم ، تاركًا دماغه يفكر ويتعامل مع الموقف . فرد الورقة الموقعة من الضابط ، وراح يطلق الجيم وراء السين فى سرعة رهيبة ، وبدون أن يعبأ بابن البنى آدم أو يشركه الرأى فيما يسجل .

وأخيراً ألقى بالقلم وتنهد فى راحة .

تذكر شيئًا فعاد يلتقط القلم ويكتب إيصالا على ورقة أخرى .

" تلسمنا نحن الموقعون أدناه على كافة المسروقات ، وهى كاملة وسليمة وبحالتها الأصلية ، ولا تفض الأحراز إلا بمعرفة لجنة بالمستشفى صاحبة الشأن وصاحبة المسروقات .. التوقيع .. التاريخ " .

ثم طلب من ابن البنى آدم أن يتبعه .

فى الحجرة المجاورة كان صندوق المستشفى مركونًا .

فتحه الصول صاد وقال فى حماس مأمور القسم وهو يواجه موقفًا عصبيًا .

– هل تستطيع أن تدفن هذه المسروقات خلال ساعتين .. ؟ كان ابن البنى آدم منهاراً وهو يتطلع إلى جثة أبيه ، الممددة فى الصندوق هزه بعنف الصوت المتحمس ، صوت الصول صاد ، فأطلق منه رد الفعل المغلول .

– وشرفك يا باشا ، ساعة زمن واحدة .

تشاركا فى إخراج البنى آدم من الصندوق وركنه بجوار الحائط .

ثم فى تعبئة جوف الصندوق بقطع من المهملات تعادل بالتقريب وزن الجثه ، أغلق الصول صاد الصندوق وختمه بالشمع الأحمر .

قال إن رجال المستشفى ينتظرون أمام الباب العمومى ، وطلب من ابن البنى آدم أن يحمل أباه ويفلت من الباب الخلفى للقسم . يؤدى المهمة ثم يدخل التخشيبة قبل حركة الفجر .

ثم سأله وهو يعتصر كتفه بيده الكبيرة .

- كلام رجاله .. ؟

أخذ ابن البنى آدم اليد الكبيرة وراح يقبلها ويبللها بدموعه .

- جميلك برقبتى يا باشا .

ساعده على حمل أبيه ، فأخذه على كتفه وطار .. !

نادى الصول على رجال المستشفى .. وطلب منهم التوقيع على إيصال استلام المسروقات قبل أن يحملوا الصندوق .

فأذعنوا .. ثم نقلوه إلى العربة فى نشاط .. !

(٨٩)

** كان عباس لا يريد الآن أن يجالس القطب ويتكلم معه . ليس مستعداً لأن يضع نفسه بين يديه ، فالوقت لا يسمح والقطب لا يتمتع بالقشور وإنما يحفر ليصل للنخاع .. !

ولم يستطع عباس الإفلات .

فلم يترك له القطب فرصه لذلك ، فطاوع مضطراً .. !

وخرج منصور متراخياً ، مؤكدا للقطب موعد السفر للقاهرة بعد الفجر مباشرة .

قال القطب وعيناه تتشوقان لمراقبة وجه عباس .

- كلمنى يا عباس .. هات من جوه .

تردد عباس .. ماذا يقول .. ؟

فتساءل القطب مستحثًا .

- مالك يا عباس .. ؟

ولعلمك كنت أستطيع أن آتى بك .. ولكنى انتظرت لأعرف وماذا بعد .. ؟

تكلم عباس .. فهو لا يزال يكن للقطب كل العرفان .

ولكن الظروف والزواج والعيال .. !

اصطاد القطب الكلمة فبدت تسعده .

- مبروك .. خلفت عيال يا عباس .. ؟

قال عباس إنه أصبح أبا منذ ثلاثة أشهر فقط . وأنه يسكن فى مدينة الشروق .

انفلتت من فم القطب مستطلعة

- ولد . . ؟ خلفت ولد يا عباس .. ؟

قال عباس إنه خلف ولدين ، توأمين .

ضحك وجه القطب وغمرته فرحة حيرت وجه عباس .. !

معقول يفرح القطب لأنه خلف ولدين .. ؟

فرح حقيقى أم قناع يخفى العجز عن امتلاك الولد .. ! ؟

كان القطب قد تذكر أخاه عبد التواب ، يوم أن جاءه طائرًا من السعادة ، معلنًا البطولة فى خلفة الذكور ، ثلاثة ذكور فى بطن واحدة يا فرس النبى . ! مازال عباس يشبه المرحوم عبد التواب ، ويزداد الشبه ويتأكد بمرور الأيام . والعجيب أن يخلف عباس التوائم أيضًا .. توائم الذكور .. !

- أعطنى واحدًا يا عباس .

وأحس بها عباس تنسلخ من صدر القطب .

- كلنا لك يا حاج .

قالها عباس معترفًا بولائه للعشرة ، مطيبًا خاطر العقدة القابضة على القطب . . فمهما حدث بينهما فالرجل أعانه وأكرمه فى محنته .

طلب القطب أن يأتوا بالطعام . وأعلن أنه ينفرد بعباس ويستمتع به .. ثم عاد يقولها فى حماس .

– كلمنى يا عباس .. هات من جوه .

قال عباس أنه بدأ بمقاولات صغيرة مع مرافق الحكومة ، وتخصص فى عمليات خطوط المواسير ، وأن الله فتح عليه فاشترى عمارة فى مدينة الشروق ، يسكن فى شقة بها ومعه حماته انشراح وابنتها حسنيه آه انشراح .. !

وتخاطف الرأس ومضات من شريط الذكريات ، تتابعت متلاحقة فى بؤرة العرض الداخلى .. !

– فايزه .. أنت تزوجت فايزه .. ؟

ولم يتصور عباس .. كيف يتناسى القطب حدثًا قريبًا هكذا .. !

أم تراه شطب كلية هذه الفترة من حياته .. ؟

أخذه القطب خارج المبنى ، بعد أن أكلا .

وكانه يتكلم بصدر منشرح .. يريد أن يبوح له بالأسرار ، أن يشركه الرأى فى أعماله ومشروعاته وحياته ..

أن يستأنس به كما كان ..

فى رحاب الجو الصافى .. النظيف .. الصادق كل الصدق .. جو أخيه عبد التواب .. قال إنه اشترى هذه المستشفى الصغيرة لموقعها المتفرد ، وأنه اشترى كل الأرض المحيطة بها .

ومد القطب ذراعه ماسحًا المنطقة الواسعة .

– ستكون هنا دار القطب للعلاج الراقى .

كانت لسعة برد خفيفة تسرى فى جو الليل ، الهامد على الشاطىء ، والحدائق والفنادق والقرى السياحية واستراحة المحافظة .

تطلع عباس إلى الأرض والمعدات والموقع ، وبدأ مأخوذاً .. لا يعرف كيف يسقط القطب على وجه الدسم فى كل مرة .. ؟

وتساءل فى استطلاع .

– ولماذا دار للعلاج بالذات .. ؟

جذبه القطب تحت ذراعه وراح يكلمه . فقد ربح الكثير من مستشفاه التخصصى بالقاهرة ، وتعرف على الكثير من الشخصيات الهامة ، وأن الأبواب المغلقة انفتحت له على مصراعيها ، وقبل أن يمد يده إليها .. !

وأهمها أبواب مصانع الأدوية ، ودهاليز التأمين الصحى .

وضغط على عباس لينتبه .

– يصل مخازنى نصف أمر توريد التأمين الصحى .

لم يفهم عباس فقال معلقاً .

– رأيتك بالأمس تتكلم فى التليفزيون ، فى مجلس الشعب . وواصل القطب دون أن يهتم .

– مكسب ثلاثمائة فى المائة يا عباس .

اقترب منهما صخب الأمواج المتلاحقة للشاطىء .

– ياه .. نسبة كبيرة .. !

قال القطب إن البلد مملوءة بالخيرات ، والمسألة تحتاج فقط لشىء من تفتيح المخ ..

ثم فاجأ عباس وهو يتوقف به على الشاطىء .

– امسك أنت هذه المستشفى يا عباس .

أغرقت الدهشة عباس فضحك .

ظن أن القطب يلاعبه ليتسلى .. !

– طاوعني يا عباس .. ستأكل حتى تمتلئ .. وأنت الأولى ، قال عباس إنه لايفهم في أمور العلاج والطب والأدوية ، فكيف يمسك مستشفى بالملايين .. ؟

بغير اهتمام بكلام عباس واصل القطب ، فهو سيجعله مشرفا عامًا على الإدارة ، وأطقم الأطباء والممرضات والموظفين ومخازن الأدوية ، فالمسألة ليست عويصة كما يتصور ، ثم إن دولاب العمل يتحرك آليا ، كل الأجهزة الحديثة والنظم ذات الكفاءة الخرافية .

– التكنولوچيا يا عباس .. وأنت ستراقب وتعطي أوامرك .

دارت دماغ عباس ، تكنولوچيا وأوامر وحرس .. !

ماذا يريد القطب .. ؟

قال القطب إن مشكلته الآن هو الوقت .. ثم إنه لا يريد أن يضع المزيد من أعماله في يد منصور ..

– فاهم يا عباس .. أنت طول عمرك ذراعي الأيمن .

ارتفع صوت عربة الإسعاف ، يدخل المستشفى ، فنظر عباس إلى هناك وبدأ قلقًا . !

استأذن من القطب ليذهب ، فأمسكه ورجع معه .

كان الرجال يأخذون المصاب إلى العربة . وأسرع عباس يساعد في حماس المصاب لا يتحرك وهم يحملونه ، ملفوفًا وقاطع النفس .. !

وبعد أن ذهبت العربة تساءل القطب .

– أتعرفهم . ؟ أهو فدائي من المقاومة . ؟

هز عباس رأسه وهو متأثر .. !

عاود القطب مستطلعًا ..

(٩٠)

– هل مات . ؟

** فى حجرتها الخاصة بمستشفى القطب أمرت الدكتوره هبة بعدم الدخول عندها أو إزعاجها . قالت نون وهى تتأمل وجهها المرهق إن علاجها السفر ، شرم الشيخ أو الغردقة وتبتعد عن جو المرضى وشد الأعصاب ودوامة الولد . !

– تشربين قهوة كثيراً يا هبة .. معقول . ؟

أخذت الرشفة الأخيرة فى بطء ممطوط .

– ليتنى أنام .. يومان ولا أستطيع . !

اقترحت عليها نون أن تنام هنا فى حجرتها .. السرير والتكييف والهدوء ، أليس هذا كل ما تحتاج .. ؟

اتصلت الدكتوره هبة بالاستقبال تؤكد إخطارها فور وصول المريضة أم هاشم يوسف البحيرى .

حذرتها نون ، فأعصابها تتوتر بدون مبرر .. وإذا كان الرجل زوجها قد وعد بأن يأتى بها ، فلم هى مشدودة هكذا .. ؟

قالت الدكتوره هبة إنها لم تعد تثق بمخلوق ، فالكل مشغول بحاله ، وهى لا تستطيع أن تنسى الولد لحظة واحدة .. !

لم يعجب نون الكلام . وتدخلت لتنصحها ، تعرف أن ابنة خالتها عاطفية أكثر مما ينبغى ، رغم دراستها العملية ، وتعاملها مع حدة المشرط ، وبلادة الأعصاب ،

إلا أنها تكاد تذوب رقة وتأثراً بالمشاعر الإنسانية ، تتشوق بكل كيانها لأن تصبح أما ، ولو ضحت بكل أمجادها فى العلم والوجاهة الاجتماعية .

- على أسوأ الفروض ، لو ضاع منك هذا الولد ، فيمكنك تبنى ولد غيره .

خلعت الدكتوره هبة حذاءها وتمددت على السرير ، تكلمت وهى مغمضة العينين .

قالت أنت لا تعرفين .. إنه ليس مجرد ولد تبنيته .

وسكتت .. فاقتربت نون تتحسس رأسها .

- إحك لى .. الكلام يخفف عنك .

قالت الدكتوره هبة إن أم هاشم تعمل ممرضة هنا فى المستشفى ، فى قسم الولادة ، وكانت تعطف عليها وتساعدها لما وجدته فيها من تفان فى خدمتها والتقرب إليها .

أم هاشم كانت ضعيفة صحيًا من كثرة الخلفة ، ثلاث بنات وزوجها يريد الولد . رأتها تموت وهى على وشك الولادة ، فأدخلتها الرعاية لتضع تحت إشرافها وعلى نفقتها . وبعد معاناة كبيرة وضعت الولد . ولكنها اكتشفت أن كليتيه مدمرتان ، ولا يمكن أن يعيش هكذا .. ! ولما عرفت أم هاشم بالكارثة ظلت تبكى وتستنجد بها ، تتوسل أن تعمل شيئًا . أن تدبر له كلية تمنحه الحياة ، فالولادة لا تتوقف فى حجرة العمليات ، وهى لن تغلب فى نقل كلية أحد الأجنة ، ممن يموتون أثناء الولادة .. نظرت الدكتوره هبة لنون وشردت .

قالت إنها فوجئت بكلام أم هاشم ، فهى التى زرعت الفكرة فى رأسها ، أوقدت الرغبة فى مشاعرها وجعلتها تبادر بكل التشوق والحماس . ! أم هاشم هى التى ساومتها على أن تنقذ حياة الولد ، فى مقابل أن تعطيه لها ، تتبناه ، وإن شاءت تكتبه بإسم زوجها ، كى لا ينازعها فيه أحد .. وأقسمت بأن لا تخبر أبا البنات بأكثر من أن المولود قد مات وهى تضعه .. !

تساءلت نون فى غير ارتياح عن مدى العلاقة التى أتاحت لأم هاشم أن تعرض عليها عليها هذا الأمر .. ؟

قالت الدكتوره هبة إن معاملة أم هاشم معها جعلتها ترتاح لها ، فتأتى بها كثيراً لبيتها ، لتقوم ببعض طلباتها ، ولتؤانسها فى أوقات الوحدة .

– أم هاشم كانت تعرف مدى لهفتى على الأمومة .. !

استدارت الدكتوره هبة ناحية الحائط .

وضحكت فى سخرية .

– الجنين الذى أخذنا إحدى كليتيه ، والمفروض أنه كان لا محاله ميتًا فوجئنا به يعود للحياة ، ويصبح مثل الجن .. !

انتبهت نون وقد راودها الشك .

– هل كتبت الولد باسم القطب .. ؟

قالت الدكتوره هبة مستنكرة إنها لم تكن لتفعل مثل هذا الجرم .. !

وجاش التأثر يتمدد فى صدرها ..

فالمشكلة ليست فى تحديد ملكية الولد ، ليست فى تسجيله باسم القطب أو باسم أبيه .. ولكن المشكلة عندها هى ، بداخلها هى ، فقد تعلقت بالولد وأصبحت لا تطيق فراقه لحظة . الولد استكان فى حضنها ستة أشهر ، امتص جسدها من دفئه ، ورائحته ، ورعشاته ، وضحكاته وبكائه ، خلالها حتى ارتوى .

كان الأمل ممكنًا طالما الأب لم يعرف ... أما الآن . !

ومسحت الدكتوره هبة قطرات دموعها .. !

– أما الآن ماذا .. ؟

– الآن تغير الحال ، ولا أعتقد أن الرجل سيترك ولده .

واعتدلت الدكتوره هبة جالسة ، تحكى وهى تغالب الانهيار .. فمن يصدق وهى تمتلك كل هذه الإمكانيات العلمية والمادية ، بالإضافة إلى وازعها الدينى المتنامى ، من يصدق أنها تتدنى لدرجة السرقة ؟ !

تسرق عضوا بشرياً ليظل صاحبه ضحية بريئة ، يعيش بكلية واحدة مدى الحياة . !
ثم تأتى الأقدار لتعاقبها ، فيؤخذ منها الطفل الذى ارتكبت الجريمة من أجله . !
تساءلت نون عن حالة الأم الميئوس منها ، أم هاشم .

وعن إمكانية الأب من رد المبلغ الذى أخذته زوجته .

وراحت تطمئنها بأن كل الظروف فى صالحها .. ثم إن المرأة وعدتها أن تعيد لها الولد .

بدأ اليأس يحاصر صدر هبة وهى تستبعد أن ترى الولد مرة أخرى ، فقد سبق أن وعدتها . أم هاشم ولم تف بوعدها .

فأرسلت رجلها ليخطف الولد من أحضانها ، وبعد أن أصبح قطعة منها :

قالت نون مبتعدة بها عن هذا الاتجاه .

– خالك يريد أن يراك .. أتأتين معى .. ؟

أبدت الدكتوره هبة عدم استعدادها ، فهى تنتظر وصول أم الولد لتعرف الأحوال .

وتمادت نون معها ، تخفف عنها الضغط العصبى ولو للحظات .

فراحت تحثها على أن تأتى معها لقصر المطرية ، القصر التحفة الذى دفع فيه الخال مبلغاً فلكياً ليعيش فيه بمفرده ، والذى سيتركه بعد أيام . !

قالت الدكتوره هبة ويدها مترددة على التليفون .

– يتركه لمن .. ؟ ولماذا .. ؟

قامت نون تنظر فى المرآة وتساوى خصلات شعرها .

قالت إن ورثة القصر من العائلة المالكة كانوا قد رفعوا قضايا لاسترداد حيازة القصر ، والذى كان مصادراً من أيام الثورة .. وبعد أن تمكنوا من الحصول على الحكم ، وثبت بطلان التصرف فى القصر ، أصبح المسئولون مطالبين بإعادة الحقوق لأهلها .

رن جرس التليفون فبادرت الدكتوره هبة .. تكلمت وهى تتوقع .. ثم فترت نبرتها .. وأعادت السماعة مخذولة .

وعادت نون تحثها على أن يذهبا معًا . فلن تقوم الدنيا خلال ساعتين ، ثم إذا جاءت أم الولد يحتجزونها حتى تعود .

– طاوعينى ، سأخذك إلى أماكن فى القصر تدهشك ، ثم إن خالك سيهديك أشياء لا تقدر بمال .

تساءلت الدكتوره هبة وهى تفلت من حصار أفكارها

– أى أشياء .. ؟ لى أنا .. ؟

توقعت نون أن تأخذها معها .

فراحت تؤكد أن خالها يقتنى كمًا رهيبًا من التحف والأثريات ولا يعرف أين يحتفظ بها .. ؟

مشت معها الدكتوره هبة فى استسلام .. !

أراحها أن تبتعد عن جو العمل وتضع دماغها فى ثلاجة مؤقتة .

فى العربة واصلت نون عملية الحكى ، لتظل مسيطرة على الموقف .. كانت تحكى عن خالها ، عن درجة الثراء الخرافية التى وصل إليها .. !

– خالك أصبح مليارديرا يا هبه . أمثاله معدودون فى البلد . وفاجأتها الدكتوره هبة بسؤالها .. فماذا تعمل هى عند خالها .. ؟

قالت نون إنها تشعر بخالها يعانى من عقدة الذنب ناحيتها ، تصور أنه كان سبباً فى زواجها الفاشل ، فحاول أن يعوضها بما يشغلها ، هو الآن يضعها فى عملياته الخاصة جداً ، ويعطيها أجراً يفوق الأحلام .

– عملياته الخاصة جداً .. ؟

وجدت نون متعة فى الكلام ، وهى تبوح لابنة خالتها بما عرفته عن خالهما عادل النادى .

تمددت فى المقعد وراحت تتكلم فى تمهل .

قالت إن عادل النادى ليس هينا كما يبدو ، فبرغم طيبة قلبه فإن عاهته قد أثرت على شخصيته وحولته إلى شىء رهيب .. !

غرفة مكتبه بالقصر فيها ما يزيد عن الألف ملف ، كلها وثائق وشهادات وبيانات لكبار الأسماء .

نظرت إليها الدكتوره هبة .

– ملفات .. ؟ هل سيفتح داراً للوثائق .. ؟

قالت نون إن خالها على علاقة غريبة بكبار المسئولين ، من مباحث الأموال العامة والمباحث الجنائية ، والشرطة والقضاء .

وأنه يتصيد من الملفات بين حين وآخر ما ثقلت أوزاره منها فيفضحه على السطح ويلقى به بين تروس العدالة .

بدت الكتوره هبة تواجه عرضا لفزورة لا تفهمها .

– ما الحكاية يا نون .. خالك يعمل فى المباحث .. ؟

وقفت نون توصلها لدرجة اليقين .. !

ولكنها باحت بأنها تساعد خالها فى جمع المعلومات وحفظها فى الملفات .. وبأنها كثيراً ما تسمعه يحادث أسماء كبيرة ، ثم تفاجأ بقضية كبيرة منشورة فى الجرائد .

– هو الآن يطفو بملف مدير بنك معروف إلى السطح ، لينسفه .. !

تساءلت الدكتوره هبة متشككة

– أيحارب خالك فساد البلد .. ؟

أخذت نون الحمية على خالها ، ظنت هبه تلمح لشىء فى نفسها .

– خالك رجل نظيف ، كل ثروته أطهر من الطهارة .

وراحت تحكـى لهـا تدخلـه الأخـير فى فـوضـى عـمليـات قـروض البنـوك .. وكيف أنه كشف تورط عزت الأبيض مدير البنك الفلكى .. !

– خالك أشركنى فى العملية من الألف للياء ..

ضحكت الدكتوره هبة ساخرة من نفسها ، مؤكدة أنها أصبحت كأطرش الزفة .. !

قالت نون وهى تتباسط لتدخل دماغها وتتفاهم معه .

عـزت الأبيـض كان يصـرف قروضاً لرجل الأعمال بضـمانات وهمية ، يسانده فى ذلك المستفيدون من أصحاب الأسماء الكبيرة ، الأسماء المخترقة لحدود الزمان والمكان فى بلدنا .. !

ظل خالك ينصب الشباك ليوقعه ، فلم يكن الرجل هينا .

وضغطت على رجل الدكتورة هبه فى حركة أنثوية .

– ووضعنى طعماً له ، بعد أن جهزنى لنزول أرض الملعب . وضحكت فى استعلاء فأضحكت الدكتوره هبة .

– أجعلك مخبراً سرياً .. ؟

تباهت نون بنفسها .

– عندى مؤهلاتى .

تعلقت نظرة الدكتوره هبة بينهما معاتبة .. وفهمت نون .. فأبدت تحفظها .

– لست سوى كاشفة من الخارج .. للأوراق .

اطمئنى يا هبة هانم .. !

ثم أبدت الجدية وهى تضع اسم القطب بينهما ، تنبه ابنة خالتها بأن عادل النادى قد وضعه فى دماغه ولن يتركه .

جرفت الدهشة ملامح هبة وهى تهم بالكلام .. !

(٩١)

** أصبح الأمر مرهقًا للغاية .. !

فأنا لا أستطيع أن أتابع بنفس المهمة التى كانت .. !

أريد أحداً يساعدنى .

.. لابد أن يكون هذا الأحد موضعًا للثقة ، يكون كتومًا وأمينًا .

.. الكتمان والأمانة هما كل ما أحتاج . هما تأشيرة الدخول لمحراب ملفاتى ، والتعامل معها .

.. وإلا فقد تنهار المسائل كلها فوق الرءوس .

.. أين ذهبت نون .. ؟

– يا نون .. أين أنت .. ؟

أنا لا أستطيع أن أحملها فوق طاقتها .. لا يجب أن أحملها .

.. أى نعم هى نشيطة وكتومة ، ولكنى أضغط عليها قليلاً .. !

.. هل أضغط عليها قليلاً ، أم ترانى أرهقها أكثر مما ينبغى .. ؟

.. هى لم تتبرم يومًا ، لم تتخاذل فيما أطلب منها .

على العكس .. تبدو تعايش السعادة وهى تناور عملاء الملفات . ثم هى الآن أصبحت متفرغة للعمل المقيد .. للانطلاق الحقيقي نحو مستقبلها .. وإلى أن تجد الزوج المناسب فالعمل المرهق هو علاجها النفسى ، بالتأكيد هو علاجها الطبيعى .

.. وبالتأكيد يأخذها عن التفكير والقلق وقد يشعرها بتحقيق الذات وبشكل تلقائى .

.. الأهم من ذلك فهى من لحمى ودمى .. ولن تجرؤ على عض يدى يومًا من الأيام .. !

أين صندوق الصور ؟

.. آه ها هو .. تعال يا كنز حياتى .

.. سرعة أصابعى تبدو مذهلة وهى تجرى وتتقافز على لوحة المفاتيح . مضت فترة طويلة لم أتطلع للصور على الشاشة .. لم أستدعها وأتكلم معها كالعادة .

كنت مشغولا عنها !

.. آه هذه صورة ثالثة أول . أعرفها قبل أن تظهر البيانات .

إبراهيم عيسى ومسير برسوم ، آخر تخته فى الركن . خمسة وثلاثون عامًا . مضت على هذه اللقطة .

.. يا سلام كانا زعيمى شياطين الجن والإنس ، محراك المدرسة وقلق المدرسين والفراشين والباعة وأولياء الأمور .

.. سمير برسوم كسبت الملايين من تجارة البانجو والأقراص ، ثم كانت نهايتك على يدى .. أنا الذى أوقعت بك .. !

.. اعذرنى يا سمير فكم تغاضيت عن مناطحتك لى ، واستثارتك العيال كى يزقونى ، سخرية بمقعدى المتحرك ، وعربتى الملاكى التى تحملنى إلى المدرسة .. فاكر يوم قذفت السائق بحجر وطرت .. ؟

.. ولكن المرة التى وقعت فيها على الأرض وتطينت ملابسى ووجهى ، المرة التى قتلتنى غيظًا وحقدًا .

.. هذه المرة لا أنساها أبداً .. !

لا أنسى وجوه العيال ، وضحكاتهم الساخرة ، وملامحهم البشعة ، وهم يتحلقوننى ، ويباعدون المقعد عن متناول يدى .. !

.. كله بأوانه يا سمير .. فأنت الآن فى السجن ، لا تعرف من أين جاءتك الروية ، نسيتنى من زمان ، ولا يكاد يخطر ببالك أننى فاعلها .

.. ملفك محفوظ عندى . نعم أدى مهمته ولكن من يدرى ، فقد أحتاجه مستقبلاً .. !

.. وأنت يوسف البكرى . أول من كان ينطلق من الفصل مع دقة الجرس .

.. هى نظرتك المعتادة ، دائمًا ما كنت تصوبها ناحيتى وأنت " تشوت " الكرة ، تغزنى بها فى الصميم ، بأننى لن أستطيع أن أفعلها ما حييت .. أن " أشوت " كرة بقدمى أبداً .. !

.. قريبًا يأتى دورك يا يوسف .. ملفك جاهز " والشوته " ستكون فى الصميم .

.. آه فصل أولى ثالث .. أربعة وثلاثون عامًا مضت .. عزت الأبيض ومصطفى الرفاعى ومحمد محجوب وأحمد عبد العزيز وجابر أبو رجل مسلوخة .

.. أعرف أن رجلك لم تكن مسلوخة ولكن العيال أطلقوها عليك ، شرابك المتهرء المتجلد بالوساخة كان بلون وهيئة الرجل المسلوخة . !

.. كنت طيبًا وأميرًا يا جابر ، لم تخرج من فمك يومًا لتقذفنى بها جارحة كما يفعلون .. ملفك رقم سبعة ، لا أنساه .. !

وأنت لن تعرف أبداً من أين يأتيك المبلغ الشهرى ، والذى يعينك على قسوة ظروفك فى الأيام الأخيرة .

لن يخطر ببالك أبداً أن زميل الدراسة الثانوية عادل النادى هو فاعل الخير ، الذى يعينك سرًا على أن تظل نظيف اليد ، محافظًا على أصالة معدنك .

. قد تكون نسيتنى تمامًا ، أو حتى لا تعرفنى ، كما لا يعرفنى الكثيرون من زملاء الدراسة .

.. أما أنا فأعرف كل العيال ، واحداً واحداً بالاسم ، إعدادى وثانوى وجامعة .. حتى عيال المدارس المجاورة ، أعرف كل الأسماء ، وأفتح لهم ملفات عندى ، ملفات صغيرة قليلة البيانات ، ثم تكبر وتكبر بمرور الأيام .

.. وبرغم أن هذه البيانات تكلفنى مبالغ خرافية ، إكراميات للفراشين والبوابين والعيال الأرزقية ، ثم السعاة والصحفيين وموظفى الرقابة والسائقين ، وكل من يمتلك معلومة أو يستطيع أن يجلبها لحسابى ، برغم نزيف الإكراميات هذا فإنها هوايتى الجاريه فى الدم .. ثم إننى أمتلك المال الوفير والوقت البراح ، فأنا لا ألعب مع العيال بطريقتهم ، ولكن بطريقتى الخاصة ، طريقة الملفات الشخصية .. !

.. على فكرة .. كنت أستطيع أن أعطيك يا جابر عدة آلاف تقيم بها نشاطًا مدراً ، ولكنى أعرف أن كفك المخروم لن يعمر فى النشاط التجارى .

– نعم يا خالى .. أتريد شيئًا ؟

وجهك رائع وأنت تبتسمين ، وجه أمك وهى شابة يانون .

– إجلسى هنا بجوارى

– أضع بقية الملفات ، ثم آتى وأجلس هنا بجوارك ، ياه ... صوتك دائمًا يناوشنى .. يستثير شيئًا بداخلى .. يبعث صوت إيناس الحبيبة فى كيانى . أين أنت يا إيناس .. ؟ كانت صورتك هنا . . !

– خالى .. أين ذهبت . ؟

عيناك مشغولتان بصورة إيناس ، تحاولان اصطيادها .

مالك تبدين مترددة .. ؟

ألمح تساؤلا يشاغب وجهك .. !

– خالى .. لماذا تحتفظ بالملفات وقد سجلتها على الكومبيوتر .. ؟

لا أعرف كيف أشرح لك .. فأنا عشقت رائحة ملفاتى ، عشقت ملمس أوراقها ، وطعم كلماتها ، وأجواء صورها ومناظرها .

.. هذه الملفات هى متحفى الخاص جداً .. هى محراب وحدتى التى عايشتها وعايشتنى زمنا .

– ليتنى أستطيع يا نون .. !

– ترهق نفسك يا خالى .. !

وماذا عندى أرهق فيه نفسى إن لم تكن هذه الملفات .. ؟ !

الأموال تتضاعف تلقائياً ، والمشروعات تنمو وتتمدد أيضاً ..

ولا ولد عندى ، ولا صديق حقيقى يشعرنى بأنفاسه .

فكيف أتواجد أنا ، وكيف أنتظر الغد ، بدون ملفاتى .. ! ؟

الدهشة تتخفى ببراءة ملامحك وأنت تتساءلين .

– أتحتفظ بملف للنائب العام يا خالى .. !

– أليس موظفاً بالدولة .. ؟

إذا كنت أحتفظ بملف لأغلى وأعز من أحببت .. لإ يناس .. زميلتى بالكلية ، والتى ماتت قبل أن تعرف عنى شيئاً ، ألا أحتفظ بملف لسعادة النائب العام !!

لمعان عينيك راحة الأعصاب ، ونعومة خديك بـراءة الحنـان ، ورائحتـك الحلـوة يا نون تتسرب داخلى ناعمة رطبة .

– آه يا شقى يا خالى .. أليست هى إيناس .. ؟!

نظرتك للصورة تغمرها الفرحة والفضول .. وقد اصطدتها أخيراً .

– كلمنى عنها يا خالى .. كم أحببتها .. والنبى .. والنبى يا خالى حرام أن تحركى الهاجع يا نون . الجرح يا ابنتى مازال حيًا ، يكاد ينزف من مجرد الملامسة .

– إيناس كانت زميلتى .. راحت فى حادثة بشعة .. ومن يومها وأنا ..

وأنا طائر مهيض يا نون ، حط ولم يرتفع . طائر أرهقه طول الرحلة وطول الوحدة ،

وأرهقه يقظة التوجس وتراكم العجز .. ومع ذلك فخالك يا نون يتحاشى تعرية ضعفه أمام براءتك ، خالك يريد أن يبعدك عن دائرة التشكك فى صدق صلابته وقوة بأسه .. !

جميلة نظرتك المتواثبة بالحماس يا نون .

– عندى قمورة يا خالى إنما إيه .

– قمورة .. لخالك يا نون .. ! ؟

– طبعًا يا خالى .. عين العقل أن تفعلها .

أنفاسك تزاحم أنفاسى يا نون .. حلمك علىّ يا بنتى .

عيناك تحاصرنى وتخطف من مخزون أسرارى ، فى جرأة .. وأنا أبدو عاجزًا أمامهما ، متشوقًا لأن أتعرى أمامهما يومًا ، لأن أكاشفهما ما بداخلى ، فأرى رد الفعل التلقائى على ملامحك فيمن أكون أنا .. ؟

وفيم يكون حجمى فى تقديرك .. ؟

آه .. ليتنى أستطيع أن أطاوعك يا نون .. !

– خالى .. أنا هنا .. ركز معى يا خالى .

تثقلين علىّ يا نون ..! خالك يتداعى فى إرهاق متسلط .. !

الأفضل أن نبحث عن موضوع يلهينا .. موضوع هايف يدغدغ الأعصاب ويرطبها .. آه تذكرت .

– هبة أين وصلنا مع عزت الأبيض ؟

ضحكتك المشاغبة ترتمى على تساؤلى المفتعل .

– تزوغ يا خالى .. لا بأس هذه المرة فقط .

يعجبنى زكاؤك ، عبقرية أنت يا نون .

وأجمل ما فيك طواعيتك المذهلة لتيار رغبتى .

تتكلمين بثقة التلميذ النجيب .. وبعد أن تشرب من الخبرة ما ينشط دماءه ويغذى قدراته ، على التعارك ، وعلى المواجهة ، وعلى الهجوم الخاطف المدروس .

براڤو يا نون .. هكذا تؤكدين ظنى فى قدراتك .

– عزت الأبيض جاهز للأكل يا خالى .

– وأين مستنداتك .. ؟

– أمامك يا خالى ..

الأوراق جيدة يا نون .. نفذت التعليمات كما ينبغى .. المستندات .. التوقيعات والأختام كله تمام .

– ومبلغ القرض يا نون .. ؟ – دخل حسابنا بالتمام والكمال .

وقعت يا عزت بك ، أخيراً حفرت لنفسك الحفرة اللائقة بمقامك ، وسأرتاح وأنا أراك تهوى إلى أعماقها .. !

يا سلام .. فنجان القهوة جاء فى موعده .

– ضع القهوة هنا أمام عادل بك .

أصبحت النغمة المنسجمة مع حياتى يا نون . ليتك تبقين تحت جناحى بقية عمرى ..

أرى شيئًا يغالبك ويلح ، يندفع ويتراجع .. تكلمى يا نون .

– خالى أتعطينى الأمان .. ؟

– كل الأمان .

– الحاج قطب يا خالى ..

آه رجعنا للكلام فى موضوع القطب . !

المشكلة أن حبك لهبة يتزايد أكثر مما ينبغى يا نون .

نعم هى ابنة خالتك والعلاقة بينكما حميمة ومتواصلة ، ولكن هناك أموراً أخرى تفرض نفسها .

- خالى .. ألا ترد على كلامى .. ؟

- ماذا تريدين يا نون .. ؟

أنا أعرف ما تريدين . فكالعادة تتوسطين لكى أؤجل إجراءاتى مع القطب . أن أتغاضى مؤقتًا عن مواجهته .. وحتى تتماسك الأمور مع هبة وتستطيع أن تتعامل مع الموقف .. !

كل هذا أعرفه يا نون .. ولكن خالك أيضًا مجبور .

المسألة أن خالك تحول رغم إرادته إلى كائن معصوب العينين ، كائن يحمل ميزان عدل خاص ، قانونه وأحكامه ذات معايير خاصة ، شفرتها هنا .

.. بداخلى أنا ، صياغتها ركام ألم مزمن ، وطول انتظار ممل .. !

- خالى أرجوك كلمنى .

كلامى لن يعجبك هذه المرة يا نون . لن يريحك .. !

فأنا لم أعد أستطيع أن أتجاوز القطب ككل مرة . لقد أفلتت الأمور من يدى ولم يبق هناك سوى معادلة واحدة تحكم علاقتى بالقطب ، علاقة لا تقبل الرفض ولا التجزئة علاقة تعطى نتيجة واحدة .. إما عادل النادى وإما القطب فى هذا الزمان والمكان .

- ابنة خالتك أعطت نفسها لرجل فظيع .. !

- هى تريد أن تتخلص منه يا خالى .

هبة تتخلص من القطب .. !

أهذا كلام ينطلى على خالك يا نون .. ؟

هبه أخذت القطب بمزاجها ، أخذته وهى فى تمام وعيها وعبقريتها . فالرجل يشغل منصباً سياسياً واقتصادياً خطيراً ، يؤهله لأن يلاغى " كبار القوم تحت القبة ، فيذلل العقبات ويحقق المستحيل .. !

القطب أصبح من حملة المفتاح الكبير ، مفتاح خزينة البلد ، وهى ابنة خالتك ، طول عمرها تتمنى أن تصل لبؤرة الأضواء والشهرة .

وقد وصلت عن طريق زواجها من القطب .. !

وصلت وغمرتها أضواء الإعلام والصالونات والمؤتمرات .

- خالى .. ألا نحاول أن ..

القطب لم يعد صالحا للعلاج . أصبح حالة ميئوس منها .

- خالى .. أتريد أن تنام .. ؟

- أنام .. !! أنا أريد أن أنام .. ؟

خالك لم يعد ينام يا هبة ، مجرد ساعتين أو ثلاث كل يوم ، العقاقير ، والحالة النفسية ، وعكارة المزاج ، كلهم زرعوا بذور القلق فى الدماغ .. لذا أحذرك أن تطيلى النظر فى وجه خالك .. إياك .. فقد تكتشفين ما لا يخطر على بال .. !

(٩٢)

** كانت نسمة الهواء تأتى مجهدة من طول المساحة المائية ، بعرض المالح الصاخب وترتمى على أحضان الشاطىء ، تناوش سعف النخل المنتصب على التلال ، وتتمايل به فائحة برائحة العطانة المشبعة بزخم الكائنات البحرية .

أغمض القطب عينيه وراح ... تمنى أن تطاوعه أعصابه فتتشرب جرعتها من الهدوء وبكارة الجو . أن تتراخى وتغتسل من كدر الصخب المحاصر لجو العاصمة .. !

سأله عباس إن كان يريد فنجان قهوة آخر .. فقال القطب إنه أهمل كل مواعيده ، تخلص من منصور فلم يسافر معه ، خلع نزناز الوقت والأرقام عن دماغه وأسلمه للاسترخاء هكذا على الشاطىء ، لكى لا يستمع من أحد ، ولا يستمع أحد منه ، حتى المحمول تركه هناك .. بعيداً عن متناول كل الحواس .. !

– أريد أن أعطل كل أجهزتى يا عباس .. أوقفها ليوم واحد .. مجرد يوم واحد .

كان عباس يراقب الطريق العام وأذنه مع القطب .

– حسبتك سافرت بالأمس ، ولكننى فوجئت بصوتك يأتينى فى الصباح .

قال القطب إنه يريد أن يعرف رأى عباس قبل أن يرجع القاهرة . فهل سيطاوع ويمسك إدارة المستشفى أم له كلام آخر .. ؟

وراح القطب يناور بالعائد المادى المنتظر .. فالمشروع مربح للجميع .

كان عباس يفكر فى عرض القطب . ليس من جهة العائد . المادى ولكن من جهة أخرى ، خايلته فأراحت صدره .

لو أنه أمسك إدارة المستشفى لأصبح كل شيء تحت يده . كل شيء .. قال القطب معاتبا .

– تدفع مصاريف العلاج من جيبك ، معقول يا عباس ؟

هؤلاء الناس عندهم ميزانية لأعمال المقاومة .

تغيرت ملامح عباس ، لم يعجبه كلام القطب ، وراح يتساءل .

– أتقول هؤلاء الناس .. ؟

ألا تعرف من هم هؤلاء الناس .. ؟

واعتدل القطب منتبها للكلام ..

فلماذا ينفعل عباس هكذا .. ؟

– هؤلاء الناس رجال المقاومة ، أعرف ، وأعرف أيضًا أنهم يجمعون المعونات من كل مكان .

ازداد انفعال عباس وتاه بنظراته بعيداً .

– أنت لا تعرف شيئًا .

تضاحك القطب وبدا مشفقًا على عباس .

– هم لا يحتاجون مساعدتك ، صدقنى يا عبس .

اقتربت عربة الإسعاف فهرول عباس إلى هناك .

قطع مسافة الأرض الفضاء ووصل إلى باب المستشفى .

وانشغل دماغ القطب ..

فكيف يستفيد عباس من علاقته برجال المقاومة الفلسطينية .. ؟

قام وراح يتنقل إلى هناك .

هل يعمل عباس مندوبًا لإحدى المنظمات الفدائية .. ؟

كأن يتولى مثلاً الإشراف على علاج المصابين وتهريب الفدائيين عبر المستوطنات والحدود الإسرائيلية . وقد يكون مشاركًا فى عمليات تهريب السلاح داخل فلسطين .

إذا كان الأمر كذلك ، فالمكسب يكون رهيبًا .

عرفت تستفيد من معاشرتى يا عباس ، من خبرتى التى شربت منها . وكان عباس واقفًا هناك عند مدخل حجرة الجراحة ، ومعه رجل ملثم بالشال العربى .

فى البداية ظنها القطب ميته ، تلك المرأة الممددة على الطاولة والدماء المتجمدة تلطخ ملابسها ورقبتها ورأسها .. !

لم يتأكد أن صدرها يتنفس ، أو أن عينيها ترمشان . وكانت إحدى قدميها متدلية من حافة الطاولة ، معلقة بالساق بسلخة جلد دامية ويدها قابضة على زجاج إرضاع الطفل .. !

بكى الطفل الراقد بجوار المرأة فتشنجت ذراعها وهى تجاهد لتقرب الزجاجة من فمه .. فسقطت الزجاجة وتطايرت على البلاط .. !

كان الرضيع يبكى وتتدافع يداه ورجلاه والدماء تلوث رقبته ووجهه وما حول عينيه المفزوعتين .

تلفت القطب متسائلا .

– ماذا ينتظرون . أين الأطباء .. ؟

تعلقت عينا المرأة بوجه القطب وظلتا شاخصتين فيه ، أحسن بهما تتكلمان إليه فى همس مكلوم ، تستجديان الرحمة بالطفل ، تتوسلان إليه هو بالذات ، هو بالذات دون أى مخلوق غيره ، بدتا تعرفانه جيدًا مكانته وإمكانياته ، توحيان بأنه أقرب الناس لحل أزمتها .

غلبها التلهف للنظر للطفل ، وكان عنقها متصلبا فاقد القدرة على الحركة .. !

جاء طبيب وقام بفحص سريع ، غطى الوجه متأسفا لوفاة الرجل الممدد على الطاولة الأخرى .

تحسس صدر المرأة وساقيها وبطنها فراود ملامحه أمل خافت . قام مساعد . الطبيب والممرضة بنقل المرأة إلى " التروللى " يساعدهما عباس والرجل الملثم . وكانت عينا المرأة مازالتا قابضتين على وجه القطب ، تتشوقان اقتناص بارقة أمل أن تكون شفرتها الأخيرة قد وصلته ، رسالتها الأخيرة . قد وصلته .. رحماكم بابنى .. !

وأومأ رأس القطب ، بدون وعى ولا تردد أومأ مستجيبا .. !

دخلوا " بالتروللى " وأغلقوا حجرة العمليات .

وظل القطب ينظر لبكاء الطفل المتزايد .

مد إصبعه يداعبه ، فأمسك الطفل عقلتها بيده وتعلق بها . وأحس القطب برعشة اليد ودفئها .

هزه فانتفض الطفل وتشبث بكل قوته بالإصبع الغليظة ، تقبض عليها ويرتعد بها .. !

لاحظ القطب أن عينى الطفل لا تنظران إليه ، وبدتا شاخصتين لأعلى ولا ترمشان .. تشكك فى شىء .. فمد يده الأخرى يمررها فوق وجه الطفل ..

جاء الطبيب نشطا يهرول ، ويرفقته ممرضة تلاحقه .

وتساءل فى اهتمام فطلب القطب أن يفحص عينى الطفل ، وكانت يده عالقة مازالت بإصبع القطب ، الممتثل فى ترقب .

قال الطبيب بملامح محايدة إن الطفل فاقد البصر .. !

كانت اليد متشنجة تعتصر الإصبع وتتطوح بها ، والفم الصغير يتخاطف شهقات البكاء المتلاحقة .

طلب القطب من الممرضة أن تأتى فوراً بطعام للطفل .. وراح يتفاهم مع الطبيب عن الحالة ، وإمكانية العلاج الممكنة .

خرج عباس من حجرة العمليات وبحث فى ملابس الرجل الممدد على الطاولة ، قال للقطب إن المرأة ميئوس من حالتها وقد يجد مع زوجها بعض البيانات عنهما .. !

حاول القطب أن يخلص إصبعه من يد الطفل فكان الأمر صعباً .. !

أخذ الرجل الملثم عباس جانبًا يكلمه .. انتفخت عروق رقبته واحمرت أذناه وكان يشير إلى الطفل وإلى الرجل الممدد .

اعتذر الطبيب موضحاً للقطب أن جراح العيون يفيده أكثر عن حالة الطفل . وجاءت الممرضة بكوب لبن وحاولت أن تسكب منه . فى فم الطفل ، فلم يصل جوفه قطرة ، وكان يبكى ويفرك بجسده وأطرافه ، واللبن ينزلق على ذقنه وخديه .

صاح القطب فيها فعادت تهرول بكوب اللبن ..

– ألا تعرفين كيف تطعمين طفلا .. ؟

بادر الرجل الملثم يستوقف طبيبا خرج من حجرة العلميات ، فهز له رأسه نفيا وتابع سيره منكس الوجه .

أمسك الرجل الملثم رأسه بكفيه وضغط عليه فى عنف ، فخرج منه الصوت مجروشًا ممروراً .

– نريد السلاح يا هووووه ... !

ثم اقترب من القطب وزعق فى وجهه .

– ألا يسمعنا أحد .. ! ؟ ألا يستجيب أحد .. ! ؟

أخذه عباس من ذراعه وخرج به .

(٩٣)

** نظر إليها عادل النادى فأمسكت .. !

أحست بأنه يعرف الكثير عن محنتها وأنه يكتفى بما استمع منها .

اقترب بكرسيه وربت على كتفها .

– كنت دائمًا بجوارك يا هبة .. وأنت فى دنيا غير الدنيا .. !

ثم راح يشرح لها أن مشكلة الولد ليست هينه ، وأنه لم يتوان فى الوقوف بجوارها تحرك وأوصى وقام بالاتصالات المؤثرة .

يستطيع أن يفعل الكثير .. ولكن .. !

فهمت الدكتوره هبة ما يقصده ..

فماذا بيده أن يفعل ، كيف يسترجع لها الولد وكل الأوراق الرسمية تقول أنه ليس ابنها .. وأن عملية الاختطاف المزعومة ما هى إلا حيلة مشروعة لأهله ، ومهما صاحبها من ردود أفعال فهى متوقعة فى مثل هذه الظروف .. ؟ !

قال عادل النادى إن المال يفعل المعجزات .

ومن رأيه فالحل الممكن هو إغراء الأب بالمزيد من المال ، مال كثير ، فالأم تحتضر كما تقولين ، ويمكنه هو أن يستفيد بالمال أكثر من استفادته بالولد .. !

ومع كل فلن نخسر شيئًا إذا ما حاولنا .

وارت الدكتوره هبة وجهها عن خالها ، أحست بالدموع تطفر من عينيها رغما عنها .

– لم يهزنى شىء فى حياتى كما هزنى فراق الولد .. !

أخذها خالها فى أحضانه يطيب خاطرها .

قالت إنها ارتضت بقضاء الله وامتثلت ، بعد حرمانها من ينبوع أنوثتها ، من أن تلد فى يوم من الأيام وتكون أما بالشكل الطبيعى .

لذلك فقد جاهدت لتئد غريزة الأمومة المتشوقة بداخلها ، وابتعدت قدر طاقتها عن عنبر الأطفال من نزلاء المستشفى ، لعلها تنسى .. !

ولكن القدر عاد يناطحها .. !

ألقى فى طريقها مأساة أم هاشم وولدها ، لتكون سببا فى إنقاذ الأم والولد ، ولكى ينضم الولد إلى صدرها هى ، فتأخذها الدنيا فى أحضانها وتطير بها .. ولكن ..

جاءت نون متضاحكة .

– أما أنا فسأكون الجانب الكوميدى من المأساة .

وشدت الدكتوره هبة عن صدر خالها .

– نحن لنا نصيب أيضًا فى صدر خالنا .

مد عادل النادى ذراعيه على اتساعهما .

– صدر خالك يسع الجميع .

اتصلت الدكتوره هبة بالمستشفى وعرفت أن أحدًا من طرف الولد لم يأت بعد هناك .. !

طلبت نون أن تنظر الدكتوره هبة إلى الأوراق أمامها وتختار منها ما تريده ، فكلها أشياء قيمة وخالها يريد أن يتصرف فيها قبل أن يسلم القصر لأصحابه .

كانت الأمور تدور متوجسة فى رأسها ، والوجه يعجز أن يدارى منها الكثير قالت لها نون وهى تهزها ، إنها تحف نادرة ، اشتراها خالها بأثمان خرافية .. !

قال عادل النادى إن هناك موضوعًا أهم يريد أن يكلمهما فيه ، كما يريد أن يظل سرًا فيما بينهم مهما حدث .

وراح الرجل يبوح لهما بعلاقاته الوثيقة بأجهزة الرقابة العامة ، والنيابة ، والصحافة والمخابرات العامة ، والشرطة .. فقد تعامل مع كل هذه الأجهزة وتولى فى بعضها مناصب قيادية ، ومرجع ذلك قدراته الخاصة على الاتصال والتداخل والإقناع والكشف والإنفاق المذهل .. !

والآن فهو على رأس جهاز رقابى للمال العام ، وضع بنفسه فكرته ونظامه ولوائح إدارته ، وصدر به قانون منذ خمس سنوات .

تساءلت نون فى إهتمام شديد .

- ولكن يا خالى ..

تابع عادل النادى كلامه ، مشيرًا لها أن تعطيه الفرصة .

إن طاقم جهازه لا يقل عن خمسين عقلاً من أكفأ الرجال ، وأنه يدير هذا الجهاز من هنا ، من منزله .

وقد منحه المسئولون هذا الإستثناء نظرًا لظروفه الحركيه ، ولتفرده فى إدارة البيانات والأرقام والمعلومات و تحليلها وتأويلها واكتشاف خباياه .

انتبهت الدكتوره هبة وبدت ترى خالها لأول مرة .. !

- معقول يا خالى .. !

قال إنه كان وراء الكثير من قضايا الأموال العامة ، تلك التى طفت على سطح الفساد فى الفترة الأخيرة ..!

ثم أخذ يد الدكتوره هبة وربت عليها .

– سبق أن تكلمت مع القطب كثيراً .. ولكنه لا يلتفت لأحد . اندهشت متطلعة لخالها فى استنكار .

– الحاج قطب تحت الرقابة .. ! ؟

نظر إليها فى إشفاق وقلة حيلة .

– وموقفه حرج .. وإنقاذه عسير .. !

همت الدكتوره هبة بالقيام وهى تختطف حقيبتها .

– هو حر فى نفسه .. !

فى تردد أرسلت نون عينيها إلى خالها ، ففهم رسالتها .

قال مبرراً موقفه .. إنه لا يعمل بمفرده فى جهاز الرقابة . ثم إنه لايريد أن يبدو متواطئا فى العملية .. !

مشت معها نون إلى الباب تكلمها ، فقد يكون هناك للمشكلة حل .. !

نادى عادل النادى الدكتوره هبة فرجعت إليه .

سألها عن بعض ممتلكات القطب ومشروعاته فأجابته . صارحته بأنها لا تتدخل فى الشئون التجارية ولا أعماله الخاصة ، وكل ما يربطها به من هذه الناحية هو ما يتعلق بالمستشفى . فأرباحها مشاركة فيما بينهما .. وقد اتفقا على ذلك منذ أن تزوجا .

أوصاها النادى بالانتباه جيداً . فهو يخشى عليها من التورط بدون قصد ، فالقطب لا يتورع عن التضحية حتى بأبيه إذا استدعت مصلحته .

لم تبتلع الدكتوره هبة وصية خالها بطيب خاطر .. فأن يكون مواجها لها بهذا الجفاف فذلك شىء يقلقها .. !

(٩٤)

** كان الطفل ممدداً على السرير والممرضة تبدل ملابسه بدا أنه ما يزال تحت تأثير المخدر ، فأخذ رأسه يتدلى متراخيا كلما رفعت صدره بيديها .. !

وكان القطب وجراح العيون يتكلمان عند باب حجرة الكشف .

اقترب عباس وأشار للقطب فترك الجراح وذهب إليه .

قال إنه مضطر لأن يذهب ويعود بعد قليل .. فأكد عليه القطب أن لا يتأخر لأنه يريد أن يتكلم معه قبل أن يسافر .

جاءت القهوة فجلس الرجلان فى المكتب المقابل ، واستأنفا الكلام .

كان الجراح يوضح الحالة ..

ففقدان البصر جاء نتيجة لصدمة عنيفة برأس الطفل ، أثرت على خلايا العصب البصرى بالمخ .. وأنه لا بديل للعملية الجراحية .

تساءل القطب .. فقال الجراح إن الحالة لن تزداد سوءاً مما هى علية ، فالطفل فاقد للبصر بالفعل ، وأى بادرة تحققها العملية ستكون خطوة فى طريق العلاج .

جاء ممرض وهمس للقطب فنظر إليه متسائلاً .

- تريدنى أنا .. ؟

وذهب مع الممرض إلى حجرة العناية المركزة .

كانت عينا المرأة شاخصة إلى السقف ، والضوء ينسكب عليها ثقيلا يفوح برائحة الأدوية .

اقترب مترددًا .. ولأول مرة منذ فترة طويلة يشعر بتراخى شجاعته ، وأنه لا يريد أن ينظر لمريض يعانى الألم .. !

كانت توصيلات الأجهزة الطبية عالقة بها من كل مكان .

وبدأ وجهها أقرب للأموات ، وصوت نفسها محشورًا فى الرقبة .

ورأى لوحة معدنية عليها أوراق وقلم مستقرة على صدرها .

مديده وحاول أن يشعرها بوجوده ..

فلم تستجب وظلت جامدة .. !

جاء الطبيب وتكلم مع القطب ..

فالمرأة تموت .. وهى فاقدة القدرة على الكلام لتمزق أحبالها الصوتية ، وفاقدة القدرة على الحركة للكسور المضاعفة فى العامود الفقرى ..

تساءل القطب .. فقال الطبيب إن أحدًا لم يعرف ماذا تريد .. !

كانت تتململ وتوحى برغبتها فى أن توصل لنا شيئًا .. فأحضرنا لها ورقا وقلمًا وأعنّاها على أن تكتب .

وحاول أن ينبهها بوجود القطب ، يحرك رأسها فى حذر وهو يلاحظ جهاز نبضات القلب .. قال ويده على صدرها .

– الحالة سيئة جدًا .. !

وطلب من المرضة الإسراع بجهاز الصدمات الكهربائية .

وراح يضغط بكلتا يديه على صدرها ، مرات متلاحقة ، وبقوة متزايدة . وانطلق فجأة صوت الجهاز معلنا توقف نبضات القلب . !

انفرج فمها المتيبس ولم يخرج شيئًا .. ولم يدخل شيئًا .. !

وظل صوت الجهاز يتردد ، لا يستجيب لمحاولات الصدمات الكهربائية .. !

تراجع الطبيب .. تبلدت ملامحه بيأس اعتادت عليه .

وأشار للمرضة أن تبدأ عملها .

– انزعى التوصيلات ، هاتى الأوراق .

ففوجئ القطب بعينى المرأة ، زجاجيتين وشاخصتين إليه ، كان رأسها قد انحدر تحت ضغط اليدين على الصدر وصدمات الكهرباء وظل مصوبا إليه راوده الشك وهو ينظر فى عمق السواد أن يكون فاقد الحياة ، وأن تكون المرأة قد ماتت بالفعل .. !

فكيف تكون ميته وهذا الفوران ما يزال يتململ فى عينيها .. ؟

فى عمق سواد عينها .. يبدو فورانا مهزومًا ، فورانا مشروخا ونازفا ، فورانا مذبوح الصوت فى اللحظة الأخيرة .. ! ؟

الفوران يهم أن يقول شيئًا ، ما يزال يهم لينطق بالكلمة الأخيرة ، بالرغبة الأخيرة .. وجاء انسلاخ الروح أسرع وأقوى .. !

تراجع القطب وحاول أن يسحب عينيه عنها .

أخذ الأوراق عن صدرها ونظر فيها .

كان خطها كبيرًا ومتكسرًا والكلام مرتعش الحروف .

وصيتى الأخيرة .. مدير المستشفى .

قالت الممرضة للقطب إنها حاولت أن تحصل على أية بيانات عن المرأة من الرجل الملثم الذى كان يرافقهم ، ولكنه لم يفدها . قال إنه كان يجرى هناك ليحتمى من القصف الإسرائيلى ، ورأى المبنى ينفجر بمن فيه ، ورأى المرأة تطير من النافذة والولد فى أحضانها ، وكان زوجها يلاحقها ، مشوه الوجه والأطراف ، والضرب ينهال عليه .. !

وقالت الممرضة إن الرجل الملثم حملهم إلى العربة ونقلهم إلى هنا .

وهو لا يعرف اسم المرأة ولا اسم زوجها .. !

عـاد القطب إلى حـجرة الطفل وبيده الورقـة . وصـيـة المرأة . التى لم يعـرف مـاذا تطلب منه .. ؟

ماذا تطلب من مدير المستشفى .. ؟

أهى تعرفه شخصياً .. تعرف القطب وتعرف أنه مدير المستشفى .. ! ؟

لا يذكر أنه رأى هذا الوجه .. أبداً .. !

ولكن الإحساس الداخلى يوحى إليه أن هذه المرأة قد علقت طوقا فى رقبته ، تمكنت وعلقته قبل أن ترحل .. !

وخايله العينان هناك على السرير المركون ، عينا المرأة ، مازالتا تنظران ، تقبضـان على وجهه ، تتشوقان للحصول على بادرة أمل ، فى أن تكون شفرتها الأخيرة قد وصلته ، رسالتها الأخيرة المتوسلة .. رحماكم بابنى .. !

(٩٥)

** لم يكن عادل النادى يتوقع هذه الزيادة المفاجئة ، المتأخرة هكذا لآخر الليل .. لماذا جاءه الآن .. ؟

لماذا فعل ما فعل مع الحرس والخدم لكى يقابله الآن .. ؟

هل تسربت الأخبار إليه .. ؟

معقول عرف ساعة الصفر .. ؟

الخطة أن تفاجئه القوة فى السادسة صباحاً ، والآن هى الثانية بعد منتصف الليل ما الحكاية إذن .. ؟

يتصل بغرفة العمليات ويتشمم ، قد يكون هناك حدث طارىء ، فيعرفه قبل أن يستقبل عزت الأبيض .. هل يتصل الآن .. ؟

اندفع بالمقعد منحيا كل الهواجس .

المواجهة أقرب الطرق للحقيقة .

كان عزت الأبيض محاطاً بشبورة من الدخان ، يمتص فى تراخ ويطلق من الأنف والفم بشكل مكثف .

وعندما تقابلت العيون هب الأبيض مندفعاً .

– السماح يا باشا . . الظروف حكمت يا صديق الزمن الجميل .

وقبل أن يستجمع النادى توازنه ، ظل يتوسل فى استعطاف وملامح متلهفة ، تبدو متلهفة .. !

- أخوك الأبيض راح فى شربة مياه يا باشا .

وظل الأبيض يتكلم ، يسوق من تاريخه الأخلاقى والوظيفى ما يؤكد سمو أخلاقه وطهارة سيرته .

- آخرتها يا باشا .. الأبيض يجد نفسه موضعًا للشك .. ؟ ! وسأله عادل النادى عندما وجد فرصه للكلام .. فقال الأبيض وقد ركبت الدهشة وجهه وحفزته .

- يتهمونني بالتواطؤ يا باشا ، الإضرار بالمال العام ، تصور يا باشا ، عزت الأبيض يخون الأمانة .. !

دار النادى بكرسه ثم اندفع ليأخذ العين فى العين .

- من أخبرك بهذا الكلام .. ؟

تجاهل الأبيض سؤال النادى ، وبدأ وجهه منكسراً ، يناور الخبث فى بجاحة .

- خذنى تحت جناحك يا باشا .. لا تنسى واجب الزمالة يا صاحبى .

أصر النادى على أن يعرف ، فامتص بوادر الانفعال وسأل فى هدوء .

- من أخبرك يا أبيض .. ؟

تراخت ملامح الأبيض وتسطحت فى هدوء .

- أترفض الوقوف إلى جوارى .. ؟

تعامل النادى مع أزرار الكرسى .. فظهر ملف عزت الأبيض على الشاشة الصغيرة ، وراحت أوراقه تتقلب وتكشف الأرقام .

- أعرف أولا .. ثم أقف إلى جوارك .

كان الأبيض فى وضع يتيح له متابعة ما يظهر على الشاشة ، أعطاه النادى هذه الفرصة ، أن يختلس النظر إلى الأرقام .. فظل مشدوداً فى استغراق وكأنه يتابع فيلما رومانسيا فى سينما مكيفة .

– أتكشف أوراق الأبيض يا باشا .. ؟

قال النادى وهو يتشاغل بأوراق الملف وأرقامها .. ؟

– مازال سؤالى معلقا . من أخبرك يا أبيض .. ؟

ألقى الأبيض برأسه للوراء وتراخى فى المقعد ، مستعداً لأن يشهر أدوات اللعبة التى تفرض نفسها .

– أنت الذى أخبرتنى يا باشا .

تماسك النادى .. وظل معلقًا أرقام الصفحة الأخيرة من الملف على الشاشة .

اعتدل للأبيض وطلب منه أن يشرب قهوته ..

وقال إن المسائل لا تحتمل المراهنة على الخاسر ، وأن التعاون بينهما يفيد الطرفين .

أبدى الأبيض إعجابا بالكلام .

– عدّاك العيب يا باشا ، نتعاون .

وراح يتكلم وهو يتلذذ بشرب القهوة .

أكد أنه يعرف مدى خطورة الموقع الاستراتيجى للنادى فى أجهزة أمن الدولة ، ومدى كفاءة العيون الراصدة والأمكانيات المطلقة تحت يده .

ويعرف أنه ساعد على كشف الكثير من بؤر الفساد المزعومة ، وعلى إدانتها وتدميرها .. وهذا شيء عظيم ومشروع ، ويدل على وطنية مخلصة ، وموجعة للقلب فى نفس الوقت .. !

وتضاحك الأبيض وهو يناوش وجه النادى بلدغات السخرية .

– أتلعبها معى يا باشا .. معى أنا .. ؟

ووضع ساقا على ساق وظل يؤرجحها فى استخفاف ، بينما يدلى بأقواله . إنما أراد أن يطمئنه بأن الأرقام التى تحت يده هى أرقام سليمة ، وأن إجمالى مبالغ القروض التى تتكىء على الأرائك الهوائية فى بنكه هى بالفعل خمسة عشر مليارا .. ولكن احذر يا باشا .. !

وشرع الأبيض سبابته فى وجه النادى .

تطلع إليه النادى برهة بوجه منشرح ، بدا منشرحا ، ثم طلب منه أن يواصل الكلام ، فكلامه جيد ويعجبه كثيراً .

وفعلاً واصل الأبيض .

وكان يؤيد كلامه بأرقام القروض ، وتواريخها ، وضماناتها ، وكان يحفظ بكل دقة .!

ثم تشامخ بقامته وهو يدلى بتصحيح بعض الأرقام ، تعاونا منه فى ضبط بيانات الملف .

فقطعة الأرض الضامنة للقرض الأخير لا تساوى ، ومع التفاؤل الشديد ، لا تساوى أكثر من خمسة ملايين ، ومع ذلك فهى مقومة دفتريا بثمانين مليونا ، الخبراء قدروها بثمانين مليونًا .

ثم عاد يشرع سبابته فى وجه النادى .

– قلت لك احذر يا باشا .. الأوامر تأتى من فوق .. !

راح وجاء عادل النادى بكرسيه وهو يفكر ، بدا أنه يفكر .

– مازلت لم تجب على سؤالى .. وتفرض علىّ زيارتك .

قال الأبيض وعينه على رءوس الحيوانات المعلقة على الحائط .

– ظننتك أنك أكثر ذكاء يا باشا ، وأنت تساومنى على قرض لك من بنكى .. لم أتوقع أن تأخذنى غدراً هكذا معاليك .. !

وبدأ يتذكر شيئًا هامًا ..

فهو يبدى إعجابه الشديد بالسيدة نون ،امرأته الحديدية ، على إخلاصها المتفانى ، وعلى كفاءتها المميزة ..

وغمز له بعينه ليوحى بشىء ، كأنه يخدش الحياء .

– لا تعتمد على النساء فى كل غزواتك يا باشا ، فغالبا ما يقعن عند أول منعطف .

تساءل النادى وهو يشجع تصاعد الإيحاءات

– هل أعجبتك نون .. ؟

لاحقه الأبيض متحسراً ..

– ذوق رفيع .. آه لولا خابور الأمانة المرشوق فى النافوخ .. !

ثم مال بجزعه ليصل قريباً من أذن النادى .

– بينى وبينك تركتها تسجل على هواها ، كل ما أرادت ، قال أهل الحكمة قليل من التفريغ لا يضر .. !

ثم إن البنية تبدو مجتهدة ، وأنا لا أرد من يقصد رحابى .

وتمادى الأبيض فى استثارة النادى .

– وبينى وبينك ، من ناحيتها هى ، فقد وعدت أن تزورنى قريباً ، يبدو أننى أصبت شيئًا من طموحاتها .. !فكر النادى أن يطبق على رقبته فلا يفلتها ..

ابتسم له فى إعجاب ..

– أتشرب قهوة أخرى ، أما تتركنى لأنام .. ؟

تلفت الأبيض وهو يتجاهل اقتراح النادى .. وراحت عيناه تفتشان .

– أين هى .. إياك تتركها لتسهر هناك .

داعب النادى أزرار كرسيه فظهرت نون على الشاشة الصغيرة وهى تكلم الأبيض وتضحك ، أثناء اللقاء الأخير .

– أنا لا أستغنى عنها لحظة .. ولكن إذا شئت ... لاحقه الأبيض وهو يهم بالقيام .

– بالهناء والشفاء لك يا باشا .. أنت الأولى بها .

ثم أخذ يده يربت عليها .

– نتعاون يا باشا .. كل الخلق تتعاون على الزمن الأغبر .

مالنا ووجع الدماغ .

أمسك النادى يده بكلتا يديه وضغط عليها .

– أنت ستدخل السجن يا أبيض .. صدقنى هذه المرة .

سحب الأبيض يده فى هدوء .. وهو يسبل عينيه .

– هل سمعت عن رجل " مسنود " دخل السجن يا باشا .. ! ؟

هز النادى رأسه مؤكداً .. فتابع الأبيض .

– آه لو عرفت من هو هذا الساند .. !

تراجع عادل النادى بكرسيه ، بينما يرسل بعض الإشارات عن طريق لوحة الأزرار .

– صدقنى يا أبيض ، أعدك بدخول السجن ولو كان " ساندك " هولاكو بنفسه .

توقف الأبيض عند الباب .. وقبل أن يخرج أطلقها مهددا .

– سنرى .. يا باشا .. !

(٩٦)

** ظل صامتا لحظات ..

ينظر إلى الأرض ولا يجد ما يقول .. !

وكانت الدكتوره هبة تراود نفسها ، لعلها تقتنع بالقرار النهائى .

بيدها أن تقلب الدنيا فوق الرءوس وتأخذ الولد . تسترده لنفسها وليكن بعد ذلك ما يكون .. !

وبيدها أيضًا أن تترك القضية ، تتخلى عنها نهائيًا وتنسى الولد وأهله . لابد أن تتماسك .. لابد أن تنسى الولد .

هل تستطيع .. ! ؟

ما المشكلة فى أن تنساه ، تخلعه عن رأسها وتلتفت لأعمالها وحياتها الطبيعية وكأنه لم يكن ، وكأنها لم تره أبدا ولم يدخل حياتها .. !

الغريب أن تتعلق به لهذه الدرجة .. !

فرحمها لم يستنبت بذرته ، وجوفها لم يردد نبض قلبه .

لماذا إذن كل هذا التعلق والمعاناة .. ؟

انتبهت لصوت جاد الشحات مغلفا ببحة أسى .

– قلب الأم يا دكتوره .. وأنت تعرفين

ثم أمسك .. مستدركا بعد فوات الأوان .

واختلس نظرة خاطفة لوجه الدكتوره هبة ، فهو لم يقصد أن يلامس منها بؤرة الحساسية فيدميها .

ولكنها فكرت رغما عنها ، أعطاها الفرصة لتفكر .

فماذا لو كان الولد ابن بطنها هى .. ؟

وكانت أم هاشم هى التى أخذته منها .. ؟

الكلام لا يصلح هكذا .. فبدون تدخلها المباشر لكان تواجد الولد مشكوكا فيه من الأصل .. بالتأكيد مشكوكا فيه .

ثم إنها عوضت أم هاشم وأشبعتها ، ومازالت تسترضيها بكل الوسائل . حاول الشحات أن يتودد للدكتوره ، أن يبدى أسفه فلعلها تواصل الاعتناء بزوجته ، الراقدة فى المستشفى الآن .. !

- اعذرينى يا دكتوره .. عرفت بعد طول انتظار وتشوق أن لى ولدا ، فلم أتمالك نفسى ..!

قالت وهى تحاصر عينيه بنظرات الاتهام .

- أنا لم أجبر أحداً ..

أم هاشم اختارت ما فيه صالحها .. توسلت وأكلت نفسها لكى أساعدها على محنتها .

وزعقت فيه بغيظ مكبوت

- ثم أين كنت أنت طوال هذه المدة ؟

لم يسعفه الرد ، وأحس الشحات أنه يتخاذل فى الركن ، وأن الدكتوره معبأة على آخرها ، وقد تنفجر فى أية لحظة فتطيح بهم جميعًا .

المسألة معقدة ، وهى معذورة أيضًا ، كان الولد فى حضنها ثم راح منها .. !

شعاع الأمل ينطفىء أمام عينيها ويغيب ، بعد أن خايلها وحلق بها زمنًا ماذا بيده أن يفعل ليطيب خاطرها .. ؟

هو يحتاجها .. تحسنت صحة أم هاشم على يديها منذ جاء بها إلى هنا . من المفروض أن يسترضى الدكتوره . الآن وبكل الوسائل .

قال إنه عندما وعدها بإعادة الولد كان صادقًا .

فلم يكن يتوقع أن تصمد أم هاشم لليوم التالى ، أن تظل من أهل الدنيا ، ففعل ما فعل لعله يخفف عنها قبل أن ترحل ، يطمئن روحها المنقبضة فى صدرها كمدا على الولد .. !

وقاوم دموع عينيه ، عز عليه أن يضعف أمام الدكتوره هبة .

قال وهو يدارى وجهه عنها .

– عندك أفضل مكان للولد إذا ما رحلت أم هاشم .

ثم راح يبدى استعداده أن يضع نفسه رهن إشارتها ، أن يكون عبدها المطيع طوال حياته ، إن هى قبلت أن تسامح ، أن تغفر .. !

ولم يستطع هذه المرة مقاومة الدموع ، فقد سبقته وطفرت من عينيه ، بينما هو يعترف بأصالة الدكتوره هبة وإنسانيتها التى لم يكن يتوقعها تغمرهم هكذا .

– أم هاشم تحسنت صحتها على يديك .. منذ جاءت هنا ، وبرغم ما حدث منّا .

أخذت الدكتوره هبة سماعة التليفون لترد على المكالمة .

تمددت الدهشة على وجهها وهى تستمع .. لملمت أشياءها المتناثرة وألقتها متعجلة فى درجها .. ونزلت .

كان فى الحجرة عدد من العاملين يتكلمون .. تبادلوا نظرات مستطلعة وهى تدخل .

قال أحدهم إن النيابة فى الداخل وإنهم يريدونها .

دخلت للحجرة الملحقة فوجدته جالسا فى المواجهة . قال مادا يده بينما أمين المخزن ينظر فى قلق ، وبجواره ممرضة تحبس الكلام فى فمها .

جلست أمامه وهو يقدم نفسه .

– خير يا سيادة الوكيل .

كان فى الحجرة أمينا شرطة ، ومصور وصحفى ، وكان رجل منهمك بالتسجيل فى أوراقه على المكتب .

زاد انشغالها .. كل هؤلاء .. تبدو عملية مرسومة .. !

سألها وكيل النيابة إن كانت هى وحدها المدير المسئول عن المستشفى أم أن هناك من يشاركها الإدارة .. ؟

انطلق الكلام من فم الممرضة مفزوعًا ، مستنجداً بنظرات الدكتوره هبة ، نافيا الدراية عن أية معلومات عن هذه الأدوية وغيرها ، فوظيفتها صرف الأدوية من المخزن وتوزيعها على حجرات المرضى .

أمرها وكيل النيابة أن تسكت ، فأمسكت وهى تتململ .

لم تسترح الدكتوره هبة لنظرات وكيل النيابة ، ولا لطريقته فى الكلام معها ، يشيع جوا من الرهبة والقلق ، ويبدى التلميح بإدانة مؤكدة للكل .

فكرت أن توقفه عند حده ، قبل أن يتمادى ويجرهم إلى مصيدة الأخطاء .

قالت .. إن كان الموضوع يستدعى فالقطب على وشك الحضور ، ويمكن تأجيل .

تجاوب وكيل النيابة مع ما ترمى إليه الدكتوره هبة من تلميح ، وراح يؤكد معلوماته عنها ، وعن القطب زوجها عضو مجلس الشعب المعروف وشريكها فى المستشفى ، وعن خالها عادل النادى الرجل صاحب الشأن .

وقال وكيل النيابة قاطعا عليها خط الرجعة .

– القانون لا ينتظر أحداً يا دكتوره :

في نفــاذ صبـر تسـاء لت الدكتورهة مـرة أخـرى ، فمـا هو الموضـوع ، ماذا حـدث بالضبط . ؟

قال وكيل النيابة فى هدوء شديد ..

– الموضوع أنكم تقتلون الناس .. وما حدث بالضبط أن مخازن المستشفى مملوءة بالأدوية الفاسدة ، نفايات التأمين الصحى . !

صاح أمين المخازن أن تحت يده المستندات ، وكلها تثبت براءته ، كلها تثبت استلامه هذه الأدوية من يومين .

نظر إليه وكيل النيابة وقال فى حسم .

– لا تتكلم .. فاهم .. ؟

أخذت الدكتوره هبة إحدى علب الدواء ونظرت إليها .

– معقول هذه الأدوية .. ! ؟

كانت البيانات مشوهة بطريقة عشوائية ، تاريخ الإنتاج وتاريخ الصلاحية وخاتم التأمين الصحى .

أبدت الدكتوره هبة تشككا فيما ترى ، فلابد أن يكون هناك خطأ ما .. أو ... !

لاحقها وكيل النيابة بعدم جدوى التشكك فيما هو واقع بالفعل ، فكل شىء مسجل هنا بالصوت والصورة .

وكان يربت على مستندات أمامه .

ثم طلب منها أن يبدأ فى تسجيل أقوالها على حده ، ثم يكون دور القطب عندما يصل .

فكرت وهى تبحث عن مبرر مؤقت .. فأبدت قلقًا وتخوفًا .

– أخاف أن أتأخر على المرضى .

ابتسم وكيل النيابة فى وجهها وهو يأخذ القلم ويتأهب .

- ونحن لن نخرج عن قضية المرضى .. !

أفلت الزمام من صدر الدكتوره هبة فصاحت فى انفعال .

- وأن لن أتكلم الآن .. خذنى للسجن لو أردت .

وتركته وانطلقت تغادر الحجرة فى استبياء .. !

(٩٧)

** يبدو الجو مضببا وممتداً إلى هناك ، إلى البعيد المترامى ، وهو يمشى فى تثاقل يجر قدميه ويمد ذراعيه ويمشى .. يتمنى أن يجلس هنا تحت الشجرة الحانية ، أو تحت التكعيبة الوارفة ، لا يتوقف ، لا يستطيع أن يتوقف ، يخاف أن يباغته أحد فى شبورة الضباب ، يتسمع الهمس ويحس بمراقبة العيون ، ولكنه لا يرى شيئًا ، من خلف الضباب المتكاثف .. !

يجبر أن يجرى . أقدامه ترتفع وتنزل فى نفس المكان ، لا يكاد يتحرك ، لا يكاد يتقدم .

يرى انشراح مستلقية على سجادة خضراء ، تتطاير بها وتحوم من حوله .. انشراح زوجته ، بللورة زوجاته وأم ولده الحقيقى ، وصية الشيخ دردير له .. الوجه قمر والصوت خيوط حرير .

تبتسم ودموعها تتساقط من عينيها .

– ذبحت الأسيوطى يا قطب ، وأنا دعوت عليك بعدد شعر رأسى .

السجادة تتطاير من حوله . تغيب فى موجات الضباب ثم تظهر وتفاجئه ، بأطرافها الضاوية المسنونة ، كالشفرة ، وهو يمسك رقبته بكلتا يديه ، يتفادى مراوغة السجادة . !

ويرى الأسيوطى يتعلق بكلتا يديه ويحاول الصعود ، وهى تساعده بكل قوتها لكى يتحرك ، لكى يستقر بجوارها على السجادة .

وهناك الطفل يتدحرج على السجادة ، يضحك وتتدافع يداه ورجلاه فى براءة .. !

يقترب منه ويزيح قطع الضباب عن وجهه . يمد إصبعه يداعبه ، يمسك الطفل عقلته بيده ويتعلق بها ، يحس القطب برعشة اليد ودفئها .. عينا الطفل لا تنظران إليه ، تبدوان شاخصتين لأعلى ولا ترمشان .

الأسيوطى ينتصب على السجادة وينظر فى وعيد .

تمد انشراح يديها بالولد ناحية القطب . يجرى وراء السجادة ليأخذ الولد منها ، تغوص رجلاه فى رخاوة الضباب ، يقاوم ابتلاع اللزوجة الثقيلة فتخذ له عافيته ، ويظل ينسحب إلى أسفل .. !

ينادى من جوفه وينادى ، وتمد انشراح يديها بالولد وعيناها ملهوفتان عليه ، تقبضان بكل الحرص .

– هاته يا انشراح .. الولد يا انشراح .

انتفض القطب من فراشه ..

وكان العرق يبلل رقبته والقلب يرفرف فى صدره . وعينا الدكتوره هبة جاثيتين على وجهه .. راح يتململ ويلتقط الأنفاس متلاحقة .

أعوذ بالله .. اللهم اجعله خيراً .

قالت الدكتوره هبة فى استخفاف .

– كنت تنادى على انشراح .

وكانت انشراح بالفعل ما تزال عالقة برأسه ، تنادى وتلوح بالولد . أعطى ظهرهُ للدكتوره هبة ، بينما يجفف عرقه ويردد .

– يا ساتر .. أستغفر الله العظيم :

ارتمت الدكتوره هبة على المقعد وبدت مرهقة ، وأتعبها استخلاص الصوت من صدرها .

لا يهمها أن تعرف الآن من تكون انشراح التى يناديها ويتلهف عليها هكذا ، فالمشكلة الأهم تثقل رأسها وتظن فيه .. !

صاحت تحذره من خطورة الموقف ومن أنها لم تعد تحتمل استهتاره وتلاعبه بأعصابها .

وكان رأسه مشغولا بملامح الولد الذى رآه فى الحلم .

هو لم ير ابنه الذى مات فى بطن انشراح ، ابنه منها ، البذرة الوحيدة من صلبه التى أفلحت وأخصبت ، البذرة الوحيدة التى قاومت وتشبثت برحم المرأة لتثبت فعالية رجولته وحقيقة قدرته على العطاء ، على التبرعم فى الغصن المزهر من شجرة العائلة .

قالت الدكتوره هبة إن حصار وكيل النيابة لها كان سمجا ومتعنتا ، وأن القضية بدت مبيته ومحبوكة الإدانة .. !

ركز القطب فى ملامح الطفل التى رآها فى الحلم ، ليست غريبة عليه ، تشبه ملامح عباس ، وملامح عباس تشبه ملامح أخيه عبد التواب .. !

تردد لحظات يسترجع .. ثم فاجأته الدهشة .

فعلا هو .. هو الطفل الذى كان معه فى العريش ، هو الطفل الذى مات أبوه وأمه فى المستشفى .

انتبه إلى صوت الدكتوره هبة يزعق .

– هل أكلم نفسى .. ؟ أقول سندخل السجن .. !

وسألها وهو شارد .. أى سجن .. ؟

هبت واقفة وارتعشت يداها تعتصران ظهر المقعد .

– تصرف على هواك .. أما أنا فلن أسمح لنفسى أبداً .. !

قام القطب ودخل الحمام .

رأى وجهه شاحبا والعينين متورمتين .

وعينا الطفل تخايلانه فى المرآة ، جميلتان ، تنبضان بالحياة ، لا يبدو فيهما أى أثر للموت ...!

أخذ المحمول وطلب العريش ، مستشفى العريش .. يطمئن على الطفل ..

قالت الممرضة إنه يأخذ وجبته الكاملة من اللبن وينام جيداً .

طلب منها فى تشدد أن لا تتركه لحظة ، وأن تجهز نفسها فقد تأتى به إلى القاهرة .

وسألها إن كان أحد جاءهم من أسرة الطفل ، أو أن إدارة المستشفى وصلها أية معلومات جديدة بشأنه .. ؟

قالت الدكتوره هبة إن العبقرى الذى وضعهم فى دماغه قد أعد القضية على نار هادئة . فهناك ثلاث عيون زرعوا فى حجرات المرضى منذ أكثر من الشهر ، سجلوا على راحتهم ، ورصدوا وصوروا كل شىء ، أخذوا عينات من الأدوية الفاسدة ، وتقارير الحالات المصابة .. و ...

قاطعها القطب فى استخفاف أن لا تنسى أنها تتكلم عن مستشفى القطب التخصصى ، عن حرم فوق الشبهات ، وأن عليها أن تطمئن تماماً ، فكل الأمور ستكون على ما يرام .

أمسكت يده وهزته ، فلعله يعى ما تقول .

هناك حالة وفاة وثلاث حالات فى مرحلة الخطورة ، والتقارير تثبت أسباب المضاعفات فى الفشل الكلوى بين المرضى ، الأدوية الفاسدة تدمر الخلايا بدلاً من أن تنشطها .

ثم صاحت متسائلة .

– من أين أتيت بهذه الأدوية .. ؟

طلب منها القطب أن تنسى الموضوع ، أن تترك له كل ما يشغلها .

فكرت الدكتوره هبة ، فلابد أن تتماسك ، وأن تتفاهم معه فى حسم ، فطريقة وكيل

النيابة فى الكلام معها تفوح بجو المؤامرة ، تفضح عدم الاكتراث بمكانة القطب ولاحصانته ..

بل تؤكد الإصرار والترصد للنيل منه .. !

قالت وهى تلوذ بهدوء يتأبى عليها .

- أنا طبيبة .. وهؤلاء مرضى .. وحياتهم أمانة فى أيدينا .

ابتسم لها القطب فى مراضاة سافرة .

- ومن قال غير ذلك .. ؟

ثم طلب منها وهو يبثها لمسات من التعاطف أن تجهز مكانا فى قسم الأطفال بالمستشفى ، فهناك حالة خاصة تهمة ، وسيأتى بها . أخذت الدكتوره هبة سماعة التليفون وردت .

مدتها للقطب وعينيها فى عينيه ..

- وكيل النيابة .. !

تسمع القطب بينما يهمهم فى برود .. ثم فى ضيق مفاجئ .

- من أنت .. ؟ الاسم بالكامل يا جناب الوكيل .

ودارت عيناه تنثران الدهشة والاستنكار .

- أنت لا تعرف شغلك يا أستاذ .

أشارت إليه الدكتوره هبة أن يهدأ ويتفاهم مع الرجل ، فتجاهل ما تقول ورفع صوته محذراً .

- وأنا القطب عضو مجلس الشعب .. انتبه لكلامك .. !

أخذ التليفون وراح وجاء به وهو يزوم ، والدكتوره هبة تتابعه فى انفعال مكبوت .

- وأنا أرفض التفاهم بهذا الشكل .

ثم اقترب منها نافراً ، موحيا بدرع الحصانة ، بينما يبدى استهتاراً بالكلام مع وكيل النيابة .

– تصرف كما تشاء .. !

افعل كل ما يحلو لك .. !

وصفق السماعة فى مكانها .. !

أخذ نفساً عميقًا وراح يخرجه فى هدوء .. يعيد ترتيب مشاعره . فانفردت ملامحه وبدت السكينة تتسرب ناعمة .

وابتسم لها متوددا .

– كنا نتكلم فى موضوع الطفل .

– أى طفل .. ؟

تشاغل القطب عنها .. كان رأسه يغوص بين رمال متحركة ، غير واع لتساؤلها المعلق .. !

أحست وهو ينظر إليها أنه لايراها .. وهو ينسحب إلى الخارج أنه تائه فى ملكوت بعيد .. !

كانت الفكرة قد ومضت فى رأسه وأخذته .

فعلاً هو الإحتمال المعقول ، الاحتمال المتوازن مع تصاعد الأحداث . هو عادل النادى ولا أحد غيره .. !

العملية تفوح برائحة الغدر .. العملية تبدو ذكية ومحكمة ، تبدو موجهة إليه بصفته ومكانته . هى طريقة عادل النادى فى نصب الشباك ، فى المباغته للنيل من الخصم . تحذيره له فى اللقاء الأخير لم يزل يذكره .

إذن فقد فعلتها يا نادى وأعلنت الحرب .. ليكن ما تريد .. !

انتبهت الدكتوره هبة .. فقد سمعته بالفعل يردد اسم عادل النادى .

معقول خالها . ؟ !

ولكنه فى النهاية بدا أنه ..

أنـــه مـــاذا .. ؟ مـــن كـــان إذن يرصـــد .. ؟ من كـــان يرسم خطة بهـــذه الجـــرأة والإحكام .!؟

(٩٨)

** كان عادل النادى ينظر باهتمام لشاشته الصغيرة ، يتابع وقائع القبض على عزت الأبيض ، من خلال العدسات الخاصة المزروعة فى الأماكن الاستراتيجية ، هناك فى قصر الأبيض .

وكانت نون بجواره ، تراقب فى صمت وفضول .

بدت عينا الأبيض مثقلتين بالهزيمة المفاجئة ، وهم يأخذونه . !

اكتشف فى اللحظة الأخيرة مدى هشاشة الوهم الذى صدقه واحتمى به .

فأين هم مساندوه المزعومون .. أين هم الآن .. ! ؟

وصاح رغما عنه فى أنحاء المكان مهدداً .

– لا .. لن أذهب بمفردى .

وبرغم ذلك أحس بنفس العينين ، عينى الأبيض تتواعدانه ، تنظران إليه ، هو بالتحديد ، ومن خلال عدسات التصوير ، تومضان بشفرة غاية فى الخصوصية والتركيز ، تعرف جيداً طريقها إليه وحده .. !

أعرف هواجسك يا أبيض .

أعرف مدى يقينك بأننى فعلت ما فعلت بدافع الانتقام منك ، بدافع إشفاء غليل قديم ، ترسخ فى قاع الصدر ومازالت جذوره تضرب وتتمدد ، ولم يكن ما فعلته أبداً بدافع المصلحة العامة ، والحفاظ على حقوق خلق الله .. !

وأنا يا أبيض لابد أن أكون صادقًا معك كل الصدق .

وبرغم كل إهاناتك وخسة نفسك إلا أننى كنت مستعداً لأن أتناسى كل شىء ، كل شىء ، وأن أفتح معك صفحة جديدة ، بيضاء ، فى سجل ملفاتى .. وأقبلك صديقًا حقيقيًا من رصيد الزمن الجميل .. ولكنك أوقعت نفسك فى المحظور ، قطعت علىّ الطريق وأرغمتنى على أن ألتفت إليك .

أنت لا تستطيع أن تنكر يا أبيض مدى بجاحتك فى عقد الصفقات المريبة ، فى نهب أموال البنك ، أموال خلق الله والتهامها فى جشع . مسعور ، وبعد أن وصلت لكرسى السلطة .. حتى فاحت رائحتك فأزكمت الأنوف .. !

وأنالا أخفى عليك يا أبيض ، فلقد وصلنى تحديك الأخير ، أردت أن تشترينى بعدة ملايين ، كما اشتريت بعض ضعاف النفوس .

ولكن ليس النادى من يسيل لعابه مهما كانت دسامة الطعم .. !

أتعرف يا أبيض .. ولكى أنصفك فأريح ضميرى .. أنا قرأتها فى عينيك ، أحسست بها تتململ فى صدرك ، فأنت كنت قلقا من ناحيتى ، كنت شاكا فى أننى سأتلهى بالطعم وأتركك تمارس سطوك على أموال الناس .. !

كنت تعرف تمامًا أننى لن أعطيك فرصة الإفلات من يدى هذه المرة . وهذا شىء طيب .. بل هو أطيب ما اكتشفت فيك ، أن تكون قرون استشعارك بهذه الحساسية والصدق .

ولذلك فلم يهن علىّ أن أسلبك هذا الشىء الطيب ، أن أخيب أملك فى عادل النادى ، النظيف صاحب المبادىء والقيم ، ولذلك أجهدت نفسى معك قليلاً ، بل كثيراً إذا ما أضفنا لذلك قدراً معه لذة الإنتقام ، ومتعة إشفاء الغليل ، تلك الأمور التى اقتنعت أنت أنها عندى .

أتعرف يا أبيض .. فبرغم كل هذا الحقد الذى تفضحه عيناك ، وتتمنى لو تقبض به على عنقى .. أتعرف أننى لم أستخدم كل أسلحتى لمحاربتك . . ؟ ... أنا لم أكن جشعًا

أبداً فى محاربتك كما حاربت أنت خلق الله وأكلت أقواتهم ، على العكس يا أبيض ، فأنا لم أستخدم سوى ملف واحد من ملفاتك القذرة ، وما أكثرها عندى .. !

أترى كيف أننى مازلت أكرم منك ، وسأظل .. عموماً سأهبك نسخة كاملة من هذه الملفات ، ملفاتك القذرة ، كهدية تسليك وأنت تمارس حياة السجن ، وتلهمك الصبر ، والسلوان على ما أطلقته على صديقك النادى من نكران وافتراءات .. !

ذهبت نون ثم عادت بعد برهة وبرفقتها الدكتوره هبة .. رحب بها النادى وطلب منها أن تقترب ، وتدخل فى صدره . نظر إليها فلم يرحه شكلها .

أغلق الأجهزة وتفرغ لها ، محاولا الاحتفاء بزيارتها المفاجئة .

وراحت نون تقربها بأصناف المأكولات والمشروبات التى اعتادت أن تضعف أمامها ..!

بدت الدكتوره هبة لا تسمع ولا ترى شيئًا .

فاجأت خالها بالتساؤل القلق فى صدرها .. !

- هل فعلتها يا خالى .. ؟

أخذ الرجل نفساً عميقًا فتمدد فى كرسيه .

تطلع إليها وابتسم فى حنان صاف .. وأخيراً طاوعه الكلام .. !

- نعم فعلتها يا هبة .

طرحت هبة عينيها لأسفل ، فى هروب متأثر .

وتساءلت نون محاولة أن تفهم .

- ما الحكاية يا خلق .. ؟

بدأ الصوت يخرج مجهداً ومموراً من صدر الدكتوره هبة .

- أكان الآن وقته يا خالى .. ؟

وظل خالها صامتًا ، تطفو مسحة الإشفاق فى عينيه .

فأطلقتها نون بكل المرح لعلها تلطف الجو .. !

- يا عالم أشركونا فى الفزورة .

همست هبة تلتقط حقيبتها لتخرج ، لم يرحها منظر خالها فى الرد عليها . فأمسكتها نون تهدئها .

- أهكذا نعالج الأمور يا دكتوره .. ؟

كان الانفعال يفور بوجه الدكتوره هبة .

- أنت لا تأخذ القطب وحده .

ترك النادى كرسيه وجلس بجوارها على الكنبة . أخذها تحت ذراعه وراح يداعب شعرها وأذنها ويهمس مسترضيًا . طلب منها أن تذهب بنفسها للمطبخ وتعطى تعليماتها للطباخ بالأصناف التى تحبها ، فهو جائع للغاية ويريد أن تشاركه الأكل .. وبعد أن يأكلا ويعمرا الدماغ سيشرح لها كل شىء .. ولن تخرج من هنا إلا وكلها قناعة بما يحدث ..

ازداد تحامل الدكتوره هبة على كلام خالها ، ظنته يميع الموضوع ليتخلص من تورطه .

فقد اعترف بلسانه أنه هو الفاعل .. فماذا تريد بعد ذلك منه .. ؟

أجهدت نفسها وهى تتماسك . لم تقبل أبدًا أن تسقط دموعها . أمامه ، أمام خالها بعد أن اعترف هكذا فى بساطه أنه فعلها .. !

همت مندفعة فلم تفلتها يد خالها .

كان يتوقع هذه المباغتة منها .. . فهو يعرفها ، يعرف مدى رعونتها فى مواجهة المواقف الحرجة .

اتسعت ابتسامته ، متقربًا بمزيد من الحنان .. وتحرك على كرسيه وهى معه .

- أنت هكذا تتحملين ذنب الجائع .

ثم راحت أصابعه تجرى وتتقافز على لوحة المفاتيح ، بينما البيانات والأرقام تتوالى على الشاشة الصغيرة .

- انظرى جيداً .

نظرت الدكتوره هبة فراحت الدهشة تتمدد على وجهها .

قال إنها بيانات سرية لا يطلع مخلوقاً عليها . ولكن الدكتوره هبة أغلى من كل الأسرار .. !

واضطرب دماغها .. معقول كل هذه الأرقام من الأدوية دخلت المستشفى ، وهى لا تدرى عنها شيئاً .. ؟ !

معقول يداهنها القطب ليمتص دماعها هكذا .. ؟

كل هذه الأدوية الفاسدة دخلت جوف المرضى .. ؟

قال النادى فى ثقة .. إنه يعرف القطب جيداً .. يعرف أن زواجها منه كانت غلطة لا تغتفر .. !

وراح يذكرها بنصائحه وتحذيراته من الوقوع فى شباك القطب . ولكنها استهانت بكل الكلام ، وأخذتها العزة بالنفس فلم تر ولم تسمع عمق الهاوية التى انشقت تحت قدميها .

وقال عادل النادى يطمئن الدكتوره هبة ، إن القطب متورط فى عملية التأمين الصحى بمفرده ، فكل العقود والمستندات الرسمية بتوقيعه وكل المقابلات والاتفاقات المسجلة بالصوت والصورة ، كل الاستلام والتسلم بيدينه هو .

وربت عادل النادى على ظهرها مشفقاً ، فهناك عشرات الملفات القذرة تورط القطب .. وكلها مستوفاة وفى انتظار لحظة الصفر .

- ليست المسألة أننى خالك يا دكتوره .. وهو زوجك .. ولكن المسألة تتعلق بأرواح الأبرياء .. هذه المرة . !!

وحوصرت الدكتوره هبة بمنطق خالها . فالجريمة المتورط فيها القطب ليست مجرد جريمة عادية ، تستهدف المال أو الجاه أو السلطة ، ولكنها جريمة تلوث الجسد الإنسانى تدمره ، تغتاله فى خسة ودناءة .. !

لم يكلمها القطب أبداً عن موضوع التأمين الصحى هذا .

موضوعاته كثيرة ، تلك التى تكتشفها بعد فوات الأوان ، بعد أن يكون القطب قد ورطها فيها بالفعل ، ولم يعد هناك سبيل للحساب أو التراجع .

ولكن .. هذا الموضوع شديد القسوة .. !

فالقطب سيئخذها فى رجليه وهو يسقط مدانا .

وحتى لو أستطاع هو أن يفلت من العقاب .. فكيف تفلت هى من ضميرها .. !

من يلتمس لها الأعذار وهى طبيبة ، وهى مشاركة فى إدارة المستشفى ، وهى تمتلك المال والشهرة .. !

انتبهت فكانت تلوذ بعينى خالها ، رغما عنها ، وهى تتشوق أن تغتسل ، وأن ترتاح قليلاً .. !

- صدقينى يا ابنتى .. فعلت المستحيل معه ، ولكن الأمر خرج من يدى .

أحست هبة بأنها لم تقترب من خالها أبداً مثل هذه اللحظة ، ولم تستطع أن تقاوم دموعها هذه المرة .

فأخذتها نون فى صدرها ، وأشار لها خالها أن تذهب معها لتسرى عنها .. !!

(٩٩)

** أحس القطب بالارتياح وهو يدخل ..

كانت الحجرة كما طلبها .. الجناح المميز ، النظافة ، الفرش والأدوات الكل مستوى الخمس نجوم .

تفاهم مع الممرضة ، فعرف أن صحة الطفل بدأت تستقر ، وحالته النفسية أيضاً ، وأنه يتناول غذاءه بشكل طبيعي .

أما من حيث الاستدلال على هويته ، فما زال الحال كما هو عليه ، لا أقارب ولا معارف ولا أحد يتصل أو يدلي بمعلومات جديدة .

وجاء طبيب العيون ، مبديا كل الاهتمام بتعليمات القطب ، مؤكداً نتيجة الفحوص والآراء التي أجراها مع كبار المتخصصين ، والتي أثبتت سلامة العصب البصري للطفل ، وقررت قابلية الحالة للعلاج بعملية ترفيع الشبكية .. وهي عملية جيدة النتائج ، لمثل هذا السن الصغير ، ولا تحتاج السفر للخارج .

جاء عباس ورحب بالقطب ، معاتباً ، فلماذا لم يتصل به فور وصوله للعريش .. ؟

كان القطب يراقب الطفل وهو يضرب الهواء بيديه ورجليه ويضحك ، بينما الممرضة ترشه بالبودرة وتدلك بشرته الناعمة أوصاها عباس أن تبادر بالاتصال به ، إذا ما أتى أهل الطفل .

وكان لا يصدق ما يراه من مستوى الاهتمام والرفاهية المحيطة به ، ولماذا يفعل القطب ذلك كله .. ؟

هل حقًا من أجل عيون الطفل .. ولوجه الله .. ! ؟

وراوده الإحساس بنسمات خير تتهادى ، فراح يجرب .. لعل وعسى .. !

اعترف للقطب أنه يقوم بدور محدود في الجهاد الدائر هنا .. منذ أن جاء وعايش الجو ، وتعامل مع مجموعة من العناصر الفاعلة ، في عمليات الإغاثة والإيواء والعلاج التي يشرف عليها المحافظ بنفسه .. فلم يستطع أن يكتفي بموقف المتفرج ، لم تطاوعه نفسه أن ترى حجم المأساه ثم تبتعد عنها وتتناسى .. !

انتبه القطب للكلام .. ولم يستطع أن يوازن الأمور .

فكيف يؤمن عباس بهذا الموقف .. ولماذا . ؟

لابد أنه يستفيد بشكل أو بآخر من هذا الجو ..

وإلا فمن يمكن أن يعوضه عن الوقت والمجهود اللذين يضيعهما في مهرجان كهذا .. ؟

فعلاً هو مهرجان .. مهرجان كبير .. !

عمليات إغاثة ، وإيواء ، علاج ومصابون ، وشهداء وأيتام .. كلها مسائل تحتاج إلى دماغ كبير ..

ويبدو أن عباس قد تحول إلى دماغ كبير .. ولكن .. ؟

أتراه يعمل تحت ذراع المحافظ .. ؟

معقول .. ؟ ممكن .. ؟ ولم لا .. ؟

كلامه يلمح بأن المحافظ هو الذي يدير .. هو الذي يتصرف .

ولابد أن يتبرع البعض من كبار البلد ، حفاظًا على مصالحهم .. !

وبدأت رأس القطب تترطب ، تسري فيها لذعات الاعتداد بالنفس . فبالتأكيد هو صاحب أنف مدربة ، وبالتأكيد هي رائحة انتهازية مبتكرة ، يتلاعب بها هذا البعض .. !

فهنا في هذا الجو يعيش الناس " دورهم " في همة ونشاط ، يعيشون في وهم الحماس ، وبذل الأرواح والأموال .

والشاطر من يعرف كيف يستفيد ، وكيف يطوع حركة الجهاد لصالحه ، ولوجه الله وحده فى نفس الوقت .. !

قال عباس إنه يرجو من القطب أن يشارك بالمساعدة فى حركة الجهاد ، فكل المقتدرين فى المنطقة يتسابقون لتقديم العون ، كل حسب كفاءته .. والقطب لن يكون أبداً أقل من هؤلاء المواطنين . أخذه القطب وحوّط عليه بنظرة ذات مغذى .. وابتسم مجارياً قواعد اللعبة .

- كم تريد يا عباس ؟

قال عباس إنه يريد حجرتين من المستشفى ، يخصصهما القطب لعلاج المصابين فى العمليات الفدائية ، وعمليات الاعتداءات الإسرائيلية على المدنيين الأبرياء .. !

تساءل القطب مستدرجاً ..

- أهذا كل ما تريد يا عباس .. ؟

وانتهز عباس الفرصة فطلب من القطب أن يتكفل بثمن العلاج وإجراء العمليات لهؤلاء المصابين .

لم يصدق القطب فرحة عباس وهو يرتمى فى أحضانه ، لاهثا بالشكر والعرفان ، باكيا فى تأثر ، بمجرد أن هز القطب رأسه مستجيباً لطلبه .

ظن أن عباس يناور لاقتناص الفرصة ، لتوريطه فى شيك دسم ، ينعش بالتأكيد العلاقة بين مستشفى العريش وإدارات المحافظة .. !

معقول كل هذه الفرحة تفور فى عينيك يا عباس .. ؟

كل هذا الانفعال التلقائى .. لدرجة أن تقبل يدى ، وتكاد تغوص فى صدرى .. !

ولكن .. الموضوع هكذا لا يركب مع حساباتى أبداً يا عباس .

حجرتين وثمن العلاج والعمليات .. فقط يا عباس .. ! ؟

أهذه مجرد طلباتك المعلنة ، ثم ننتقل إلى ما خفى منها .. ؟

أم تراها حقًا عملية جهاد حقيقية تورطت فيها .. ؟

أسند القطب رأسه لَلمقعد وترك عينيه تذهبان للطفل .. !

أصبح مؤكدًا ما يتسرب بداخلها ويؤثر .. ما يحتل قدرًا من تفكيره ويشغله .. !

الطفل قعد فى رأسه وتمكن ، بالفعل تمكن وأخذ براحه .

وبعدها يا قطب .. ؟ !

أتصدق أنها ظروف عابرة ، شفقة عابرة ، ثم تنتهى المسائل وتزول .. ؟

أتعترف أنت بمثل هذا الكلام .. ؟

(١٠٠)

** خف رأس القطب قليلاً عن الكتفين وهو يشد من الشيشة أنفاسًا أخيرة متلاحقة .

مازال الهواء ثقيلا ، يقاوم ضغط المساحة المائية وهى تطارده للشاطىء . وبدت السماء كالحة السواد ، ممزقة الأستار هناك ، عند الأفق المتدلى فى جوف الأمواج المتكاسلة .

سقط عباس فى إغفاءة خاطفة ، وهو متراخ بجوار القطب .. ثم انتبه ، خايله صوت عربة الإسعاف تقترب .. ولكنه لم يجد شيئًا .. !

هل يعاود الاتصال بهم .. ؟

لا يعرف أين ذهبوا .. !

أكدوا أنهم فى الطريق للمستشفى ومعهم حالة حرجة .

هل رفع الله إليه تلك الحالة فأراحها من الحرج ومن المستشفى .. !

اقترح أن يقوم القطب ليريح جسده ، لينام قليلاً .. كان الإرهاق يبدو متراكما على وجهه .

تمطى القطب فى انتفاضة ، مؤجلاً لاقتراح عباس .

وكانا جالسين عند حديقة صغيرة ، بجوار حجرة الطفل .

- هل أعجبك الحجرتان يا عباس ، أما تريد الأوسع .. ؟

عاد عباس ينثر عبارات الشكر والثناء تحت قدمى القطب ، داعيًا له بواسع الرزق ، وعلو الشأن ، وصلاح الذرية .

نظر إليه القطب وسرح .

أحس بصدق دعواته .. لم يعد يشعر بمثل هذه الدعوات النظيفة ، كلها أصبحت مداهنة ورياء لتسليك المصالح .

أخوه عبد التواب كثيراً ما كان يدعو له الدعوات النظيفة ، ولكنه كان غائبًا عن التعاطف وقتها ، فلم يستفد منها .. !

قدم عباس للقطب فنجان القهوة .

قال القطب إن النشاط انكمش ، العمل لم يعد كما كان .. وبرغم توقع الافتتاح الكبير للمستشفى بعد ستة شهور إلا أن معدل العمل المتدنى يحول دون ذلك .. !

ثم أخذ يغرى عباس لكى يعود كما كان ، ذراعه الأيمن ، فيريحه من بعض الأرزقية العالقين به .

وسكت عباس ...

كان يحسبها مع نفسه .. فمهما غمره القطب بفيض المودة ، ومهما قدم لحركة الجهاد الفلسطينية من مساعدات ، فهو بلا شك ينتظر المقابل .

القطب ينتظر المقابل وأنت تعرف ذلك جيداً يا عباس .

فهل تعود لتستكين تحت ذراعه كما كنت .. ؟

أتستطيع أن تتحمله وتجاريه مرة أخرى .. ؟

الموضوع يحتاج للتفكير المتأنى ، لوقفة مع النفس قبل إعطاء الكلمة . المشكلة أنك اطلعت على عرى القطب من قبل ، فلم تستطع أن تواصل الرحلة معه .. فأسلوبه فى جمع المال وفى معاملة الأهل والأصدقاء كله غدر ومراوغة وانتهازية .. !

والمشكلة أيضًا أنك كنت الإنسان الوحيد الذى نفذ إلى قلب القطب ، ففاز بوجهه الحسن ولاذ بدفء صدره .

تناغم صوت المحمول فتكلم عباس هامسًا .

عرف أنهم قد ذهبوا بالحالة الحرجة إلى مكان آخر ، وأنهم قد أعفوه من تدبير المكان بمستشفى القطب .

استأذن من القطب ليذهب ، وعلى وعد بأن يأتيه مبكرًا .

جلس القطب على السجادة متواريًا عن العيون ، هائمًا فى الخلاء اللانهائى .

كان صوت البحر يأتيه متواترا ، يغمر أذنيه ويدور بداخلهما ثم ينسحب فى نعومة إلى الخارج ، وشوشات متلاحقة .

فرد رجليه وأسند ذراعه إلى الكرسى ... فوجىء به منزرعا أمامه .

معقول هو .. ! ؟

وظل شاخصا يتطلع .. تنافر اللحية ، وانكفاء الحاجبين ، وبريق العينين ..

- الملك لله ... والعظمة لله ... ياعبد الله .

هو الشيخ دردير بعينه .. وبصوته .. !

هم بالقيام فتثنا قلت قدماه .

- تفضل يا شيخ دردير .. تفضل يا مولانا .

دق الشيخ دردير الأرض بعصاه ، مشرعًا وجهه للسماء .

- الفضل فضل الله .. والضيوف ضيوف الله .. وأعوذ بالله من غضب الله .

صفق القطب فجاءوا بوسادة طرية أسندوها للحائط .

- استرح يا مولانا .

أزاحها الشيخ بعصاه وركن ظهره إلى أحجار الحائط .

كيف جاء الرجل .. ومن أخبره بمكانى بالعريش .. ؟

ثم ماذا يريد منى .. ؟

لاحظ عينى الشيخ تتسربان فى عينيه ، تتلمسان بؤرة الأفكار وتتشربان من نبعها ، تتسلان فى اكتفاء لمكانهما .

– الصديق للصديق فى كل زمان ، وفى كل مكان .. وأنت طلبت صديقك يا فرس النبى .

داهمه الحرج فراح القطب يلهج بالترحيب .

– الصديق لايستغنى أبداً عن صديقه يا مولانا .

خلع الشيخ عمامته وركنها بجواره ، بدت خصلات شعره الكثيف نافرة وملبدة ، على حواف الرأس .

هم القطب يتساءل ، فلماذا لم يطلبه هو فيذهب إليه فوراً ، وفى أى مكان .. ؟

ولم يعطه الشيخ الفرصة .

– تضيع وقتك بهاء يا فرس النبى .. هكذا أنت دائماً .. !

أخذ يد الشيخ يقبلها ويعتذر ، يرجوه أن يطلب عشاء يناسبه .

أغمض الشيخ عينيه وراح يتهامس بأسماء الله الحسنى .

– الصوم جُنة يا عبد الله . ومن كان فى المعيه لا يحتاج الطعام .. !

حاول القطب أن يذكره وهو مندهش .

– نحن فى الليل يا مولانا .. !

وفكر أن يغريه بأصناف الطعام .. فعرى الشيخ صدره يتلقى نسمة الهواء المنسلة من جوف البحر ، وهو يشهق منتشياً ومسبلاً عينيه .

– يا من لا تنفد خزائن رحمته .

ثم ألقى برأسه بجوار رأس القطب وتمدد صوته من الأعماق .

– المال .. والولد .. يا فرس النبى .

قال القطب فى يأس ..

– المال ينمو ويفيض .. أما الولد .. فلا ولد .. !

تراجع الشيخ وبدأ يهتز بجذعه فى تواتر .

– أين فرس النبى .. ؟

جئت أرى فرس النبى .. فلم أجد فرس النبى .. !

وانتفض ساحبا عصاه ..

وباليد الأخرى جذب ذراع القطب يسحبه معه .

فى حجرة الطفل توقف عند سريره .. ومد يده .

كان وجه الطفل متألقا وابتسامته تسيل نوراً .

مال الشيخ ووضع فمه فى أذن الطفل . أذّن فيها بصوت مبحوح .

ارتفع صياح الطفل بالتدريج ، وظل يتردد فى أنحاء المكان .

فوجئ القطب فاتسعت عيناه .. معقول هى المرأة .. ! ؟

وكانت بالفعل أمه .. هى أم الطفل ، أبدا لا ينسى ملامحها .. !

دخلت وحملت طفلها فى تشوق ، تهدهده وتقبله وتبكى .

رأى القطب عينيه واسعتين وجميلتين ، تنظران إليه من بين أحضان أمه .. !

وظل الشيخ يتلو عليه الأذكار ، وهو يرتوى من صدر أمه ، بينما خداه يزدادان حمرة ونضجًا .

تغير وجه الأم وهى تسحب ثديها عن الفم المرتعش ، القابض عليها فى تخوف .

قال الشيخ دردير وهو يأخذ الطفل من أمه ويعطيه للقطب .

– خذ الأمانة يا عبد الله .

كان الطفل خفيفًا وناعمًا ، عيناه متعلقتان بعينى القطب .

وكانت الأم تتكلم بصوت صامت ، تتفاهم ، تتوسل ، تنوب فى التوسل ، تعطى القطب دعوات نظيفة ، فواحة الرائحة ، عنبرية المذاق .. وجاء بطوق الزهور المضفورة ، ملونة ومنتشية .. ووضعته فى رقبة الطفل ، وفى رقبة القطب .. !

قال الشيخ وهو يقبض كتف القطب .

– اجعل مطعمه حلالا .. واجعل ملبسه حلالا .

كانت عينا المرأة تتسعان .. والقطب يدخل بالطفل ، يدخل عينى المرأة ، ويشم رائحة البحر ، وهى باردة ، تداعب وجهه وأذنيه .

والصوت يأتى من بعيد مناديًا ، يشبه صوت الأم .. حاج قطب .. يا حاج قطب .. !

وحرك رأسه ونظر جيداً .. كانت المرضة تقترب منه مستطلعة ، والجو من حوله ساكنا ، مشربا بلسعة برد خفيفة .

– أين ذهب الرجل .. ؟

تحسس المكان بيده وكان باردًا .

وظلت المرضة تنتظر ، لا تعرف ماذا يفعل ، وهو يتلفت و يبحث فى أنحاء المكان ... !

– أين أنت يا شيخ دردير .. ؟

وسألها .. إن كانت قد رأت شيخًا يضع عمامة ويدق الأرض بعصاه . فأكدت أنها لم تر أحدا .. !

(١٠١)

** لم يكن يتوقع رداً بهذه السرعة .. !

عادل النادى يرد بنفسه وبدون تدخل السكرتارية .. !

فالوقت كان متأخراً وكل الاحتمالات واردة .

وعندما وصله الصوت مرحباً ، بادر القطب مداعباً .

– أعتقد أنك تنتظر صوتى على تشوق يا نادى .

كان القطب مستلقياً على سريره ..

ظل يقاوم الرغبة الملحة .. ثم فوجىء بتماسكه ينهار أخيراً فتمتد يده للتليفون فى إصرار .

وكان صوت البحر يصخب فى الخارج ، لا تحتجزه جدران الحجرة الرحبة ، المخصصة لإقامة القطب فى المستشفى .

قال عادل النادى إنه دائما ينتظر صوته .. ولكن مشاغل القطب بعضوية مجلس الشعب تحرمه من هذا الشرف .. !

تضاحك القطب مناوشا ..

– أنت تتمنى أن تركب مقعداً وجيها فى مجلس الشعب يا نادى .

تضاحك النادى ساخراً ..

- ركوب الوجاهة موهبة أتركها لأهلها يا قطب ..

سكت القطب لحظات .. يتدبر عملية الدخول فى الموضوع ، بالشكل الذى يحفظ له كبرياءه .

أبدى عدم الاهتمام وهو يقترح على النادى لقاءً قريبًا ، لقاء فوريًا .. أن أمكن ، وفى مكان محايد ، ليتفاهما فيما بينهما من موضوعات معلقة . تثاء ب عادل النادى وأرخى أحبال صوته فاكتسب بحة خفيفة توحى بدخول النعاس .. ثم تساءل فى دهشة إن كان بينهما موضوعات معلقة .. ؟ وطلب من القطب أن يذكره بهذه الموضوعات ، فرأسه أصبح مثل المصفاة يتسرب منه كل الأمور .... !

اعتدل القطب فى سريره .

النذل يضرب تحت الحزام .. !

هم بأن يفرغ كل الغيظ المتراكم ، يفرغه فى وجهه ويصفق التليفون .

الرجل قليل الأصل يستفزه فى بجاحة .

يتصيد له الهنات ليعتلى الشهرة على أكتافه .

أبدا يا نادى .. ليس مع القطب تفلح هذه المناورات .

جاء ه الصوت مستطلعًا ..

- أين أنت يا قطب .. نمت وأنت تكلمنى .. ؟

فتح القطب شباك الحجرة ، فاندفع الهواء البارد يتطاير بالستائر ويصفع الجدران ويدور فى الفراغ .

قال فى صوت ثقيل ..

- هل فعلتها يا نادى .. ؟

وقال النادى فى تمهل ..

- أجبرتنى يا قطب .. !

وظل الخط معلقًا بينهما .. لم يغلقه القطب ، ولم يغلقه النادى .

اشتدت عصبية الهواء ، فراح يطيح بالأشياء فى أرضية الحجرة .

ويصفق ضلفتى الشباك ويباعد بينهما .. بينما القطب شاخص للظلمة الممتدة فوق مياه البحر ، لا يكاد يعبأ بعربدة الجو .. !

من هذا النادى الذى يتحداه .. وبهذه الصفاقة .. ؟

الغبى يظن أنه اتخذ من ابنة أخته ساترًا ليتجرأ على القطب ، يتجرأ علىّ أنا .. !

ولكنى تزوجتها بمزاجى ، وألقيها أيضًا بمزاجى .

التقط التليفون وصاح فيه ...

- أتحتمل مواجهتى يا نادى .. ؟

وجاءت صوت النادى هادئًا ، متأهبا لأحضان النوم .

- أتعرف يا نسيبى .. أهم ما يشغلنى الآن .. أن أتمدد على سريرى .. وأنام .. أنام بعمق حتى الصباح .

وانطلق صفير الخط .. !

دخل القطب الحمام ووضع بدنه تحت الدش .

وظل ساكنًا .. يتلقى المياه المنهمرة عليه ، يرخى أعصابه ، يجاهد سيل الأفكار المتدفق فى رأسه .. !

مازال النادى يتربص به .. !!

مرارًا حاول التدخل فى خصوصياته ، مزجيًا نصائحه الخبيثة .

النادى يريد منك شيئًا يا قطب .. بالتأكيد يريد شيئًا .

وإلا فلماذا يحمله هكذا فى دماغه ويزعق .. ؟

ماذا يريد النادى .. ؟

ماذا يريد بالضبط يا قطب .. ؟

وصاح فى الحمام فتطاير الماء وارتطم بالحائط .

- ماذا تريد يا حقير .. ؟ !

وعندما أغلق الدش خايله صوت الطفل يأتى من بعيد .

تنصت .. هو بالفعل صوت الطفل .

ارتدى ملابسه وخرج ..

فتح الباب ونظر .. لم يسمع شيئًا فى الطرقة .. تقدم خطوات .. لم يسمع شيئًا .. !

وصل للباب وفتح ..

الجو هادئ وصوت الممرضة يتردد من السرير المجاور للطفل .

هل ينظر إليه .. ؟

مجرد نظرة سريعة ويمضى .. ولم يستطع المقاومة .. !

خطوات حذرة وكان هناك ، فوق رأس الطفل .

نظر إليه .. يتنفس فى وداعه . يبدو جميلاً وهو نائم .

هل يلمسه بإصبعه .. ؟

قد يصحو ويبكى .. مجرد لمسة سريعة ويمضى . لا يستطع المقاومة ..!

لمس وجهه بطرف إصبعه .. فابتسم فم الطفل .. وهو نائم ..

عاد القطب لحجرته واستلقى بجوار الراديو ..

امتدت يده فانبعث صوت الموسيقى رومانسيًا هادئًا .

وكان الهواء قد أتعبه مجهود الصخب فاستكان قليلاً ، وبدأ يتداعى ، مترسباً على فراغ الشباك .

أغمض القطب عينيه فزحف ناحيته صوت البحر .. وصوت الدكتوره هبة وهى ترجوه .. !

فإن معاداته لخالها عادل النادى يضيع منهما الفرص الذهبية ..

وهى تحذره .. فإن غدر عادل النادى يدمر الأخضر واليابس .. !

ولأول مرة يتسرب الشعور الحقيقى لصدره ...

بالفعل هو يريدها الآن بجواره ، الدكتوره هبة زوجته .. يريييدها أن تجلس هنا وتكلمه .

اعتاد أن لا ينتبه إليها بالقدر الكافى وهى تكلمه .. ولكن لا يهم .. فلتأتى الآن وتتكلم ، ليشعر بأنفاسها ، مجرد أنفاسها بجواره تريحه ، بالتأكيد تريحه .

هل يطلبها لتأتى إليه .. ؟

قد تكون نائمة الآن ، قطعًا نائمة أو مشغولة فى المستشفى .

آه لو تأتى الآن إلى هنا ..!

مستحيل .. فحتى لو تحركت الآن من القاهرة لوصلت العريش مع الصباح .

نزوة مجنونة .. تبدو مجنونة .. هل تطاوعه وتأتى .. ؟

أجازه يوم ليس إلا .. يوم واحد .. !

كم أضاعا من أيام فى الجرى والرمح .. !

والآن عنده مفاجأة لها .. مفاجأة حقيقية .. مفاجأة العمر .

آه لو أنها تقبل بالهوادة .

بالتأكيد ستقبل ، ستمتئ بالفرحة عندما تنظر ، عندما تعرف أنه أصبح لها ، وبدون أى نزاع أو عراقيل .

وتمكنت الفكرة من رأس القطب ، فقام مبتسمًا لصورته فى المرآة ..

– لتكن أجازة يوم مدفوعة الأجر يادكتوره .

وأخذ التليفون وراح يطلب الرقم فى تمنى .. !

(١٠٢)

** لم تستطع أم هاشم أن ترفع عينيها وهى تدخل .. !

كانت تتوارى خلف زوجها وتحمل الولد .

وكان جاد الشحات يقدم رجلا ويسحب الأخرى .

وحين اقتربا من مكتب الدكتوره هبة ظلا صامتين ، وقد فقدا القدرة على الكلام .. !

تركت الدكتورة هبه أوراقها وطلبت منهما أن يجلسا .

تكلمت أم هاشم وهى تنتزع من أحشائها ..

فهى على استعداد أن تترك لها الولد .. تبقيه عندها .. على أن تسمح لها بيوم واحد .. تتركه لها يوماً واحداً كل أسبوع ليعيش فى أحضان أمه وأبيه .. !

وقال جاد الشحات إنه سيبذل كل جهده لتدبير ورد المبلغ ، الدين الذى على زوجته للدكتوره .

قالت الدكتوره هبة إنها لا تريد منهما شيئًا على الإطلاق .

وأنه يمكنهما الانصراف بالولد إلى بيتهم .. الآن .

ثم سألت أم هاشم إن كانت قد أخذت كل ما يلزمها من أدوية لها وللولد .. فأومأت تبتهل بالشكر .

واختطف جاد الشحات يدها وراح يقبلها فى توسل أن تسامحه ، مبديا كل الاعتذار والأسف على ما بدر منه فى حقها .. !

معترفًا بفضلها ، والذى سيظل دينا فى رقبته ليوم الدين .. !

فبدون رعايتها المخلصة لزوجته ، وبعد إرادة الله وحده ، لكانت الآن أم هاشم فى عداد الأموات . !

بدت أم هاشم فى حالة صحية لا بأس بها .

وبعد أن استعادت المعقول من تماسكها وعافيتها .. وجرت الدماء فى وجهها وتراخى تكالب المرض على بدنها .. فأعاد لها توازن الحركة وبوادر الأمل .. !

سحبت الدكتوره هبة عينيها عن الولد ..

وكان يتطلع إليها متعلقا بمشاعر الطوفلة .. ويبتسم فى براءة .. !

طلبت الدكتوره هبة أن تداوم أم هاشم على زيارتها بالبيت .. وأنها أعطتها أجازة معقولة حتى تسترد عافيتها تمامًا ، وتتمكن من العودة للعمل فى المستشفى .

كما طمأنت جاد الشحات بخصوص مشكلة البوليس والنيابة ، فقد سوت بالفعل الموضوع معهم ، وأغلقت الأوراق تمامًا .

خرجا من حجرتها وهما يدعوان لها من القلب .

دخلت الدكتوره هبة جناح فاروق غراب .

وكان قد خرج من العناية المركزة من يومين .

الجناح يبدو رائعًا ، مستوى سبع نجوم فى فندق على النيل .

وأحاط بالمريض بعض الرجال " المناظر " .. وحين لمحها ألقى بالسيجارة وهو يتنكر لشبورة الدخان ، موحيا بتورط الضيوف فى عملية التدخين .. !

فحصت الدكتوره تقارير الحالة المرضية ..

وقد بدأ على وجهها الارتياح للنتيجة الطيبة .. !

رددت بداخلها ، وعن يقين راسخ ..

سبحان من يحيى العظام . !!

طلب فاروق غراب من رجاله أن يتركوا الحجرة لحظات . وبعد أن خرجوا بادر بشكرها على تفانيها فى رعايته ، والاهتمام به وأنها قد تركت أثراً لن تمحوه الأيام .

ثم رجاها أن تطلب شيئاً كهدية رمزية للذكرى .. مجرد الذكرى .

تعففت الدكتوره هبة ، وأكدت أنها لم تعمل أكثر من الواجب .. !

ثم دخل فى موضوع القطب ..

اعترف بأنه أخذ على خاطره من تصرفاته الأخيرة معه .

فلم يكن يتصور أبداً أن القطب يمكن أن يعض اليد التى ساندته ، هيأت له الإمكانيات المستحيلة .. !

ثم قال وقد تغيرت ملامحه ...

- القطب استغل سقوطى المفاجئ فانقض وأكلنى .. !

ولكنى لن أتركها له .. !

فلو كان قد جاءه من مدخل الرجال لترك له ما هو أعظم من أرض العريش .

ولكنه تعامل معه بدناءة الانتهازى .. !

لم تجد الدكتوره هبة ما تقول ..

ظلت منكسة الرأس ، تحاول أن تجد طريقاً للإفلات . !

فهى لا تنكر أن القطب قد تعامل بدناءة مع الرجل ، فعلاً بكل الدناءة .. !

ولكن هل من المعقول أن تبدى تعاطفًا مع هذا المنطق .. ؟

تتنكر لزوجها فتذبحه أمام هذا الغراب ، خاصة وهى تعلم أن الرجلين من طينة واحدة ولا يتخير أحدهما عن الآخر .. !

أبدت تحرجا واعتذاراً ..

فهى لا تعرف شيئًا عن هذا الموضوع .

ولعل القطب كان يتحرك فى إطار حسن النية .. فمن يدرى .. ؟

ثم راحت تطمئن الرجل ، فإما أنه قد استرد عافيته وتوازنه بشكل كامل فكل المسائل يمكن أن تحل فى جو الصداقة والحرص على المصلحة المتبادلة بين الأحباء .

قال فاروق غراب موحيا بما يود أن يوصله للدكتوره ، وبالتالى هى تنقله إلى دماغ القطب .. قال إنه يرجوها الاتصال بخالها عادل النادى ويشكره على طاقات الورد التى كان يرسلها له كل يوم .. وأنه يستعد للقائه فى أقرب فرصة ممكنه .

خرجت الدكتوره هبة وهى تحس بالإرهاق الشديد .

فقد وصلها تمامًا رسالة فاروق غراب ..

فهو بلا شك لا يقصد الشكر المتعارف عليه بين الناس .

فلو كان الأمر يقتصر على التعبير على الشكر فكان الأولى أن يتصل هو بخالها ليبلغه ذلك شخصيًا .. !

طلبت فنجان القهوة واسترخت فى مقعدها .

تمنت أن ينساها جو المرضى قليلاً .. الأدوية والأجهزة والآهات والدموع .. و .. وتراخى النبضات .. وتوقفها على الشاشات .. !

آه لو تدخل إحدى الثلاجات وتتمدد فيها .

لمدة سنة .. سنة واحدة .. تأخذ راحتها ثم تعود .

كانت ابتسامة الولد مازالت تتراءى لها .. فلا شك أنه أحس بها ، أحس بما تكنه من مشاعر تخصه وحده .. وأحس أنها تودعه .. تتركه رغما عنها .. فلا حيلة لها أمام أهله .. أمام الأم والأب الحقيقيين .. !

(١٠٣)

** لم يكف منصور عن الكلام .. وكلما حاول القطب أن يغلق فى وجهه باب عاد يفتح باب آخر ليدخل لنفس الموضوع ، ضاغطا ومغريا حتى يتصيد الكلمة من فم القطب ثم ينطلق .. !

كانت الأوراق فى يده .. دراسة الجدوى ، من بنات أفكار العقول اللامعة ، عباقرة زمن " دهان الهواء دوكو " .

وراح يطمئنة بأن نصيب التليفزيون لن يتعدى المليونين .

وأن جوائز الحج والعمرة فى حدود الخمسة ملايين .

- انتبه يا باشا .. صافى المكسب عشرة ملايين .

ولما رأى القطب لا يزال شارداً بعينيه من شباك العربة ، حاول معه من مدخل آخر .

- ثم لا تنسى دعاء الموعودين .. ضيوف الرحمن يا مولانا والأجر والثواب عند الله .

انتبه القطب وبدت ملامحه تصفو ..

وكان صوته متودداً .

- أريد أن أشركك الرأى يا منصور .

اعتدل منصور وأعاد ترتيب الأوراق ..

ظن أن القطب يريد أن يستوضحه بعض جزئيات المشروع ، أو أنه يفكر في إجراء بعض التعديلات على دراسة الجدوى .. !

ولكنه فوجئ بالقطب يأخذه إلى طريق آخر ..

يسأله المشورة فى إقامة دار لمشردى الاعتداء الإسرائيلى ، من الأطفال والشيوخ الفلسطينيين .

– هنا فى العريش يا منصور .. والتمويل من أموال الزكاة .

كانت العربة تقترب من معبر القناة لتدخل محافظة الإسماعيلية . والسائق ينطلق بسرعة كما أمره القطب .. !

تضاحك منصور وهو يقبض على يد القطب ويهزها .

– أموال الزكاة . ؟ أتقول أموال الزكاة يا باشا .. ؟

تطلع إليه القطب وحاصر وجهه .. فأمسك منصور .. !

أحس أن الرجل منحرف المزاج ، ولن يتقبل أية هفوة فى الكلام . !

وقد ينقلب عليه فيفسد الجو .. !

لذا فكر أن يجاريه ، مؤقتًا .. !

يشترى منه أولا ثم ينزلق به إلى حيث يريد .

استرسل القطب فى الكلام عن فكرته .. فهو سيقطتع جزءًا من أرض المستشفى لإقامة هذه الدار .. وسيبدأ فورًا فى التنفيذ .. وأنه سيوكل إدارتها لعباس .

أفلتت من فم منصور ساخرة .

– عباس من .. ؟ عباس الفواعلى .. ؟

تضايق القطب .. وهم أن يوقفه عند حده ..

تساءل موبخًا ..

- عباس فواعلى يا منصور .. ؟

تمادى منصور فى السخرية .

- باش فواعلى .. ولا تزعل يا باشا .. !

ألم يخبرك بنفسه بأنه يجمع الأنفار للمحافظة ؟

أفرغ القطب زجاجة الساقع فى جوفه دفعه واحده .. تمنى أن يقذف منصور من شباك العربة .

- نرجع لموضوعنا يا منصور .

وكان منصور قد استغرق بطريقته فى استحلاب كلام القطب ، ثم بدأ متحمسًا وهو يلتقط طرف الفكرة .

- أعمل لك دراسة جدوى لم تحدث .. فقط أعطنى رقم التبرعات المتوقعة .

وراحت الفكرة ترسل ومضاتها التلقائية فى رأس منصور .

- نشرك المحافظة معنا يا مولانا .. ونأخذ موافقة الأوقاف ، والصحة لإصدار سندات ذات أرباح رمزية . عمل خيرى ضخم يا باشا ، إذاعة وتليفزيون وصحافة وإعلام دار القطب لمشردى الاحتلال الغاشم .. يا سلام .. أين كانت غائبة عنّا هذه الفكرة الجبارة .. !

وجاء كلام القطب هادئًا ، حاسمًا ، بطريقة لم يعهدها منصور .

قال إنه لا يريد دراسة الجدوى ..

فهو سيدفع فقط . يدفع ولا ينتظر عائدًا لما يدفع .

- أريد أن أغسل أموالى بالفعل يا منصور .. أريده مشروعًا خيريًا حقيقيًا .. وليس .. !

وليسم ماذا .. ؟

لم يفهم منصور شيئًا فيه ليس هذه .

فقد تشكك فى شخصية من يجالس ويتكلم معه .. !

أهو القطب بالفعل .. أم شخص آخر .. ؟

أموال الزكاة ، والمشروع الخيرى ، وغسل الأموال ، وعدم انتظار العائد ، كلها ألفاظ غريبة على أذنه ، وعلى لسان القطب .. !

هل بدأ يلاعبه بطريقة مبتكرة ، تستغلق على دماغه .. ؟

ممكن .. فالقطب ليس هينا ، ولا يفرط فى الكلام .. !

تساءل منصور فى استخفاف . فأين هم هؤلاء المشردون من الاعتداء الإسرائيلى . ثم كيف يدخلون إلى العريش .. ؟

قال القطب إنه رأى الكثيرين منهم . فهناك من يساعدهم على الدخول ، للعلاج .. والفرار من جحيم المطاردة المسعورة .

– آه يا منصور لو أننى أستطيع .. !

أبدى منصور كل الاستعداد .

– أنت تأمر يا باشا .. لو كان لبن العصفور .. !

تكلم القطب فى تحسر ..

فلو أنها تقف عند حد لبن العصفور لأتى به بنفسه .

ولكنه يريد شيئًا أكبر .. يريد أن يدبر بعض الأسلحة للمجاهدين .

وبدأ منصور ساهما ، يتطلع فى دهشة .

فماذا أصاب الرجل بالضبط .. ؟

سأله مستدرجا .. إن كان قد رأى المجاهدين .. ؟

أومأ القطب برأسه .. فقط أخذه عباس إلى هناك ، إلى حدود رفح ، وقضى وقتًا طويلاً يستمع من كبير الجماعة الشيخ فيصل القدسي .

– آه يا منصور لو كنت معي .. فرأيت وسمعت .. !

شك منصور في أن يكون القطب مصابا بعارض مفاجئ . قد يكون السحر .!

سمع كثيراً عن أهل هذه المنطقة أنهم يتعاطون السحر ، يتبارون في تسخيره وملاعبته لقضاء المطلسم من شئونهم .

سحروا دماغ القطب لكي يسحبوه إليهم .

عمومًا فالأمر يبدو مسليًا ويستحق الأخذ والعطاء .

– ماذا رأيت وسمعت هناك يا مولانا .. ؟

تراخى القطب وأغلق عينيه .. فقد رأى بشراً يعيشون دون حد الكفاف ، يأكلون ربع بطن ويدخرون ثمن الطعام لشراء السلاح .. !

رآهم يجمعون الأطفال والشيوخ والنساء ، من نتاج آلة القتل والتدمير ملوحين بنداء المجاهدة .. بالنفس والمال .

– لا أستطيع أن أصف لك يا منصور كيف أن قتل هؤلاء الأطفال كان أرحم من معاناتهم تشوه الجسم والنفس .. !

وبدت غريبة على عين منصور ، ملامح القطب وهي تعيش الدور ، فتتخيل بشاعة المناظر وتستنكرها .

– أتقول أن عباس هو من أخذك إلى هناك .. ؟

ضاق صدر القطب فلم يرد ..

تشاغل بالتطلع إلى صور الطفل ، وكان قد استدعى المصور للمستشفى .

عاد منصور يلح بالتساؤل ، ضاغطًا على القطب فى سخافة .

- أتقول أن الفواعلى هو الذى ..

وصاح القطب فى السائق أن يتوقف فوراً .

ثم فتح الباب ودفع منصور للخارج بكل غيظه .. وكل قوته .. !

(١٠٤)

** استرعى انتباهها أنها كانت مبعثرة بجوار حقيبة القطب ، على مكتبة ، فدفعها الفضول أن تنظر إليها .

معقول هذه البراءة .. !

وأحست الدكتوره هبة براحة ناعمة .

فلم ترفع بصرها عن وجه الطفل .

من هو .. ولماذا .. ؟

يبدو أن القطب قد نسيها .. أو لعله قصد أن تراها ، هذه الصور .. !

خرجت إليه فى الشرفة ، وكان منهمكًا يتصفح الجرائد .

ألقى بها واعتدل مرحبا ، باش الوجه .

كان على الترابيزة بقايا طعام .

– سامحينى كنت جائعًا .

وعندما جلست أمامه أمسك يدها مداعبًا .

– عندى استعداد أن أفطر مرة أخرى .

لم تره هكذا رائق المزاج .. من مدة .. !

وحين عاد يعاتبها على مكالمة الأمس ، تأكدت أن هناك شيئًا يحدث بداخله ، شيء غير طبيعي ، شيء يخصها هي ولا يستطيع أن يداريه .

وعلى قدر ما رطب صدرها هذا الشيء ، على قدر ما أقلقها أكثر .. !

تتخوف دائمًا من سلوك طارئ لا تجد له مبررًا .

لم تعتد أن يلح عليها القطب هكذا لتذهب إليه ، هناك في العريش أو في غيرها .

لم تهدهد عواطفها منذ زمن كلمات غزل وتشوق كتلك التي أحاطها بها بالأمس ، خلال مكالمته من العريش ، والتي امتدت لأكثر من الساعة .. !

– إيه .. أين ذهبت يا دكتوره .. ؟

انتبهت .. وضعت الصور أمامه ونظرت إليه ، تستقرئ ملامحه نظر إلى الصور وابتسم لها ..

– أجمل مفاجأة .. أضعها بين يديك .

تساءلت وهي تواري الاهتمام .. فمن هو .. ؟

أخذ إحدى الصور ونظر إليها .. وشرد ..

– ألا تشعرين بشيء .. يلمسك ..؟

– تعجبت من كلامه .. ما حكايتك .. ؟

أخذ كوب الحليب الذي تشرب منه وأفرغه في جوفه ، مبديًا تلذذًا بطعمه الخاص .

– هديتي لك .. لا .. هدية السماء .. ما رأيك . ؟

تعلق الشك بصدرها وراح يتأرجح .. أهو ابنه .. ؟

يبدو بالفعل شبه القطب .. له نفس العينين .. !

عادت تتساءل وهى ترفض التمادى فى المداعبة .

- من هو يا قطب .. ؟

وأصر أن يستزيد من ترطيب الجو .. بينهما .

- ألا تعجبك هدية السماء ..

همت بالقيام فاعترضها ..

- يا دكتورة .. ألا ننفلت قليلاً عن قوالبنا المحكمة . !

فى الطريق إلى مستشفى القطب التخصصى كان يكلمها عن إنجازاته فى العريش ، وعن لقائه بالمجاهدين فى رفح .

وكانت الدكتوره هبة مشغولة بالمفاجأة التى لمح القطب إليها .

تنتظر أن تراها بعينيها كما وعدها .

وبرغم توجس القلب مما قد يصدمها من تقلبات القطب وغدره ، إلا أنها كانت تحس بأوتار حريرية ، غاية فى الشفافية ، تداعب فراغ صدرها وتناغمه !

... ووقفت ساهمة أمام السرير .. تنظر ولا تفهم .. !

أهذه هى المفاجأة التى وعدها بها .. ؟

الطفل .. هو نفس الطفل الذى فى الصورة .. !

ما الحكاية بالضبط يا قطب .. وأين تخفى المفاجأة .. ؟

وكان القطب قد أخذها مباشرة إلى حجرة بالمستشفى ، حيث يرقد الطفل فى رعاية الممرضة ، تلك التى أتت به من العريش .

أخرج القطب الممرضة وأغلق الباب .

أمسك يد الدكتوره هبة وكانت تتطلع إلى الطفل .

- ما رأيك .. ؟

حطت الدهشة على وجهها واستكانت .

– من هو .. ؟

ابتسم الطفل وهو يشعر بعقلة الإصبع تناوش يده الباحثة .

– ابننا يا دكتوره .

توفد الشك وانغرس فى صدرها ، مؤكداً حَدْسها .

توقعت أنه ابنه .. الطفل ابن القطب .

أخيراً جاءه الولد .. !

وأخيراً بدت السعادة على نظرته ، السعادة الحقيقية ، وعلى كلامه ، وعلى تشوقه .

هو ابنه .. الدم لا يكذب .. !

أين الأم يا قطب .. ؟ زوجتك الموعودة .. ؟

قطعاً ستكون المفاجأة الثانية .. بعد طول العشرة وطول التضحيات يا قطب . !

وليس غريباً عليك ، فأنت هو أنت القطب ولن تتغير .

تراءى له وجه المرأة مراقباً .

– ماتت أمه .. !

أبدت تأثراً ظاهرياً .

– البقاء لله .. البركة فى أبيه .

تراءى له حطام الرجل مركونا إلى الحائط .

– ومات أبوه .. !

تطلعت إليه وهى حائرة ، خانها نكاؤها أن تكتشف لعبته المبتكرة ، فهو قطعاً يدبر أمراً .. !

– ماتت أمه ومات أبوه .. ؟

هكذا مرة واحدة .. ؟

كانت اليد الصغيرة تشد عقله الإصبع وتتعلق بها .

أخذ يدها ووضعها على اليد الصغيرة ، فتركت عقلة الإصبع وتعلقت باليد فى تلهف .

- وفقد الأهل كلهم .

ركبها الضيق من كلامه الملغز .

- والآن ماذا تريد منى .. ؟

قال فى اقتناع .. سيكون طفلنا .

صاحت وهى تجذب يدها عن الطفل .

- أسألك من هو يا قطب . ؟

تفزع الطفل وانتفض ، بكى فى تشنج وظل فمه الصغير يرتعد . ترددت .. هل تسكته .. ؟

لاحظت حركة عينية فساورها الشك .. وتبادلت مع القطب نظرة متسائلة .

دخل مدير الأمن ومعه التليفون . قال إن الباشا فاروق غراب مصر على أن يكلمه .

زحفت يدها للطفل تربت عليه ، وكان يبكى فى حرقه .. !

أخذته الدهشة القطب ، فنظر إليها مستطلعًا .. أما زال الرجل حيًا .. ! ؟

حملت الطفل إلى صدرها تهدهده .

- كان ميتا بالفعل ، وأحياه الله .. !

ومطت شفتها .. أعمار .. !

بدأ الطفل يدخل فى صدرها ويستكين .

كان صوت فاروق غراب ثقيلاً وحاسماً .

- لم تحسبها جيداً هذه المرة يا قطب .

لا بأس .. سأقوم بالتسوية اللازمة بمعرفتى يا معالى العضو .. !

(١٠٥)

** لم تكن تتصور أن الأمور تصل لهذه الدرجة ، وبهذه السرعة .. !

كانت الدكتوره هبة تنظر للطفل ولا تكاد تصدق ما يترسخ بداخلها ، معه مشاعر المؤانسة والاطمئنان ، ما يعود من هذه المشاعر التى فقدتها رغما عنها ، حين انتزع الولد من أحضانها وعاد للأم الحقيقة .. !

كان بتر الأمومة المتنامى على صدرها أقوى من احتمالها .

عايشت تبرعمه وامتداد جذوره إلى جوف القلب .

وأيقنت بواقعيته وارتاحت لملامسته مناطق العجز الأنثوى بداخلها لحظات ، فرطبتها وأنعشتها .

لاشك هى من أجمل لحظات العمر .. !

كانت تتصور أنها فقدت فرصة الحب الغريزى ، حب الأمومة ، ولكنها تعايش الآن بوادر أمل جديد ، لم يكن أبداً فى الحسبان ، ولم تكن تتوقعه بكل حساباتها الفكرية والإنسانية ، تلك التى تتعامل بها مع دنيا البشر .. !

هو لاشك سر المتعة الإلهية لها .. !

والتمعت فى عينها دمعه مرتعشة .

فسبحان من زرع بداخلها حب الأمومة لهذا الطفل . هذا الكائن الصغير جداً ، والذى جاء به القطب من العريش . على غير موعد ، وعلى غير توقع . فقد كانت تستبعد

أن يلتفت القطب يومًا لمثل هذا الموقف الإنسانى ، أن تترك له طاحونة دنياه المسعورة الفرصة لأن يلمح هذا النبت البرى يخرج من قلب صخرة صلدة .. !

وبرغم كل متاعب القطب التى وقعت عليها ، فهى تغفر له طائعة ، وفى هذه اللحظة بالذات .. فقد أتاها بالطفل .. !

كانت العربة تقطع الطريق لمطار القاهرة .

وكان عباس جالسا بجوار السائق .

أعطاه القطب بعض الأوراق .. وكان يشرح له كيف يتحرك ، وكيف يحصل على الموافقات اللازمة للبدء فى مشروع مشردى الاعتداء الإسرائيلى ، مهونا عليه الأمر لحين عودته ، فهو لن يتأخر فى الخارج عن الأسبوعين .

وكنت الدكتوره هبة مشغوله بالتفكير .. تفكر وعينها على الطفل الراقد فى مهده .

كانت مستسلمة لوسادة الهواء ترتفع برأسها ، تأخذه إلى أجواء ذات سحر خاص .

فهى تعود الآن أمًا ..

تلاعب وترضع وتهدهد وتتشوق .. تناوش خمول أنوثتها .. !

منذ أن لامست يد الطفل .. وتشربت براءته . ومنذ أن عرفت أنه أصبح لها وحدها ، ولن ينتزعه مخلوق من أحضانها .

وأيضًا منذ أن شغلتها مأساة عينيه .. !

وابتسمت لوجهها فى مرآة العربة .

فمن الاستحالة كانت توافق على السفر للخارج هكذا فجأة .. !

وبدون أن ترتب أمرها ومسئولياتها بالشكل المنطقى ، لولا أن لمعت الفكرة فى رأسها ولبدت فيه .

فما إن عرفت برغبة القطب فى السفر لإنجلترا ، لتخليص بعض أعماله ، حتى عرضت عليه أن تسافر معه ، محتجة بالإرهاق ، والتعطش لفترة استجمام ..

ثم إنها تنتهز الفرصة لعرض حالة الطفل على صديقتها الإنجليزية ، مديرة مستشفى العيون هناك .

كانت الدكتوره هبة تتلهف لأن يراها الطفل بعينيه ، حيث تنفذ منهما إلى القلب الرهيف .. !

وبدأ أن القطب كان ينتظر الفرصة ، لعرض حالة الطفل على أطباء أجانب .

ولكنه استبعد أن تبادر الدكتوره هبة بالقبول ، فى أن ترافقه ، ولذلك كان ينتظر .. !

كانت ابتسامته صافية ، وهو يعدها بأيام شهر العسل ، وما كان أسعدها من أيام .. !

دخل معهم عباس إلى صالة السفر بالمطار .

فودعهما وانتظر ..

لم يعرف القطب لماذا راح مسئول الجوازات يتطلع إليه هكذا .. ثم ينظر فى أوراقه ، وفى جواز السفر .. !

وكانت الدكتوره هبة تقف خلفه تنتظر أن يتحرك .. والطفل فى يدها . تململ القطب وهم بالكلام .

احتجز الرجل جواز سفر القطب .. معلنا فى برود أن هناك أمرًا نيابيًا بمنعه من السفر .

وفوجئ القطب بشىء مجموع يقعد بداخله .

بينما تفزعت عيناه فى أنحاء المكان ثم حطت على عينى الدكتوره هبة .. فى دهشة مستنكرة ... !

١٤/٤/٢٠٠٣

طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

رقم الإيداع ٣٠٢٠ / ٢٠٠٤



المؤلف فى سطور

الاسم الثلاثى : نبيل محمد عبد الحميد

اسم الشهرة : نبيل عبد الحميد

تاريخ الميلاد : ١٩٣٧/٩/٢٩ القاهرة - الأزبكية .

المؤهل : بكالوريوس تجارة ١٩٦٣

تليفون ٣٧٦٧٠٣٦

- عضو اتحاد الكتاب
- نائب رئيس مجلس إدارة نادى القصة
- تولى الإشراف على صفحة الأدب بجريدة المساء فى الثمانينيات
- لجنة الأدب بالمجالس القومية المتخصصة فى الثمانينيات
- حاصل على جائزة الدولة التشجيعية فى الرواية عام ٨٤
- حاصل على وسام العلوم والفنون من الطبقة الأولى عام ٨٦
- مدير تحرير مجلة القصة لما يزيد عن عشرين عاماً

هذه الرواية تقدم رؤية نافذة لمرحلة مهمة من مراحل حركة المجتمع المصرى فى فترة التحولات الكبرى فى النصف الثانى من القرن العشرين، وهى تتخذ من الشخصيات دلالات مركزية لرؤية الواقع، ورؤية ما وراء الواقع، ولذلك فإن هذه الشخصيات تعد بمثابة الرموز الكلية التى تبنى عليها الرواية، وفى الوقت نفسه، تعد معادلات موضوعية للرؤية الفكرية التى تحرص عليها الحالة الروائية ومن أهم هذه الشخصيات "فرس النبى" الذى يمثل ظاهرة مجتمعية غاية فى الخصوصية والخطورة وتؤثر بمداها على كل عناصر السرد فى النص.